أمين خزانة البلدة

جوزيف سميث فليتشر

ترجمة سارة طه علام

أمين خزانة البلدة

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

أمين خزانة البلدة

جوزيف سميث فليتشر

The Borough Treasurer

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٦ ٢٧٣٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٩.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- ابتزاز	٧
٢- الجريمة والنجاح	١٥
٣- جريمة قتل	٢٣
٤- غابة الصنوبر	٣١
٥- الحبل	٣٩
٦- العمدة	٤٧
٧- مهمةٌ ليلية	٥٥
٨- مُحتجَز للدفاع	٦٣
٩- سجلٌّ جنائي	٧١
١٠- حفرة سقف القش	٧٩
١١- كريستوفر بيت	٨٧
١٢- قلقٌ أبوي	٩٥
١٣- خطاب من مجهول	١٠٣
١٤- منشور المكافأة	١١١
١٥- شيء يؤدي إلى آخر	١١٩
١٦- الأراضي السَّبخة المنعزلة	١٢٥
١٧- الرأي الطبي	١٣٣
١٨- دفتر القصاصات	١٤١
١٩- رجل طويل القامة يرتدي ملابس رمادية	١٤٩
٢٠- محاصر في زاوية	١٥٧

٢١- محاولة الهروب الفاشلة ١٦٥
٢٢- اليد التي تعمل في الظلام ١٧١
٢٣- أَسْرٌ مُريح ١٧٩
٢٤- خطوط عمل صارمة ١٨٧
٢٥- لا شهادات أخرى ١٩٥
٢٦- فضائل الشك ٢٠١
٢٧- السيد رايثويت سليل عائلة راي ٢٠٩
٢٨- صفحات من الماضي ٢١٧
٢٩- دون تفكير في العواقب ٢٢٣
٣٠- كوذرستون ٢٢٧
٣١- أتعاب المحاماة ٢٤١

الفصل الأول

ابتزاز

في منتصف الطريق على امتداد الجانب الشمالي من الشارع الرئيسي لبلدة «هاي ماركت»، ترتفع بوابةٌ حجرية عتيقة ومهيبة بما يكفي لتُوحي بأنها كانت في الأصل مدخلًا لقصرٍ يشبه القلاع أو منزلٍ ريفي فخم، وتُفضي هذه البوابة إلى فِناءٍ مربَّع، محاط بمَبانٍ مُماثلة في القِدَم. لم يَكن الغَرَض الذي كانت من أجله هذه المنازل تُستخدَم فيما مضى واضحًا للمُراقب العادي اللامبالي، لكنَّ استخدامها الحالي كان واضحًا للعِيان بما فيه الكفاية، حتى لأقلِّهم ملاحظة. فهنا تُوجد أكوامُ أخشاب من النرويج، وهناك أكوامُ أردواز من ويلز، وهنا رخامٌ من أبردين، وهناك أسمنت من بورتلاند؛ كانت الغرف القديمة للمباني الرمادية تعجُّ عن آخرها بكل ما يُستخدَم لبناء منزل؛ قِطَع حديدية، وزنك، ورصاص، وبلاط، ولفائف ضخمة من الأنابيب، ومخزونات من الأجهزة المنزلية. وعلى لوح نحاسي لامع مثبَّت في الجدار، بعد البوابة مباشرةً، كانت الكلمات التالية مكتوبةً بنقوشٍ غائرة: «مالاليو وكوذرستون، بنَّاءون ومقاولون».

كلُّ مَن سار إلى فِناء مالاليو وكوذرستون بعد ظهيرة أحد أيام شهر أكتوبر قبل بضع سنواتٍ كان سيُشاهد مالاليو وكوذرستون شخصيًّا. كان الشريكان قد خرجا من مكتبهما ونزَلا إلى الفناء لتفقُّد نصف دزينة من عربات الجر الجديدة، التي انتهى العمل عليها للتو، والآن صارت متألِّقة للغاية بطِلائها الجديد. كان مالاليو قد صمَّم تلك العربات بنفسه، وكان الآن يُوضِّح مزاياها إلى كوذرستون، الذي كان أكثر اهتمامًا بناحية مسك الدفاتر والحسابات وكتابة الرسائل من اهتمامه بالعمل الفِعلي للشركة. كان مالاليو رجلًا ضخمًا سمينًا، ما بين الخمسين والستين من العمر، ذا وجهٍ كبير وقور وسعيد، وعينَين صغيرتَين خبيثتَين ارتسم عليهما تعبيرٌ يَقِظ رصين؛ وكانت ملابسه دائمًا من النوع الفخم بجلاء، وملابسه الكتَّانية جديدة ولامعة؛ وأضفت عليه السلسلة الذهبية السميكة حول

رقبته الكبيرة، والقبَّعة الحريرية التي كان يرتديها دومًا، أماراتِ رفاهيةٍ لا تُخطئها عين. وقف الآن والقبَّعة الحريرية مائلة قليلًا إلى أحد الجانبَين، واضعًا إحدى يدَيه تحت ذيل مِعطَفه الصوفي، ويُشير بإصبعٍ قصير سمين إلى بعض المَيْزات الجديدة لآلية عمل العربات الجديدة، وبدا بهيئته هذه تجسيدًا للرِّضا عن النفس والسرور المُتعجرِف.

كان يقول: «كل شيء يجري في خطوةٍ واحدة فقط، هل ترى يا كوذرستون؟» وأضاف: «سحبةٌ واحدة لمسمار التثبيت هذا وستُطلَق الحمولة بالكامل. لا بد حقًّا أن نحصل على براءة اختراعٍ لهذه الفكرة.»

اقترب كوذرستون من العربة التي كانا يَفحصانها. كان مناقضًا بقَدْرٍ كبير لشريكه؛ إذ كان رجلًا ضئيل البنية بعض الشيء، مُتوتِّرًا، وعصبيًّا وذا حركاتٍ سريعة؛ وعلى الرغم من أنه كان أصغر سنًّا من مالاليو، فقد بدا أكبر، كما أخذ الشعر الرفيع النامي على صدغه يستحيل إلى شيب بالفعل. أوحى مظهر مالاليو بالصلابة وبالنعومة التي تكاد تُشبه نعومة الأبقار، أما كوذرستون، فقد أوحى نشاطُه في الكلام والإيماءات تقريبًا بمظهر شخصٍ قَلِق باستمرار. سار حول العربة بحركةٍ سريعة تشبه حركة طائر أو حيوانٍ فضولي يَفحص شيئًا لم يسبق له رؤيته من قبلُ.

أجاب قائلًا: «أجل، أجل، أجل!». وأكمل قائلًا: «أجل، تلك فكرةٌ جيدة. ولكن كما تعلم، إذا كانت ستَحصُل على براءة اختراع، فلا بدَّ أن نفعل ذلك على الفور قبل أن تدخل هذه العربات حيِّز الاستخدام.»

علَّق مالاليو مداعبًا: «عجبًا، لا أحد في هاي ماركت يرغب في سرقتنا.» وتابع: «قد تفكِّر في الحصول من أجل ذلك على ... ماذا يُسمونها؟ حماية مؤقتة؟»

أجاب كوذرستون: «سأبحث الأمر.» ثم أردَف: «الأمر يستحق ذلك على أي حال.»

قال مالاليو: «فلتفعل.» وأخرج الساعة الذهبية الكبيرة التي كانت مُعلَّقة في نهاية سلسلته المجدولة، وألقى نظرةً سريعة على قُرصها المرصَّع بالجواهر. صاح: «يا إلهي!» وأردَف: «الساعة الآن الرابعة؛ لديَّ اجتماع في قاعة استقبال العمدة في الرابعة وعشر دقائق. لكنَّني سأعود ثانيةً في زيارةٍ سريعة قبل العودة إلى المنزل.»

هُرع نحو بوابة الدخول، وبعدما فحص كوذرستون العربات الجديدة فحصًا دقيقًا، ألقى نظرةً سريعة على بعض الأوراق التي كان يَحملها في يده وتَوجَّه نحو شحنة بضائع كانت تتطلَّب فحصًا. كان يضع بحرصٍ علامةً عليها في قائمةٍ يحملها عندما نزل موظَّف إلى الفناء.

قال: «لقد جاء السيد كايتلي كي يَدفع إيجاره يا سيدي.» وأضاف: «طلب أن يقابلك شخصيًّا.»

عَدَّ كوذرستون: «خمسة وعشرون، ستة وعشرون، سبعة وعشرون.» وأجاب قائلًا: «خُذه إلى المكتب الخاص يا ستونر.» وأضاف: «سأَحضُر بعد دقيقة.»

واصل فحصه حتى انتهى، وكتب الأرقام في قائمته، ثم عاد سريعًا إلى مكتب المحاسبة القريب من البوابة. وهناك دخل مسرعًا إلى غرفة كانت مخصَّصة له ولمالاليو فقط، وبترحابٍ حيَّا زائره، وهو رجلٌ مُسِن كان مُؤخَّرًا قد استأجر منه منزلًا صغيرًا في ضواحي البلدة.

حيَّاه كوذرستون قائلًا: «مساء الخير، يا سيد كايتلي.» وأردف: «تُسعدني رؤيتك يا سيدي، دائمًا ما تُسعدني رؤية أيِّ شخص معه القليل من المال، أليس كذلك؟ تَفضَّل بالجلوس يا سيدي، آمل أن يكون المنزل الصغير قد نال رضاك، يا سيد كايتلي!»

جلس الزائر على الكرسي ذي الذراعَين، وعقد يدَيه على رأس عُكَّازه القديم، ونظر نظرةً سريعة إلى المالك بتعبيرٍ يَمزج بين الهزْل والتحيُّر. كان رجلًا مسنًّا، حليق الذقن، أشيب الشعر، هزيل البِنية، يَرتدي ثيابًا سوداء باهتة؛ وأضفى وشاحٌ أبيض رفيع حول رقبته مظهرًا كهنوتيًّا؛ وكان كوذرستون، الذي لم يكن يَعرف أي شيء عنه تقريبًا، باستثناء أنه كان بمقدوره دفع إيجاره وضرائبه، بالفعل قد حسبَه شماسًا متقاعدًا لإحدى الكاتدرائيات.

قال بهدوء: «أظن أنك والسيد مالاليو، لستما بحاجة إلى القليل من المال يا سيد كوذرستون.» وأضاف: «يبدو عملكما مزدهرًا، يا سيدي.»

أجاب كوذرستون دون تفكير: «أوه، إنه لا بأس به.» تابع وهو يجلس على مكتبه ويأخذ دفتر إيصالات: «لا شيء يدعو للشكوى بالطبع. سأعطيك إيصالًا، يا سيد كايتلي.» وأضاف: «لنَرَ، خمسة وعشرون جنيهًا في السنة تُساوي ستة جنيهات وربع جنيه في ربع السنة، تفضَّل يا سيدي. هل ترغب في القليل من الويسكي؟»

وضع كايتلي حَفْنة من العملات الذهبية والفضية على المكتب، وأخذ الإيصال، وأومأ برأسه إيجابًا، وهو لا يزال يُراقِب كوذرستون بنفس التعبير شبه الفكاهي.

وقال: «شكرًا لك.» وأضاف: «لا مانع.»

راقب كوذرستون وهو يُخرج زجاجة خمر وكئوسًا؛ ويجلب مياهًا نقيةً من مرشِّح للمياه في ركن الغرفة، ويخلط المشروبات، وأخذ كأسه بإيماءةِ شكرٍ مهذَّبة فحسب. وغمغم كوذرستون بعبارة تحمل تمنياتٍ طيبة، وتناوَل الشراب، وجلَس وكرسيُّ مكتبه مُوجَّه نحو الزائر.

سأله قائلًا: «أتُوجَد أي إصلاحاتٍ تَودُّ إجراءَها في المنزل، يا سيد كايتلي؟»

أجاب كايتلي: «لا، لا، لا يُمكنني قول إنه يُوجد شيء.»

كانت طريقته غريبة، وشبه حَذِرة، فنظر إليه كوذرستون بقليلٍ من الاستغراب.

وسأله: «وما رأيك في هاي ماركت بعد أن جرَّبتَ العيش فيها؟» وأردَف: «أظُن أنك قد استقْررتَ الآن، أليس كذلك؟»

أجاب كايتلي: «إنها كما كنتُ أتوقَّع بالضبط.» وأضاف: «هادئة ... وآمنة. وما رأيُكَ أنتَ فيها؟»

صاح كوذرستون متفاجئًا: «أنا!» وأردف: «أنا؟ ... حسنًا، أجل، لقد قضيتُ فيها ... خمسة وعشرين عامًا!»

أخذ كايتلي رشفةً أخرى من كأسه ووضعها. ورمق كوذرستون بنظرةٍ حادة.

قال: «أجل، خمسة وعشرين عامًا. قضيتماها كلاكما، أنت وشريكك. أجل ... مَرَّ حوالي ثلاثين عامًا منذ أول مرة رأيتكما فيها. ولكنكَ نسيت.»

فجأةً اعتدل كوذرستون — الذي كان يجلس مائلًا إلى الأمام ليُدفئ يدَيه عند نار المِدْفأة — في جلسته. بدا أن وجهه، الذي كان دائم الحدَّة، يزداد حدةً وهو يستدير نحو زائره بنظرةٍ متسائلة.

سأل بإلحاح: «منذ ... ماذا؟»

أجاب كايتلي: «منذ أول مرة رأيتكما فيها ... أنت والسيد مالاليو.» وأضاف: «كما قلتُ، لقد نسيتَ. لكنَّني لم أنسَ.»

جلس كوذرستون مُحدقًا في مُستأجره لمدة دقيقةٍ كاملة من الصمت. ثم نهض ببطء، ومشى إلى الباب، وفحصه كي يتأكَّد من أنه مُوصَد، وعاد إلى الموقد، وثبَّت نظره على كايتلي.

سأله: «ماذا تقصد؟»

أجاب كايتلي بضِحكةٍ جافة: «ما قلتُه فحسب.» وتابع: «مرَّ ثلاثون عامًا منذ أول مرة رأيتُكَ فيها أنت ومالاليو. هذا كل شيء.»

سأل كوذرستون بإلحاحٍ: «أين؟»

أشار كايتلي إلى مالك منزله بالجلوس. فجلس كوذرستون وهو يَرتعش. كانت ذراعه ترتجف عندما وضع كايتلي يده عليها.

سأل وهو ينحني مقتربًا من كوذرستون: «أتريد أن تعرف أين؟» وتابع: «سأخبرك. في قفص الاتهام، بمحكمة جنايات ويلشستر. هه؟»

لم يُجِب كوذرستون. كان قد وضَع يدَيه بحيث تلامسَت أطراف أصابع يدَيه، وحينئذٍ كان ينقر بأظافر إحدى يدَيه على أظافر اليد الأخرى. وأخذ يُحدِّق طويلًا في الوجه القريب جدًّا من وجهه، وكأنه وجهُ رجلٍ بُعثَ من القبر. كان يعتريه شعورٌ داخلي بإعياءٍ جسدي شديد؛ وسرعان ما تَبِعه شعور بالهمود، بنفس الدرجة من الشدة. شَعَر وكأنه قد نُوِّم مغناطيسيًّا؛ كما لو كان لا يستطيع الحركة أو الكلام. أما كايتلي، فكان جالسًا أمامه، واضعًا إحدى يدَيه على ذراع ضحيتِه، وارتسم على وجهه القريب من كوذرستون تعبيرٌ شِرِّير وذو مغزًى.

غمغم كايتلي قائلًا: «إنها حقيقة!» وأضاف: «حقيقةٌ مُطلقة! إنني أتذكَّر كل شيء. ولكنني تذكَّرتُه تدريجيًّا. ظننتُ أنني كنتُ أعرفكَ عندما جئتُ إلى هنا لأول مرة، ثم راودَني شعور بأنني أعرف مالاليو. وفي الوقت المناسب، تذكَّرتُ كل شيء! بالطبع عندما رأيتكما — حيثما رأيتكما — لم تكونا مالاليو وكوذرستون. كنتما ...»

فجأةً غالب كوذرستون إعياءَه جاهدًا، وأبعَد الأصابع النحيلة التي استَقرَّت على كُمِّه. استحال وجهُه الشاحب قرمزيًّا، وانتفخَت عروق جبهته.

قال بصوتٍ خفيض حاد: «تبًّا لك!» وأردف يسأل: «من أنت؟»

هَزَّ كايتلي رأسه وابتسم بهدوء.

أجاب قائلًا: «لا حاجة لأن تحتدَّ.» وأضاف: «بالطبع، هذا مُبرَّرٌ في حالتك. من أنا؟ حسنًا، إن كنتَ حقًّا تُريد أن تعرف، لقد عملتُ في سلك الشرطة لمدة خمسة وثلاثين عامًا، حتى وقتٍ قريب.»

صاح كوذرستون قائلًا: «محقق!»

أجاب كايتلي: «ليس عندما كنتُ حاضرًا في ويلشستر ... في ذلك الوقت.» وتابع: «ولكن بعد ذلك ... في الوقت المناسب. أوه! أتعلم؟ كثيرًا ما كان يَنتابني الفضول لمعرفة ما حلَّ بكما! ولكنني لم أتخيَّل قط أنني سأُقابلكما هنا. لقد اتجهتما شمالًا بالطبع بعدما قضيتما مدتكما، أليس كذلك؟ وغيرتما اسمَيكما، وبدأتما حياةً جديدةً، وها أنتما! تصرُّفٌ ذكي!»

أخذ كوذرستون يَستعيد زِمام عقله. كان قد نهض من كرسيِّه بحلول ذلك الوقت، ووقَف على سجادة المدفأة وظهره إلى النار، ويداه في جيبَيه، وعيناه مثبَّتتان على زائره. كان يُفكِّر، وفي الوقت الحالي، ترك كايتلي يتكلَّم.

أردف كايتلي بنفس نبرة الصوت الرزينة الخفيضة: «أجل، تصرُّفٌ ذكي! شديد الذكاء حقًّا! أظن أنكما قد خبَّأتما بعنايةٍ بعضًا من ذلك المال الذي حصلتما عليه، أليس كذلك؟

لا بد وأنكما قد فعلتما ذلك بالطبع؛ فقد كنتما بحاجة للمال لبدء هذا المشروع. حسنًا لقد فعلتما كل هذا باستقامة على أي حال. وقد أبليتما بلاءً حسنًا أيضًا. غريب، أليس كذلك؟ أن آتي للعيش هنا في أقصى شمال إنجلترا، وأجدكما في هذه الحال الجيدة أيضًا! السيد مالاليو، عمدة هاي ماركت، في ولايته الثانية! والسيد كوذرستون، أمين خزانة بلدة هاي ماركت، في عامه السادس الآن في ذلك المنصب المُهم! أقولها ثانيةً، لقد أبليتُما بلاءً حسنًا على نحوٍ استثنائي بحق!»

سأله كوذرستون قائلًا: «هل لديك أي شيءٍ آخر تُريد قوله؟»

لكن كان واضحًا أن كايتلي كان يَنوي أن يقول ما كان سيقوله بطريقته الخاصة. لم ينتبه لسؤال كوذرستون، وبعد قليل، كما لو كان يُسلِّي نفسه بذكرياتِ ماضٍ وَلَّى، تحدث مرةً أخرى، بهدوء وتأنٍّ.

غمغَم قائلًا: «أجل، على نحوٍ استثنائي! وبالطبع لديكما رأس مال. رأس مالٍ تدَّخرانِه في مكانٍ آمن، بالطبع، بينما كنتما تَقضيان مدتكما في السجن. لنَرَ، لقد احتَلْتما على «هيئة بناء»، أليس كذلك؟ كان مالاليو أمين الخزانة، وكنتَ أنتَ السكرتير. أجل، أتذكَّر الآن. كان المبلغ ألفين ...»

صاح كوذرستون فجأة وتحرك حركةً حادة، وتلقَّى المحقِّق السابق كلا التصرُّفَين بتغييرٍ مُفاجئ في طريقته وتعبير وجهه. إذ اعتدل كايتلي في جلسته ونظر إلى الشريك الأصغر سنًّا مباشرةً في وجهه.

قال بابتسامة أظهَرتْ أسنانه الصفراء: «لا تفعل ذلك يا كوذرستون!» وأردف: «لا يمكنك أن تَخنقني حتى الموت في مكتبك، أليس كذلك؟ لا يمكنك إخفاء جثَّتي العجوز بنفس السهولة التي أخفيتَ بها أنت ومالاليو أموالَ «هيئة البناء»، كما تعلم. لذا، اهدأ! أنا رجلٌ عاقل ... ولقد صرتُ مُسنًّا.»

قال هذه الكلمات الأخيرة بابتسامةٍ ذات مغزًى، بينما سار كوذرستون حول الغرفة مرةً أو اثنتَين محاولًا تهدئة نفسه. استمَرَّ كايتلي في الكلام بنفس النبرة الرتيبة قائلًا:

«فكِّر مليًّا في الأمر بكل الطرق. لا أظن أنه يُوجد أي شخص في إنجلترا قاطبةً يعرف سِرَّكما سواي. لقد كانت صدفةً محضة، بالطبع، أنني اكتشفتُ ذلك. ولكنني ... أعرف! فقط ضع في اعتبارك ما أعرفه بالفعل. ضع في اعتبارك أيضًا ما قد تخسرُه. ها هو مالاليو، الذي يحظى باحترامٍ كبير لدرجة أنه عمدة هذه البلدة القديمة للمرة الثانية. وها أنت ذا، تحظى بثقةٍ كبيرة جعلَتْكَ أمين خزانة البلدة لسنوات. لا يمكنكما تحمُّل تبعاتِ أن تتركاني

أُخبر الناس في هاي ماركت بأنكما سجينان سابقان! علاوةً على ذلك، في حالتك، ثمَّة شيءٌ آخر — ابنتك.»

تأوَّه كوذرستون تأوهًا عميقًا جليًّا لرجلٍ يُعاني عذابًا نفسيًّا شديدًا. إلا أن كايتلي واصل كلامه بلا رحمة.

فقال: «ابنتُك على وشك الزواج من أكثر شابٍّ واعد في البلدة.» وتابع: «شابٌّ ينتظره مستقبلٌ مهني واعد. هل تظُن أنه سيتزوَّجها إن علم أن والدها — حتى ولو كان ذلك منذ ثلاثين عامًا — قد أُدين بتُهمة ...»

قاطعه كوذرستون وهو يَصِر على أسنانه غضبًا: «انظر يا هذا!» وأكمل: «لقد اكتفيت! لقد سألتُكَ مرةً من قبلُ إن كان لديك أي شيءٍ آخر تَودُّ قوله، والآن سأصوغها بطريقةٍ أخرى. أعرف ما تسعى إليه، وهو الابتزاز! كم تريد؟ هيا، قل رقمًا!»

أجاب كايتلي: «لن أقول شيئًا حتى تخبر مالاليو.» وأضاف: «لا داعي للعجلة. فأنتما لا تستطيعان الهرب، وأنا لن أبرح مكاني. لدينا وقتٌ كافٍ، واليدُ العُليا لي. أَخْبر شريكك، العمدة، بكل ما قُلتُه لك، وبعد ذلك يمكنكما التشاوُر، وتقريرُ ما تميلان لفعله. ماذا عن معاشٍ سنوي؟ ذلك سيُناسبني».

سأل كوذرستون بقلق: «إنك لم تذكُر هذا لأي مخلوق، أليس كذلك؟»

قال كايتلي هازئًا: «أُفٍّ! هل تظن أنني أحمق؟ هذا أمرٌ مستبعد. حسنًا، إنك تعرف الآن. سآتي إلى هنا مرةً أخرى بعد ظهر الغد. وستكونان موجودَين وجاهزَين بعرضٍ لي.»

التقط كأسه، وشرب على مهلٍ ما تبقَّى منها، ودون كلمة وداع، فتح الباب وغادر بهدوء.

الفصل الثاني

الجريمة والنجاح

للحظاتٍ بعد أن تَركَه كايتلي، وقف كوذرستون يُحدِّق بنظرةٍ خاوية في الكرسي الذي كان يجلس فيه ذلك المُبتَز. كان حتى تلك اللحظة لا يزال عاجزًا عن استيعابِ ما حدث. كان فقط مفعمًا بدهشةٍ غريبة وغامضة بشأن كايتلي نفسه. بدأ يسترجع صِلاتِه بكايتلي. كانت صِلاتُهما حديثة، حديثة جدًّا؛ فقد كانت بالأمس فقط، كما يُقال. لقد زاره كايتلي في أحد الأيام قبل ثلاثة أشهر، وأخبره أنه جاء إلى هذه المنطقة لقضاء عُطلةٍ قصيرة، وأنه أُعجِب بشدة بكوخٍ كان كوذرستون يَعرض تأجيره، واستفسر عن إيجاره. لقد ذكر في معرض الحديث أنه قد تقاعد من العمل لتوِّه، ويريد مكانًا هادئًا ليقضي فيه بقية أيامه. لقد استأجر الكوخ، وأعطى مالكه تأكيداتٍ مُرضِية عن قدرته على دفع الإيجار، ولم يفكر كوذرستون، الذي كان رجلًا دائم الانشغال، بشأنه أكثر من ذلك. من المؤكَّد أنه لم يتوقَّع أبدًا مثل هذا التهديد الذي وجَّهه كايتلي له للتو؛ ولم يتخيَّل أبدًا أن كايتلي قد تعرَّف عليه وعلى مالاليو بصفتهما الرجلَين اللذَين كان يعرفهما قبل ثلاثين عامًا.

لقد كان كوذرستون يسعى طَوالَ حياته لنسيان كل شيءٍ عما حدَث قبل ثلاثين عامًا، وكان قد نجح إلى حدٍّ كبير في محوه من ذاكرته. ولكنَّ كايتلي أعاد كل شيء ثانيةً، والآن أصبح يتذكَّر كل شيءٍ كما لو كان حديث العهد. تقطَّب جبينُه واكفهَرَّ وجهُه وهو يُفكِّر في شيء من ماضيه كان كايتلي قد أتى على ذكره بسهولة وبغير تكلُّف ... قفص الاتهام. رأى نفسه في قفص الاتهام ذاك مرةً أخرى، ومالاليو يقف إلى جانبه. بالطبع لم يَكُن اسمهما مالاليو وكوذرستون في ذلك الوقت. تذكَّر ماذا كانت أسماؤهما الحقيقية، وتذكَّر أيضًا أنه لم يُردِّدها — حتى لنفسه — لسنواتٍ طويلة. أجل، تذكَّرَ كل شيء، ورآه أمامه مرةً أخرى. كانت القضية قد أثارت الكثير من الاهتمام في ويلشستر في ذلك الوقت، ويلشستر التي كانت على مدار ثلاثين عامًا بعيدةً عن تفكيره، ومن ناحية المسافة الفعلية،

كما لو كانت مكانًا على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. لم تكن قضيةً لطيفة، حتى حينئذٍ، عندما ينظر إليها من وجهة نظره الحالية، كانت تجعله يخجل من مجرَّد التفكير فيها. شابَّان عاملان من طبقةٍ اجتماعية جيدة يُتَّهَمان باختلاس أموالِ هيئة بناءٍ كان كلاهما يعمل فيها، واحدٌ أمين خزانة، والآخر سكرتير! إنها قضيةٌ سيئة. وقد اعتبرَتْها المحكمة قضيةً سيئة، وحُكِم على الجانيَين بالسجن لمدة عامَين. والآن لم يكن كوذرستون يتذكَّر فترة السجن تلك إلا كما يتذكَّر المرء حُلمًا مُريعًا. أجل ... كان هذا حقيقيًّا.

كانت عيناه واجمتَين ونَكِدتَين، ولكنه حوَّل نظره فجأةً من الكرسي المريح إلى يدَيه ... كانتا ترتعشان. دون تفكير أخذ زجاجة الويسكي من على مكتبه، وسكب بعضًا من محتوياتها في كأسه التي أحدثَت حافتُها رنينًا عندما اصطدمَت بزجاجة الخمر. غَمغَم في نفسه قائلًا، أجل، لقد كانت صدمةً فعلًا، ولن تنجح كل زجاجات الويسكي التي في العالم في تخليصِه منها. ولكن من شأن شرابٍ مُركَّز قوي أن يُهدِّئ من رَوعِه ويُلمِلِم شتاته؛ لذا شرب، مرةً، ومرتَين، وجلس وهو يحمل الكأس في يده ... ليمعن في التفكير.

كايتلي العجوز ذاك كان داهية، داهيةً بحق! لقد أصاب على الفور كبد حقيقةٍ لم يشُكَّ فيها أهل ويلشستر قبل ثلاثين عامًا مُطلقًا. وقد قيل في ذلك الوقت إنَّ المجرمَين خسرا أموال هيئة البناء في القمار والمضاربة، وكان يُوجد أساسٌ لذلك الاعتقاد. ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك. لقد وضع المتآمِران معظم الأموال بمهارة وعنايةٍ حيثما يُمكنهما الحصول عليها وقتما شاءوا، وعندما انتهت مدة السجن لم يكن لديهما أي شيءٍ يفعلانه سوى الاستيلاء عليها لأغراضهما الخاصة. لقد خطَّطا كل شيء ببراعة؛ فقد أقر كوذرستون، العقل المُدبِّر الأساسي، فيما يتعلَّق بأفعالهما من موقعِ أفضلية فارق ثلاثين عامًا، أنهما كانا لطيفَين وماكرَين وحذرَين إلى درجة كمالٍ مثيرة للإعجاب. لقد اختفَيا تمامًا، بهدوء وبصورةٍ غير ملحوظة إطلاقًا، من مقاطعتهما في أقصى جنوب إنجلترا عندما انتهت مدة عقوبتهما. كانا قد أشاعا أنهما ذاهبان إلى قارَّةٍ أخرى، لإصلاح الماضي وبدء حياةٍ جديدة؛ حتى إنه كان معروفًا أنهما سافرا إلى ليفربول كي يستقلَّا سفينةً متجهة إلى أمريكا. لكنَّهما في ليفربول تخلَّصا من كل شيء من الماضي؛ الأسماء والعلاقات والسجل الجنائي. لم يكن يُوجَد سبب يدعو أي شخص إلى مراقبتهما خارج البلاد، ولكنهما كانا قد اتخذا احتياطاتهما إزاء ذلك إن حدث. انفصلا واختفَيا، والتقيا مجددًا في أقصى الشمال، في ريفٍ قليل السكان ومُنعزلٍ ذي تلال وأودية، قادهما إليه إعلانٌ كانا قد طالعاه في صحيفةٍ محلية بمحض الصدفة في أحد فنادق ليفربول. كانت شركة قديمة معروضة للبيع كمنشأةٍ

قائمة، في بلدة الوادي، هاي ماركت، فاشتراها المُدانان السابقان. منذ ذلك الحين أصبحا أنتوني مالاليو وميلفورد كوذرستون، وأصبح الماضي خامدًا.

خلال الثلاثين عامًا التي كان الماضي فيها خامدًا، كثيرًا ما كان كوذرستون يَسمع رجالًا يقولون إن هذا العالم صغيرٌ جدًّا، وكان يسخر منهم في سرِّه. فيما يتعلَّق به وبشريكه كان العالم واسعًا وكبيرًا بما يكفي. كانا حينئذٍ على بُعد أربعمائة ميل من مسرح جريمتهما. ولم يكن يُوجَد أي شيء على الإطلاق يدفع سكان ويلشستر إلى المجيء إلى ذلك الريف الشمالي، وبالمثل، لم يكن يُوجَد شيء مِن شأنه أن يدفع بسكان هاي ماركت إلى المجيء إلى أي مكانٍ قريب من ويلشستر. لم يذهب هو ولا مالاليو أبدًا بعيدًا عن ديارهما؛ وقد حرصا على تجنبِ لندن بخاصَّة، خشية أن يُقابلا أي شخصٍ ممن كانوا يعرفونهما في الأيام الخوالي. لقد استقرَّا في ديارهما، ولم يبرحاها، واهتمَّا بشئونهما، عامًا بعد عام. كانا قد نجحا وازدهرا بكل تأكيد. وسرعان ما عُرِف عنهما أنهما شابَّان مُجتهِدان، ثم باعتبارهما ربَّي عملٍ جيدَين، وأخيرًا بصفتهما رجلَين يتمتعان بمكانةٍ مرموقة في بلدةٍ كان عدد سكانها لا يتجاوز خمسة آلاف نسمة فقط. لقد دُعِيَا للمشاركة في الشئون العامة، حيث انضمَّ مالاليو إلى مجلس المدينة أولًا، وتَبِعه كوذرستون في وقتٍ لاحق. لقد نجحا في إدارة شئون البلدة الصغيرة بقَدْر نجاحهما في إدارة شئونهما الخاصة، وفي الوقت المناسب حصل كلاهما على مناصبَ رفيعة؛ فقد كان مالاليو في الوقت الراهن يتقلَّد منصب العمودية للمرة الثانية، بينما كان كوذرستون، بصفته أمينَ خزانة البلدة، يُدير الشئون المالية لبلدة هاي ماركت لعدة سنوات. وبينما كان جالسًا هناك، يُحدِّق في الجمر الأحمر لِمدفأة مكتبه، تذكَّر أنه لم يكن يُوجَد رجلان في البلدة بأكملها يتمتَّعان بالثقة والاحترام أكثر منه هو وشريكه، شريكه في النجاح … وفي الجريمة.

ولكن ذلك لم يكن كل شيء. كان كلا الرجلين قد تزوَّج في غضون سنواتٍ قليلة من مجيئهما إلى هاي ماركت. لقد تزوَّجا من شابتَين تتمتَّعان بمكانةٍ طيبة في المنطقة؛ فكر كوذرستون في أنه ربما كان من الجيد أن زوجتَيهما قد ماتتا، وأن مالاليو لم يُرزَق بأطفالٍ قَط. لكن كوذرستون كان لديه ابنة، وكان مغرمًا بها بقَدْر ما كان فخورًا؛ فقد كدح وخطَّط من أجلها، وكان ينوي دومًا أن تكون امرأةً غنية. لقد حرص على أن تتلقى تعليمًا جيدًا؛ حتى إنه سمح لنفسه بأن يُحرَم من صُحبتها لعامَين عندما ذهبَت إلى مدرسةٍ مُكلِّفة بعيدة؛ كما أنه قد أحاطها بكل سبُلِ الراحة منذ أن كبِرَت. والآن، كما ذكَّره كايتلي، كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من شابٍّ، من أكثر شابٍّ واعد في هاي ماركت،

ويندل بينت، وهو صاحبُ مصنعٍ ثري، كان قد نجح نجاحًا كبيرًا في تطوير عملٍ تجاري رائع، كما أنه كان قد وضَع بصمتَه بالفعل على مجلس المدينة، وكان معروفًا أنَّ لديه طموحًا في الانضمام إلى البرلمان. كان الجميع يعلم أن بينت تنتظره حياةٌ مهنية عظيمة؛ فقد كان يتمتَّع بكل المواهب اللازمة، وبكل الأشياء المناسبة للنجاح في مثل هذه الحياة. سيُحقِّق نجاحًا؛ فمن المحتمل أن يحظى بلقبٍ، ربما بارونًا أو نبيلًا. كان هذا بعينه هو الزواج الذي أراده كوذرستون لابنته ليتي؛ وكان سيموتُ وهو في قمة السعادة إن أمكنَه أن يسمع ذات مرة مَن يدعوها بالليدي. والآن، ها هي تلك المصيبة!

جلس كوذرستون هناك طويلًا، يُفكِّر مليًّا ويَزِن الأمور. كان الغسَق قد جاء، وتبِعَته الظلمة؛ ولم يتحرَّك نحو حاملة المصباح الغازي كي يُضيئه. لم يكن أيُّ شيء يهمُّ سوى هذه المشكلة. لا بد أن يعالجها. مهما كان الثمن، فلا بد من شراء صمتِ كايتلي … أجل، حتى لو كلَّفه ذلك هو ومالاليو نصف ما يَمتلكانه. وبالطبع، لا بد من إخبار مالاليو … فورًا.

أخيرًا، نبَّهه طَرْق أحدهم على باب الغرفة الخاصة، فنهض وأخذ عُلبة ثقاب، وهو يأذَن للطارق بالدخول. دخل الموظَّف حاملًا حُزمةً من الأوراق، بينما اندفع كوذرستون نحو المصباح ليضيئه.

صاح قائلًا: «يا إلهي!» وتابع: «لقد جعلَني دفءُ نار المدفأة أغفو يا ستونر. ما هذا؟ رسائل؟»

أجاب الموظَّف: «كل هذه رسائلُ تحتاج لتوقيع، يا سيد كوذرستون، وهذه العقود الثلاثة تحتاج للمراجعة. كما تحتاج هذه المواصَفات للفحص أيضًا.»

قال كوذرستون: «لا بد أن يرى السيد مالاليو هذه.» أشعل المصباح الغازي الموجود فوق مكتبه، ونحَّى زجاجة الخمر والكئوس جانبًا، وأخذ الرسائل. قال: «سأُوقِّع هذه، على أي حال، وبعد ذلك يمكنك إرسالها بالبريد في طريق عودتك إلى البيت. سأنتهي من الأوراق الأخرى صباح الغد.»

وقف الموظَّف خلف سيدِه بمسافةٍ قليلة بينما كان كوذرستون يُوقِّع رسالةً تلو أخرى، وهو يُلقي نظرةً سريعة على كلٍّ منها. كان شابًّا في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، وكان يتَّسم بالسرعة، وقوة الملاحظة، والعين الثاقبة، أمَّا وجهه فلم يكن وسيمًا، وبينما كان يقف هناك، كان وجهُه مُنحنيًا على كوذرستون وترتسم عليه نظرة تخمين. كان ستونر قد لاحظ استغراق ربِّ عمله في التفكير، والعتمة التي كان كوذرستون يجلس

فيها، وزجاجة الخمر على المنضدة، والكأس التي في يده، وكان يعلم أن كوذرستون كان يكذب عندما قال إنه كان نائمًا. لاحظ أيضًا العملات الذهبية الستة والعُملتَين أو الثلاث العملات الفضية الموضوعة على المكتب، وتساءل ما الذي جعل سيده شاردَ الذهن هكذا لدرجة أنه نسيَ وضعهم في جيبه. فقد كان يعرف كوذرستون جيدًا، وكان كوذرستون شديد الدقة فيما يتعلق بالمال، فهو لم يسمح قَط أن يُوضَع ولو بنسٌ واحد في غير مكانه.

قال كوذرستون وهو يعيد مجموعة الرسائل إلى ستونر: «تفضَّل!» وأردَف قائلًا: «أظُن أنك ستُغادر الآن. ضع تلك الرسائل في صندوق البريد. أنا لن أغادر بعدُ؛ لذا سأغلق أنا المكتب. اترك الباب الخارجي مفتوحًا؛ فالسيد مالاليو سيعود.»

أسدل ستائر الغرفة الخاصة بعدما رحل ستونر، وبعدما فعل ذلك، أخذ يَذرَع الغرفة جيئةً وذهابًا في انتظار شريكه. وبعد قليل، وصل مالاليو وهو يُدخِّن سيجارًا، وكان واضحًا أنه كان في مزاجٍ جيد كالمعتاد.

قال مالاليو وهو يدخل الغرفة: «أوه، أما زلتَ هنا؟» وأردف: «أنا ... ماذا بك؟»

توقَّف فجأةً بالقرب من شريكه، وكان الآن يقف مُحدِّقًا فيه. وإذ ألقى كوذرستون نظرةً خاطفة عَبْر كتف مالاليو العريض في المرآة، رأى أنه هو نفسه قد صار شاحبًا ومُنهكًا على نحوٍ مُذهل. بدا أكبر بعشرين عامًا مما كان عليه عندما حلَق ذَقَنه ذلك الصباح.

ألحَّ مالاليو في السؤال: «هل أنت بخير؟» وأردف: «ما الأمر؟»

لم يُجبْه كوذرستون. سار مُتجاوزًا مالاليو ونظر إلى المكتب الخارجي. كان الموظَّف قد غادر، وكان المكان شبه مُظلِم. ومع ذلك، أغلق كوذرستون الباب بحذرٍ شديد، وعندما عاد إلى مالاليو، أخفَض صوتَه حتى صار همسًا.

وقال: «أخبارٌ سيئة!» وأردف: «أخبارٌ سيئة جدًّا!»

تساءل مالاليو: «بخصوص ماذا؟» وتابع: «أمرٌ شخصي؟ أم شيءٌ يتعلَّق بالعمل؟»

اقترب كوذرستون حتى أصبحت شفتاه قريبتَين جدًّا من أذن مالاليو.

وهمس قائلًا: «ذلك الرجل كايتلي ... مُستأجري الجديد.» وأضاف: «لقد قابلَنا، أنا وأنت، من قبلُ!»

شَحبَت وجنتا مالاليو الورديتان، واستدار بحدَّة مواجهًا رفيقه.

وصاح قائلًا: «قابلَنا!» وأضاف: «هو! أين؟ ومتى؟»

قرَّب كوذرستون شفتَيه أكثر.

وأجاب: «ويلشستر!» وتابع: «قبل ثلاثين عامًا. إنه ... يعرف!»

سقَط مالاليو على أقرب كرسي؛ سقط كما لو كان قد أُصيب برصاصة. وصار وجهه، الذي كانت الحُمرة تكسوه بفِعْل الهواء الشديد في الخارج، شاحبًا مثل وجه شريكه؛ وسقط فكُّه، وفغَر فاه، وبدت نظرةٌ مُتوتِّرة في عينَيه الصغيرتَين.

تمتَم بصوتٍ خشِن قائلًا: «يا إلهي!» وأضاف: «أنتَ لستَ جادًّا!»

أجاب كوذرستون قائلًا: «إنها حقيقة.» وأردف: «إنه يَعرف كل شيء. إنه مُحقِّقٌ سابق. كان حاضرًا هناك ... في ذلك اليوم.»

سأله مالاليو: «هل تعقَّبَنا؟» وتابَع: «هل هذا ما حدث؟»

فقال كوذرستون: «كلَّا.» وأردَف: «محضُ صدفة ... مصادفةٌ تامة. تعرف علينا ... بعدما جاء إلى هنا. أجل ... بعد كل هذه السنوات! ثلاثين عامًا!»

بينما كانت عينا مالاليو تحومان في الغرفة، وقعَتا على زجاجة الخمر. فاجتذَب نفسه من الكرسي، ووجد كأسًا نظيفة، واحتسى جرعةً مركَّزة. ورأى شريكَه، الذي كان يُراقبه، أن يدَيه كانتا تَرتجفان أيضًا.

قال مالاليو: «تلك مُعضلةٌ صادمة!» ازداد صوته قوةً، وعادت الدماء إلى وجنتَيه. وأكمل قائلًا: «مُعضِلةٌ صادمة بحق! أن يَحدث هذا بعد ثلاثين عامًا كما تقول! إنه أمرٌ صعب إنه أمرٌ صعب لعين! و... ماذا يُريد؟ ما الذي سيفعله؟»

أجاب كوذرستون بضحكةٍ جافَّة هازئة: «يُريد ابتزازنا، بالطبع.» وتابَع: «ما الذي ينبغي عليه فِعلُه غير هذا؟ ما الذي يُمكنه فِعله؟ عجبًا، يمكنه إخبار الجميع في هاي ماركت بحقيقتنا، ويُمكنه ...»

قاطعه مالاليو قائلًا: «أجل، أجل! ولكن هذا الشيء موجودٌ هنا.»

«بافتراض أننا توصَّلنا لتسوية معه، هل تُوجد أي ضمانة لسكوتِه حينئذٍ؟ ستكون اللعبة القديمة المعتادة فحسب؛ سيَرغب في المزيد من المال.»

علَّق كوذرستون، وهو غارق في التفكير، قائلًا: «قال إنه يريد معاشًا سنويًّا.» وتابع: «وأضاف تحديدًا أنه يتقدَّم في العمر.»

سأله مالاليو: «كم عمره؟»

أجاب كوذرستون قائلًا: «بين الستين والسبعين.» وأضاف: «لديَّ انطباع أنه يمكن الوصول معه لتسوية، يمكن ترضيتُه. لا بد أن يكون راضيًا! لا يمكننا أن ندع الأمر يتسرَّب ... لا يمكنني، بأي حال. لديَّ ابنتي التي لا بد أن أفكِّر فيها.»

سأله مالاليو قائلًا: «هل تظن أنني سأدع الأمر يَتسرَّب؟» وتابع: «لا! كل ما أفكر فيه هو إن كان بإمكاننا حقًّا إسكاته. لقد سمعتُ عن حالاتٍ ابتُزَّ فيها أشخاصٌ ودفعوا أموالًا لسنواتٍ طويلة، ولم يُفِدْهم ذلك في شيء في النهاية.»

قال كوذرستون: «حسنًا، سيأتي إلى هنا في وقتٍ ما بعد ظهر الغد.» وأضاف: «من الأفضل أن نقابله معًا. ففي نهاية الأمر، إعطاؤه مائةَ جنيهٍ إسترليني، أو بضعَ مئاتٍ، كل عام، سيكون أفضل من ... الفضيحة.»

تجرَّع مالاليو الويسكي ودفع الكأس جانبًا.

وقال: «سأُفكِّر في الأمر.» وتابَع: «الأمر المؤكَّد هو أنه لا بد من إسكاته. يجب أن أذهب؛ فلديَّ موعد. هل ستُغادِر؟»

أجاب كوذرستون: «ليس بعدُ.» وأضاف: «لا بدَّ أن أُراجع كل هذه الأوراق. حسنًا، فكِّر في الأمر جيدًا. إنه رجلٌ يُخشَى منه.»

لم يُجِب مالاليو. ومثل كايتلي، غادر دون كلمة وداع، وبقي كوذرستون وحده مرةً أخرى.

الفصل الثالث

جريمة قتل

بعدما غادر مالاليو، جمع كوذرستون الأوراق التي أحضَرَها له موظَّفه، وجلس إلى مكتبه وحاول أن يُولِيَها انتباهه. لم يُسفِر هذا الجهد عن أي نجاح. كان يأمل أن تجلب له مشاركة الأخبار السيئة مع شريكه بعض الراحة، إلا أن مخاوفه كانت لا تزال قائمة. كان دومًا يرى تلك النظرة الغريبة الشريرة في عينَي كايتلي الفطنتَين؛ وأوحت بأنه طالَما كان كايتلي على قيد الحياة، فلن يَحظيا بأي أمان. حتى لو حافظ كايتلي على وعده، وصان أي اتفاق أتمَّاه معه، فسيظل الشريكان دومًا تحت رحمته. وطيلة ثلاثين عامًا لم يكن كوذرستون تحت رحمة أي شخص، وكان الخوف من أن يكون له سيدٌ أمرًا بغيضًا له. تمنَّى من كل قلبه أن يموت كايتلي، أن يموت ويُدفَن، ويُدفَن سرُّه معه؛ تمنَّى لو كان ممكنًا بأي طريقة أن يسحقه ويُزهِق روحه وهو جالس على ذلك الكرسي المريح ما إن أظهر مكنون نفسه الخبيث الشرير كالأفعى. فقد يقتل الإنسان أي حشرةٍ سامة أو أي أفعَى مؤذية، فلِمَ لا يقتل إنسانًا يمتصُّ دمه مثل ذلك الرجل؟

جلس هناك لفترة طويلة، يحاول جاهدًا إيلاء تركيزه لأوراقه، وكان تظاهره هذا سيئًا. اهتزت الأرقام أمامه؛ ولم يكن بإمكانه استيعاب التفاصيل الفنية المذكورة في المواصفات والتقديرات؛ وبين الحين والآخر، كانت تنتابه نوبات من الذهول، وجلس وهو يقرع أطراف أصابعه على نشافة الحبر، محدقًا بخواء نحو الظلال الموجودة في أبعد أركان الغرفة، مُفكرًا دومًا — مفكرًا في الخطر الرهيب الذي يواجهه: افتضاح الحقيقة. ودائمًا، على عكس ما كان يُظْهِر، كان يقول إنه لم يكن يهتمُّ بنفسه على الإطلاق، وأنه كان بإمكان كايتلي أن يفعل ما يشاء، الآن أو مستقبلًا، لو كان يُفكر في نفسه فحسب. ولكن ... ليتي! كانت حياته كلها الآن تتمحور حولها، وحول سعادتها، وكما كان يعلم، كانت سعادة ليتي تتمحوَر حول الرجل الذي كانت ستَتزوَّجه. وكوذرستون، على الرغم

من اعتقاده أنه كان يعرف الناس جيدًا، لم يكن مُتأكدًا من أنه يعرف ويندل بينت بما يكفي ليثق في أنه سيتحمَّل اختبارًا قاسيًا كهذا. كان بينت طَموحًا، وعاقدَ العزم على مسارٍ مهني بعينه. هل كان بينت من الرجال الذين يتحمَّلون معرفة حقيقةٍ كالتي قد يُقدِّمها له كايتلي؟ لأنه كان يُوجد خطرٌ دائم يتمثَّل في أن كل ما قد يفعله هو ومالاليو، قد يُبدِّده كايتلي، ما دام ينبض بالحياة.

انتفض كوذرستون في كرسيِّه عندما انطلق صوتُ رنينٍ مفاجئ لجرس الهاتف الموجود في المكتب الخارجي، كما لو أن يدَ العدالة قد أطبقَت عليه فجأة. نهض رغمًا عنه مرتجفًا، وكان جبينه يَندَى بقطراتٍ من العرق وهو يسير عَبْر الغرفة.

تمتَم في نفسه قائلًا: «تمالَكْ أعصابك!» وتابع: «لا بدَّ أنني في حالٍ غريبة حتى أفْزَع هكذا. لن يُجدي هذا نفعًا! خاصةً في هذا المنعطف الخطير. ما الأمر؟» هكذا تساءل، وهو يتَّجه إلى الهاتف. وأردَف: «من المتكلم؟»

عَبْر الهاتف جاءه صوت ابنتِه المتفاجئ واللائم.

صاحت قائلة: «هل هذا أنت يا أبي؟» وتابعَت: «ماذا تفعل؟ ألا تتذكَّر أنك دعوتَ ويندل وصديقه السيد بريريتون لتناوُل العَشاء في الساعة الثامنة. إنها الثامنة إلا الربع الآن. تعالَ إلى المنزل!»

أطلق كوذرستون صيحةً دلَّلَت على انزعاجه. كان ما حدث في وقتٍ متأخر من بعد الظهر قد أنساه تمامًا أن ويندل بينت كان لديه صديقُ دراسة قديم، مُحامٍ شاب من لندن، يقيم معه، وأنه كان قد دعاهما لتناول العشاء ذلك المساء في منزله. ولكن انزعاج كوذرستون لم يكن بسبب نسيانه، ولكن لأن شرود ذهنه الحالي جعله يَكره فكرة رفقة الناس.

قال: «لقد نسيتُ ... للحظة.» وأضاف: «لقد كنتُ مشغولًا للغاية. حسنًا يا ليتي، سآتي في الحال. لن أتأخَّر.»

ولكنه بعدما وضع الهاتف لم يُسارع بالمغادرة. أطال الوقوف بجانب مكتبه؛ وكان بطيئًا في إطفاء المصباح، وبطيئًا في مغادرة مكتبه وإيصاده، ومضى في طريقه ببطء عَبْر البلدة. كان آخر ما يتمناه هو أن يستقبل ضيفًا في تلك الليلة، وخاصَّة لو كان شخصًا غريبًا. كانت خطواته متثاقلة وهو يمرُّ عَبْر السوق ويلتفُّ متجهًا نحو الضواحي الأبعد.

قبل عدة سنوات من هذا، عندما تزوَّجا وكسبا المال، بنى الشريكان منزلَين جديدَين لهما. تَرتفع خارج بلدة هاي ماركت، على حدودها الغربية، تلَّةٌ طويلة ومُنخفضة

تُسمَّى «هاي ماركت شول»؛ وكان المُنحدَر الذي يعلو البلدة مُغطًّى بكثافة بأشجار التنوب والصنوبر، وتتخلَّله هنا وهناك كتلٌ كبيرة بارزة من الصخور الجيرية. عند سفح هذا التل، بيعت بعض قطع الأراضي المخصَّصة للبناء، واشترى مالاليو قطعة أرض وكوذرستون قطعةً أخرى، وأقاما منزلَين من الأحجار الصُّلبة، مُجهَّزَين بأحدث التحسينات المعروفة في مهنة البناء. كان كلٌّ منهما فخورًا بمنزله، وسعيدًا بدعوة أصدقاؤه ومعارفه إليه — كانت هذه الليلة هي أول ليلة يتذكر فيها كوذرستون أنه شعر ببغضٍ شديد تجاه منزله حتى إنه لم يَرغَب في تجاوُز عتبته. لم تجلب له النوافذ المُضاءة، ولا رائحة الطعام الطيب المطبوخ على العشاء أي شعور بالارتياح؛ فكان عليه أن يبذل جهدًا ملحوظًا للدخول وتصنُّع الترحيب بضيفَيه اللذَين كانا موجودَين بالفعل في انتظاره.

قال كوذرستون، ردًّا على توبيخ ليتي القلق والمرح: «لم أتمكَّن من القدوم في وقتٍ أبكر.» وأردف: «ظهَرتْ بعض الأعمال الصعبة هذا المساء؛ ولذلك، لا بد أن أُهرَع إلى العمل مرةً أخرى لساعة بعد العَشاء — ما باليد حيلة. كيف حالك يا سيدي؟» تابع، وهو يمد يده مصافحًا الضيف الغريب. واستطرد قائلًا: «إنني مسرور برؤيتك في هذه الأنحاء؛ يؤسفني أن أقول إنك ستجد المناخ هنا أبرد من لندن.»

ألقى نظرةً فاحصة على صديق بينت بينما كانوا يجلسون جميعًا لتناول العشاء، وهذا بحكم عادته بتفحُّص أي شخصٍ كان جديدًا عليه، لا أكثر ولا أقل. وبعد نظرة أو اثنتين قال في نفسه إن هذا القانوني الشاب كان شابًّا فطنًا، منتبهًا، لافتًا للنظر، أشارت كل حركة ونبرةٍ صادرة منه على نشاطٍ عقلي هائل. قال كوذرستون في نفسه إنه كان أكثر فِطنة من بينت، وفي رأيه، كان هذا يُفصح عن الكثير. كانت قدرة بينت سطحية؛ فقد كان نموذجًا ممتازًا لرجل أعمالٍ نشيط، لديه أفكارٌ جديدة وغير تقليدية، ولكنه لم يكن يَميل كثيرًا إلى التفكير العميق والهادئ بقَدْر ما كان يميل إلى سرعة اتخاذ القرارات وسرعة التصرُّف بناءً عليها. نقَّل نظرَه بينهما، عاقدًا مقارنةً عقلية بينهما. كان بينت رجلًا طويل القامة وسيمًا، أشقر، ذا عينَين زرقاوَين، حاضر الكلمة والضحك؛ أما بريريتون، فقد كان متوسِّط الحجم، ربعةً، داكن الشعر والعينَين، وملامحه قمحية اللون تكاد تُوحي بأصولٍ أجنبية؛ كان من النوع الذي يُفكِّر كثيرًا ويقول قليلًا، هكذا جزم كوذرستون. مُجبِرًا نفسه على التحدُّث، حاول استدراج الغريب، وهو يُراقبه أيضًا ليرى إن كان مُعجبًا بابنته ليتي. فقد كانت واحدة من أعظم مباهج كوذرستون في الحياة هي أن يَدعو الناس إلى

منزله ويُشاهد تأثير ابنته الجميلة عليهم، وقد أُثيب الآن بملاحظة أنه كان من الواضح أن الشاب اللندني كان يَستحسن اختيار صديقه وأعرب بأدبٍ عن تقديرِه لجاذبية ليتي.

سأل كوذرستون قائلًا: «وما الذي كنتَ تفعلُه مع السيد بريريتون منذ وصوله أمس؟» وأضاف: «أظن أنك أخذتَه في جولة بالطبع، أليس كذلك؟»

أجاب بينت وهو يُلقي نظرةً ضاحكة على حبيبته: «لقد كنتُ أُعذِّبه أغلب الوقت بالحديث عن تاريخ العائلة.» وتابع: «لم تكن تعلم أنني كنت أجمع كل ما يمكنني الحصول عليه عن أسلافي، أليس كذلك؟ أوه، لقد كنتُ مُنشغلًا بتلك التسلية البريئة طيلة الشهر الماضي؛ فقد ألحَّ عليَّ كايتلي العجوز أن أفعل ذلك.»

بالكاد تمكَّن كوذرستون من كبح جماح نفسه كي لا ينتفض في كرسيه؛ ولم يكن هو نفسه متأكدًا من أنه لم تظهر عليه أماراتُ مفاجأةٍ مفرطة.

صاح باستغراب قائلًا: «ماذا!» واستطرد: «كايتلي؟ مُستأجري؟ ماذا يعرف عن عائلتك؟ إنه غريب!»

فأجاب بينت: «يعرف أكثر بكثير مما أعرف. فالرجل العجوز ليس لديه ما يَشغله، كما تعلم، ومنذ أتى للعيش هنا وهو يقضي كل وقته في البحث في السجلات المحلية؛ إنه خبيرٌ جيد في الآثار وما شابه. لقد أخبَرَني كاتب المدينة أن كايتلي قد اطَّلَع على كل المُستندات القديمة للبلدة تقريبًا ... صناديق مليئة بها! وقد أخبرني كايتلي ذات يومٍ أنه، إذا أحببتُ، سيتَتبَّع أصول عائلتنا لأبعدِ ما يُمكن، وقد أخبرتُه أن يشرع في ذلك؛ إذ بدا متحمسًا. لقد اكتشف الكثير من الأشياء المُثيرة للاهتمام في سجلات البلدة والتي لم أسمع بها من قبلُ.»

كان كوذرستون قد أبقى عينَيه على طبقه بينما كان بينت يتحدَّث؛ وتحدَّث الآن دون أن يرفع ناظرَيه.

قال، محاولًا التحدُّث بلا مبالاة: «صحيح؟» وأردَف: «آه! إذن فقد كنتَ تُقابل كايتلي كثيرًا مؤخرًا، أليس كذلك؟»

أجاب بينت: «ليس كثيرًا.» وأضاف: «لقد كان يُحضِر لي نتيجة جهده بين الحين والآخر؛ أشياء نسخها من السجلات القديمة وما إلى ذلك.»

سأل كوذرستون بدافع الحديث، وليس بدافعٍ من أي اهتمامٍ شَعَر به: «وما النفع الذي يمكن أن يؤدي إليه كل هذا؟» وأردَف: «هل سيسفر هذا عن أي شيء؟»

أشار بريريتون بمكرٍ قائلًا: «يُريد بينت أن يَتتبَّع تاريخ عائلته وصولًا إلى زمن الغزو.» واستطرد: «إنه يظنُّ أن بينت الأول جاء مع ويليام الفاتح. ولكن صديقه العجوز لم يصل بعدُ إلى ما هو أبعدُ من عصر تيودور.»

قال بينت: «لا يهم!» وأضاف: «كان آل بينت موجودين في هاي ماركت في زمن هنري السابع على أي حال. وإن كان للمرء نَسبٌ أصيل، فلماذا لا يبحث عنه كما ينبغي؟ إن كايتلي العجوز خبير في تلك الأمور. يقول كاتب البلدة إنه يُمكنه قراءة بعض مواثيق بلدتنا التي كُتِبَت قبل ستمائة عام كما لو كانت مقالاتٍ صحفية.»

لم يُعلِّق كوذرستون على ذلك. فقد كان يُفكر. إذن فقد كان كايتلي على تواصلٍ وثيق مع بينت، أليس كذلك؟ هل كان يراه باستمرار؛ كونه يعمل لديه؟ حسنًا، لذلك جانبان، واحدٌ إيجابي، وآخرُ سلبي. فقد أظهر أنَّ كايتلي حتى الآن لم يكن قد استغلَّ معرفته بالسر؛ ومن ثَمَّ يمكن اعتبار أنه من المُحتمَل أن يتعامل بنزاهة وأمانة إذا اتفق الشريكان على تسويةٍ معه. ولكنه أثبت أيضًا أنه من المحتمل أن يُصدِّق بينت أي شيء قد يُخبره به كايتلي. بالتأكيد، لا بد من التعامل مع كايتلي على الفور. كان يعرف أكثر من اللازم، ومن الواضح أنه بارع للغاية، وهذا ما أتاح له التحرك بحريةٍ تامة دون قيود. مهما كان الثمن، فلا مناص من ضمه إلى جانب مالاليو وكوذرستون. وما كان كوذرستون يُركِّز عليه في ذلك الوقت، بينما كان يأكل ويَشرب، هو كيف يُتمِّم عملية الضم هذه بطريقةٍ لا تترك أمام كايتلي خيارًا سوى التزام الصمت. ليته يتمكَّن هو ومالاليو من التوصُّل إلى زلَّةٍ يُسيطران بها على كايتلي، كتلك التي كان يستخدمها للسيطرة عليهما …

حينما قارب العَشاء على الانتهاء قال: «حسنًا، أعتذر، ولكنني مُضطَر لترككما أيها السادة لمدة ساعة على أي حال؛ ما باليد حيلة. ليتي، يجب أن تُحاولي تسليتهما ريثما أعود. غنِّ للسيد بريريتون بعض أغانيكِ الجديدة. بينت، أنت تعرف مكان الويسكي والسيجار؛ تَصرَّفا بحرية وكأنكما في منزلكما.»

سألته ليتي قائلة: «لن تَغيب أكثر من ساعة يا أبي، صحيح؟»

أجاب كوذرستون قائلًا: «بعد ساعةٍ واحدة سأُنهي ما يتعيَّن عليَّ فعله، وربما أقل … سأُسرع قَدْر المستطاع على أي حالٍ يا فتاتي.»

هُرع مغادرًا دون المزيد من المجاملات؛ وبعد لحظةٍ أخرى كان قد ترك دفء وضياء غرفة طعامه المريحة إلى ظلمة الليل وبرودته. وبينما كان يخرج من حديقته، كان يغرق في التفكير أكثر فأكثر. إذن فقد كان ويندل بينت واحدًا من أولئك الرجال الذين يتَّسِمون

بما يُسمِّيه الناس بالفخر العائلي، أليس كذلك؟ أكان حقًّا فخورًا بحقيقة نَسبه النبيل، وبأنه يمكنه قول مَن كان جده وجدته؟ إنها أشياءُ مبهمة وغير مهمَّة لدى معظم الناس. في تلك الحالة، إن كان حقًّا فخورًا بعائلته، فهذا سببٌ إضافي لإسكات كايتلي. لأنه إذا كان ويندل بينت يخوض في لعبة إثبات أنه رجلٌ من عائلةٍ نبيلة، فبالتأكيد لن تروق له احتماليةُ أن يربط نسبه العريق برجلٍ كان سجينًا يومًا ما. يجب التعامُل مع كايتلي! على الفور وبحسم، وإلى الأبد! كان ذلك هو التصرُّف الصحيح.

مضى كوذرستون في ظلام الليل؛ وكانت قد مرَّت ساعةٌ كاملة عندما عاد إلى منزله. كانت الساعة العاشرة في ذلك الوقت؛ تذكَّر لاحقًا أنه ألقى نظرةً خاطفة على ساعة جَدِّه العتيقة في رَدْهة منزله وهو يدخل. كان كل شيء هادئًا للغاية هناك؛ فتح باب غرفة المعيشة ليجد الشابَّين وليتي جالسين بالقرب من نار المدفأة المتوهِّجة، وكان من الواضح أن بريريتون كان يروي لهما قصةً ما، كان قد شارف على الانتهاء منها.

كان بريريتون يقول: «... لأنه من المُسلَّم به، في الممارسات الإجرامية، أنه لا نهاية للجرائم غير المكتشفة؛ يُوجَد عددٌ لا بأس به من المذنبين الذين يتنقَّلون بحريةٍ تامة، و...»

قال كوذرستون وهو يتوجَّه نحوهم: «أتمنى أن تكونوا قد استمتعتُم بوقتكم.» وأضاف: «لقد أسرعتُ بقَدْرِ ما أستطيع.»

قالت ليتي: «لقد كان السيد بريريتون يُخبرنا بقصصٍ مثيرة للغاية عن المجرمين.» وأردفَت: «حقائقُ أغرب بكثير من الخيال!»

قال كوذرستون بترحاب: «إذن فأنا متأكدٌ من أن الوقت قد حان كي يُنعِش نفسه بكأسٍ من الشراب.» وأضاف: «هيا أيها السيدان، وسنرى إن كنا سنَجد شرابًا نحتسيه أو سيجارًا نُدخِّنه.»

قادَهم إلى غرفة الطعام وشغل نفسه بإخراج بعض عُلَب السيجار من الخزانة، بينما أخرجَت ليتي زجاجات الشراب والكئوس من الخزانة الجانبية.

علَّق كوذرستون وهو يعرض سيجارًا على بريريتون: «إذن فأنت مُهتم بالمسائل الجنائية، يا سيدي؟» وتابع: «هل تنوي أن تسلك ذلك المجال؟»

أجاب بريريتون، بضحكةٍ هادئة: «كل ما تلقَّيتُه من تدريبٍ كان في هذا المجال.» وأضاف: «المرء يجد نفسه منخرطًا في هذه الأشياء نوعًا ما، كما تعلم؛ لذا ...»

صاحت ليتي، التي كانت في تلك اللحظة بالضبط تُقدِّم للمحامي الشاب كأسًا من الويسكي والصودا التي خلَطها بينت له: «ما هذا؟» وأردفَت: «شخصٌ ما يهرول مسرعًا

نحو مدخل المنزل كما لو أن شيئًا ما قد حدث! بالتأكيد لن يَستدعوك مرةً أخرى يا أبي، أليس كذلك؟»

سبق رنينُ جرسٍ عالٍ دخولَ زائرٍ ما، سُمِعَ صوتُه المتلهِّف وهو يتحدث مع الخادمة في الرَّدْهة.

قال بينت: «إنه جارك، السيد جارثويت.»

وضع كوذرستون علبة السيجار وفتح باب غرفة الطعام. جاء من الردهة شابٌّ مُتورِّد الوجه، بدا عليه الانزعاج والذهول، وهو يُحدِّق حوله بفضول.

قال: «أعتذر عن تطفُّلي، يا سيد كوذرستون.» وتابع: «أريد أن أقول لك شيئًا! ... ذلك الرجل العجوز الذي أجَّرتَ الكوخ له ... كايتلي، كما تعلم.»

سأل كوذرستون بحدَّة: «ماذا عنه؟»

أجاب جارثويت: «إنه يَرقُد هناك في الأيكة التي تعلو منزلك؛ لقد تعثَّرتُ فيه وأنا قادم عَبْرها الآن.» واستطرد: «إنه ... لا تخافي يا آنسة كوذرستون ... إنه ... حسنًا، لا شك في ذلك، ميت! و...»

سأل كوذرستون: «و... ماذا؟» وأردف: «ماذا يا رجل؟ تكلم!»

فقال جارثويت: «ولا بد أن أقول إنه قُتِل!» وأضاف: «أنا، أجل، لقد رأيتُ ما يكفي لأقول ذلك. لقد قُتِل، بلا أدنى شك!»

الفصل الرابع

غابة الصنوبر

بينما كان بريريتون واقفًا في الغرفة في الخلف، ممسكًا بالسيجار الذي كان قد أعطاه له كوذرستون لتوِّه دون أن يُشعِله في يدٍ، وبالكأس الذي قدَّمَتْها له ليتي في اليد الأخرى، أخذ يُراقب باهتمام جارثويت الذي كان قد تحدَّث لتوه والرجل الذي تحدث إليه. ولكن سرعان ما انصبَّ كل انتباهه على كوذرستون. وذلك لأنه على الرغم من أن كوذرستون بذل مجهودًا كبيرًا للسيطرة على نفسه، فقد ترنَّح قليلًا، ومد يدَه بشكلٍ غريزي وقبض على ذراع بينت. أيضًا، شَحبَ لونه؛ وعلى الفور تقريبًا أعقب نوبةَ الشحوب المفاجئة هذه تورُّدٌ سريع. بذل كوذرستون مجهودًا آخر، وحاول الضحك.

وقال بغلظة وبصوت مُحَشرَج: «هُراء، يا رجل!» وأردَف: «جريمة قتل؟ من ذا الذي يُريد أن يقتل رجلًا عجوزًا هكذا؟ إنه — فليُعطِني أحدكما شرابًا — إنه، أمرٌ مُفزع بعض الشيء!»

أخذ بينت كأسًا كان قد خلطَها لتوِّه، فتَجرَّع كوذرستون نصف محتوياتها. ونظر حوله معتذرًا.

تمتم قائلًا: «أنا — أظن أنني لم أعد قويًّا كما كنتُ من قبل.» وتابع: «إنه الإفراط في العمل على الأرجح ... لقد كنتُ أعاني من وعكة في الآونة الأخيرة. صدمةٌ كتلك ...»

قال جارثويت، الذي بدا مندهشًا من وَقْع خبره: «أنا آسف.» واستطرد: «كان لا بد أن أكون أكثر مراعاة. ولكن كما ترى، منزلكم هو الأقرب ...»

صاح كوذرستون: «صحيح تمامًا، يا صديقي، صحيح تمامًا. لقد أحسنتَ الفعل. انظر، من الأفضل أن نذهب إلى هناك. هل اتصلتَ بالشرطة؟»

أجاب جارثويت: «لقد أرسلتُ الرجل الذي يسكن عند الكوخ الذي يقع على أطراف حديقتك.» وأضاف: «كان يغلق بابه لتوِّه وأنا أمُرُّ به، فأخبرتُه، وأرسلتُه ليستدعي الشرطة.»

قال كوذرستون: «سنذهب.» استدار ونظر إلى ضيفَيه. وسألهما قائلًا: «هل ستأتيان؟»

ألحَّت ليتي قائلة: «لا تذهب يا أبي، إن لم تكن على ما يُرام.»

أصر كوذرستون قائلًا: «أنا على ما يُرام.» وأردَف: «مجرَّد القليل من الضعف، هذا كل شيء. والآن بعد أن عرفتُ ما سنواجه ...» واستدار فجأةً نحو جارثويت، وسأله: «ما الذي يجعلك تظُن أنها جريمة قتل؟» واستطرد: «جريمة قتل؟! تلك كلمةٌ كبيرة.»

نظر جارثويت نظرةً خاطفةً إلى ليتي، التي كانت تهمس بشيءٍ لبينت، وهزَّ رأسه.

وقال: «سأُخبِركَ عندما نخرج.» وأضاف: «لا أريد إخافة ابنتك.»

قال كوذرستون: «هيا إذن!» وهُرع إلى الرَّدْهة وانتزع معطفًا. نادى على الخادمة قائلًا: «أحضري لي ذلك المصباح من المطبخ.» وتابع، مُستديرًا نحو ابنته: «ابتهجي! لا تخافي يا ليتي.» وأضاف: «لا يُوجد ما يخيف، هيا. هل أنتما قادمان معنا أيها السيدان؟»

كان بينت وبريريتون قد ارتديا معطفَيهما بالفعل؛ وعندما جاءت الخادمة بالمصباح، خرج الرجال الأربعة جميعهم. وما إن أصبحوا في الحديقة، حتى استدار كوذرستون نحو جارثويت.

وسأله قائلًا: «كيف تعرف أنه قُتل؟» وأردَف: «كيف يُمكنك أن تستنتج ذلك؟»

أجاب جارثويت قائلًا: «سأُخبرك بكل شيء بعد أن صرنا في الخارج.» وتابع: «لقد ذهبتُ إلى «سبينيجارث»، لأرى هولينجز. عُدتُ صاعدًا تلَّة هاي ماركت شول، وسلكتُ طريقًا مختصرًا عَبْر الغابة. واصطدَمَت قدَميَّ بشيء، شيءٍ ناعم، كما تعلمون؛ لا أُحب التفكير في ذلك! ومن ثَمَّ أشعلتُ ثقابًا، ونظرتُ، فرأيتُ هذا الرجل العجوز؛ لا أُحب التفكير في ذلك أيضًا. كان طريحًا هناك على بُعد أمتارٍ قليلة من الطريق الذي يمُر عَبْر تلَّة شول عند تلك النقطة. لقد رأيتُ أنه كان ميتًا، وفيما يتعلَّق بكونه قُتل، حسنًا، كل ما يمكنني قوله إنه خُنق! هذا واضح.»

صاح بينت قائلًا: «خُنق؟!»

أجاب جارثويت: «أجل، بلا شك.» وأضاف: «تُوجد قطعةٌ من الحبل مشدودةٌ حول عنقه بإحكامٍ لدرجة أنني لم أتمكَّن من إدخال إصبعي الصغير بينها وبين رقبته! ولكنكم ستَرون بأنفسكم؛ الجثة ليست بعيدةً على تلَّة شول. ألم تَسمع أي شيءٍ على الإطلاق يا سيد كوذرستون؟»

أجاب كوذرستون: «لا، لم نسمع شيئًا.» واستطرد: «إن كان الأمر كما تقول، فلن يكون ثَمَّةَ ما يُسْمَع.»

كان قد قادَهم خارج أرضه عَبْر بوابةٍ جانبية، وكانوا الآن يسيرون عَبْر الأجمات الكثيفة لأشجار التنوب والصنوبر التي نمَت على طول مُنحدر التلَّة الشديد الانحدار والوَعْر إلى حدٍّ ما. وسلَّم المصباح إلى جارثويت.

وقال: «هاكَ، أرِنا الطريق.» وأضاف: «أنا لا أعرف مكانها بالطبع.»

علَّق جارثويت قائلًا: «لقد كنتُ متجهًا نحوها مباشرةً.» التفت إلى بريريتون، الذي كان يسير إلى جانبه. وسأله: «أنت محامٍ، أليس كذلك؟» وتابع قائلًا: «سمعتُ أن السيد بينت له صديقٌ محامٍ يقيم معه مؤقتًا الآن؛ إننا نسمع كل الأخبار حتى أتفهها في مكانٍ صغير مثل هاي ماركت. حسنًا، ستفهم، على الأرجح، أنه لم يمضِ الكثير من الوقت على ارتكاب الجريمة!»

سأله بريريتون قائلًا: «هل لاحظتَ ذلك؟»

أجاب جارثويت: «لقد لمستُه.» واستطرد: «كانت يدُه وخدُّه ... دافئَين ببساطة. لا يُمكن أن يكون قد مات منذ وقتٍ طويل، كما حكمتُ على الأمر. و... ها هو!»

التفَّ بحدَّة حول زاوية إحدى كُتل الحجر الجيري الضخمة التي كانت تظهر بين الأشجار، ووجَّه ضوء المصباح نحو الرجل الميت.

قال بصوتٍ هامس: «هناك!» وأردَف: «هناك!»

توقَّف الرجال الأربعة، وحدَّق كلٌّ منهم فيما أتَوا لرؤيته دون أن يطرف لهم جَفْن. لم يستلزم الأمر أكثر من نظرةٍ خاطفة للتأكُّد من أنهم كانوا ينظرون إلى رجلٍ ميت؛ كان في مظهر كايتلي ما يمنع التفكير في أيِّ احتمالٍ آخر.

همس جارثويت قائلًا: «إنه تمامًا كما وجدتُه.» واستطرد: «لقد جئتُ من حول هذه الصخرة من هناك، كما تَرونَ، واصطدمَت قدمي بكتفه. ولكن، كما تعلمون، لقد جُرَّ إلى هنا! انظروا إلى ذلك!»

بعدما ألقى بريريتون نظرةً سريعة على الجثة، نظر حوله في المكان المحيط بها. كانت الغابة المحيطة مَكسُوَّة بكثافةٍ بإبر الصنوبر؛ كانت واقعة أسفل جذوع الأشجار بسُمكٍ يصل ارتفاعه إلى عدة بوصات، وامتدَّت حتى حافة الصخرة. والآن، عندما أدار جارثويت المصباح، رأَوا لطخةً كبيرة من الدماء تمتد على طبقة إبر الصنوبر الناعمة الكثيفة؛ إذ كان واضحًا أن القاتل جَرَّ ضحيته بعض الياردات عَبْر إبر الصنوبر قبل أن

يضعه خلف الصخرة. وفي نهاية هذه العلامة كانت تُوجد آثارٌ واضحة للمُقاومة؛ فقد كانت إبر الصنوبر الناعمة واللينة مبعثرة ومتناثرة بفعل الركل وناتئة، ولكن كما لاحظ بريريتون في الحال، كان من المستحيل تتبُّع آثار الأقدام فيها.

قال جارثويت: «لا بد أن ذلك هو المكان الذي كانت الجثة فيه.» وأضاف: «فكما تَرونَ يُوجد أثرٌ ضئيل لمسارٍ هناك. لا بد أن الرجل العجوز كان يسير في هذا الدرب، ولا بد أن من قَتلَه هجَم عليه هناك، حيث تُوجد كل تلك العلامات، وعندما خنقَه جرَّه إلى هنا. هكذا تصوَّرتُ الأمر، يا سيد كوذرستون.»

كانت الأضواء آتيةً عَبْر الغابة أسفلهم، تُومِض من نقطة إلى أخرى بين الأشجار. ثم تَبِع ذلك أصواتُ همهمة، وشُوهد ثلاثة أو أربعة رجال، رجال شرطة، يحملون مصابيحهم، والرجل الذي أرسلَه جارثويت إلى المدينة، وطبيب يعمل جرَّاحًا لدى الشرطة.

قال بينت بينما كان القادمون الجدد يتقدَّمون: «ها هنا!» فتوقَّفوا بتردُّد. وأردف: «من هذا الطريق، أيها الطبيب؛ ثَمَّةَ عملٌ لك هنا، نوعًا ما، على أي حال. إنه ميت بلا شك، أليس كذلك؟»

تقدَّم الطبيب فور رؤيته للجثة، وجثا على ركبتَيه بجانبها بينما تجمَّع الآخرون حولها. وعلى أضواء المصابيح التي أُضيفت، رأى الجميع الآن الأشياء بوضوحٍ أكبر. كان كايتلي راقدًا مُكوَّمًا، تمامًا كما يرقُد من طُرِحَ أرضًا فجأةً ودون سابق إنذار. ولكنَّ عينَي بريريتون الثاقبتَين لاحظتا على الفور أنه بعدما طُرِح أسفل الصخرة الضخمة، مزَّقَت يدٌ ما ملابسه. كان معطفه وسترته التحتية قد مُزِّقا على عَجَل، إن لم يكن بعنفٍ تام؛ وسُحبَت بطانة أحد جيوب البنطال إلى الخارج؛ كان يُوجد ما يدُل على أن أزرار صدريته قد فُكَّت وفُتِّشَت من الداخل؛ بدا أن كل شيء يشير إلى أن القاتل كان لصًّا أيضًا.

قال الطبيب، وهو يرفع نظره لأعلى: «لم يمُر وقتٌ طويل على موته.» وأضاف: «ليس أكثر من ثلاثة أرباع ساعةٍ بالتأكيد. هل خُنِقَ؟ أجل! وعلى يد شخصٍ لديه معرفةٌ غير عادية بكيفية قتل رجل بسرعةٍ بهذه الطريقة! انظروا كيف رُبطَ هذا الحبل؛ من فعل ذلك ليس أحد الهُواة.»

أزاح إلى الخلف غطاء العنق عن حلق الرجل الميت، وأظهر للآخرين كيف مُرِّر الحبل حول العنق في عقدةٍ منزلقة ورُبطَ بإحكام بلفةٍ بارعة.

وتابع قائلًا: «أيًّا كان مَن فعل هذا، فقد فعلَه من قبلُ، وربما أكثر من مرة.» وأضاف: «لن يحظى أي رجلٍ مع ذلك الحبل المعقود بإحكام هكذا حول رقبته بأي فرصة للنجاة،

مهما كانت يداه حرتَي الحركة. سيموت قبل أن يتمكَّن من المقاومة. ألا يعرف أحد أي شيءٍ عن هذا الأمر؟ ألا تعرفون أكثر من ذلك؟» تابع بعدما سمع ما لدى جارثويت. وأكمل: «حسنًا، إنها جريمة قتلٍ على أي حال! ألا تُوجد أي علامات على أيِّ شيء هنا؟»

قال بريريتون، مشيرًا إلى العلامات الواضحة: «ألا تظُن أن ملابسه تبدو وكأنه تعرَّض للسرقة؟» وتابع: «لا بدَّ من تسجيل ذلك قبل تحريك جثته.»

قال رقيب الشرطة، الذي كان قد انحنَى على الجثة بينما كان الطبيب يفحصها: «لقد سجَّلتُ ذلك يا سيدي.» وأردَف: «أحد جيوبِه مقلوب إلى الخارج، وكل ملابسه ممزَّقة. إنها عملية سرقةٍ بالطبع — هذا ما حدث — جريمة قتل بغرض السرقة!»

تراجع أحد رجال الشرطة، بعد أن أشبع فضوله، وبدأ البحث في المناطق المحيطة بمساعدة مصباحه. ثم صاح صيحةً حادة فجأة.

قال وهو ينحني نحو أسفل إحدى أشجار الصنوبر ويلتقط شيئًا داكنًا: «يُوجد شيءٌ ما هنا!» وأضاف: «دفترُ جيبٍ قديم، ولكن لا شيء فيه.»

قال كوذرستون: «كان ذلك يخصُّه.» واستطرد: «لقد رأيتُه من قبل. كان يحمله في جيبٍ داخلي. هل تقول إنه فارغ؟ لا أوراق فيه؟»

أجاب الشرطي، وهو يُسلِّم دفتر الجيب إلى الرقيب، ويتابع البحث: «ولا حتى قصاصة واحدة من أي شيء.» وأردَف: «من الأفضل أن نرى ما إذا كانت تُوجد أي آثار أقدامٍ فيما حولنا.»

قال جارثويت: «من الأفضل أن تفحص ذلك المسار، إذن.» وأضاف: «لن تجد أي آثار أقدامٍ وسط كل إبر الصنوبر هذه؛ لا يُوجد ما تتبعه على أي حال، إنها سميكة ولينة للغاية. ولكن لا بد أنه جاء من ذلك الدرب، بطريقة أو بأخرى؛ فقد التقيتُ به وهو يمشي هنا في إحدى الأمسيات، أكثر من مرة.»

بعد أن تبادَل الطبيب حديثًا وجيزًا مع الرقيب، استدار نحو كوذرستون.

وسأله قائلًا: «ألم يكن مُستأجِرًا لديك؟» واستطرد: «كان يستأجر الكوخ الموجود على قمَّة تلَّة شول هنا. حسنًا، من الأفضل أن ننقل الجثة إلى هناك، ولا بد أن يذهب شخصٌ ما ويخبر عائلته.»

أجاب كوذرستون قائلًا: «ليس له عائلة.» وأرَدف: «لم يكن لديه أحد سوى مُدبِّرة منزله السيدة بيت. إنها امرأةٌ عجوز، ومما رأيتُه منها، من المستبعد أن يُفزعها هذا الخبر.»

قال بينت: «سأذهب.» وأضاف: «أعرف مدبِّرة المنزل.» لمس مرفق بريريتون، وقاده بعيدًا بين الأشجار وصَعِدا نحو الغابة. عندما صارا بعيدَين عن الآخرين، تابع قائلًا: «إنها مسألةٌ غريبة!» واستطرد: «أسمعتَ ما قاله الدكتور روكليف؟ إن من فعل ذلك كان على دراية بهذا النوع من الأمور!»

أجاب بريريتون: «لقد رأيتُ بنفسي.» وأضاف: «لاحظتُ ذلك الحبل، والعقدة الموجودة فيه على الفور. يمكن لرجل قُيِّدَت رقبته هكذا أن يُطرَح أرضًا، ويُلقى في أي مكان، ويُترك ليقف، إن شئتَ القول، وسيكون عاجزًا تمامًا، حتى لو كان، كما قال الطبيب، بوسعه استخدام يدَيه. سيفقد الوعي في الحال تقريبًا، وسيموت بعد ذلك بوقتٍ وجيز جدًّا. هل هي جريمة قتل؟ لا بد أن أظن ذلك! وهي تتسم بأقصى درجات الوحشية والإصرار. اسمع يا بينت! أيًّا كان من قَتل ذلك العجوز المسكين فقد كان رجلًا ذا قوةٍ جسمانية كبيرة ومعرفة! كان يتمتع بالمعرفة؛ انتبه إلى ذلك! كان يعرف تلك الحيلة. ألا تعرف في هاي ماركت أي شخصٍ محل شكٍّ سبق له أن عاش في الهند؟»

سأله بينت: «الهند! لماذا الهند؟»

أجاب بريريتون: «لأنني لا بد أن أقول إنَّ الرجل الذي فعل تلك الفعلة تعلَّم بعض الحيل الهندية الخاصة بالحبال والعُقَد.» واستطرد: «جريمة القتل تلك تُشبه أسلوب طائفة من القَتَلة واللصوص الهنود في بعض النواحي. هل ذلك هو الكوخ؟» هكذا تابع، مشيرًا إلى ضوءٍ خافت أمامهما. وقال: «مُدبِّرة المنزل هذه، هل هي من النوع الذي يَتعامل مع الأمور بهدوء؟»

«إنها شخصيةٌ غريبة مثل كايتلي العجوز نفسه»، هكذا أجاب بينت وهما يجتازان الغابة ويدخلان حديقةً مسوَّرة بسياجٍ من الشجيرات، يقع في نهايتها كوخٌ قديم الطراز. وأردَف: «لقد كنتُ أتحدث معها بين الحين والآخر عندما كنتُ أزور المكان هنا؛ ويمكنني أن أقول إنها امرأة تتمتع برباطة الجأش.»

نظر بريريتون بتفحُّص إلى السيدة بيت عندما فتحَت الباب. كانت تحمل شمعةً مصنوعةً من الشحم في إحدى يدَيها ورفعَتْها عاليًا فوق رأسها لكي تلقي ضوءًا على الزائرَين؛ ولكن أشعة الشمعة الضعيفة سقطَت عليها أكثر منهما. كانت امرأةً عجوزًا طويلةً ونحيلة، وذات وجهٍ هزيل، وجلدها بلون الورق القديم، أشرقَت منه عينان سوداوان لامعتان؛ وقد زاد غطاء رأسها من غرابة مظهرها؛ كان عبارة عن منديل باللونَين الأحمر والأصفر الفاقع مَطويًّا بإحكام بحيث يُغطِّي أي جزء من الشعر ولو صغيرًا. كانت

ذراعاها مكشوفتَين حتى المرفقَين، ويداها هزيلتَين مثل وجهها، ولكن بريريتون لاحظ سريعًا ما يشير إلى قوةٍ بدنية من شكل العضلات والأوتار تحت الجلد الذي يُشبه الورق القديم. فكَّر في أنها امرأة غريبة المظهر إجمالًا، ولم تسهم في تحسين رأيه حقيقةُ أنها بدت وأنها قد فقدَت كل أسنانها، وأن أنفًا طويلًا حادًّا وذَقنًا بارزًا كادا يلتقيان أمام شفتَيها الغائرتَين.

قالت، قبل أن يتكلم أيٌّ من الشابَّين: «أوه، إنه أنت، سيد بينت، أليس كذلك؟» وأضافت: «لقد خرج السيد كايتلي لمُمارسة تمشيته المسائية المُعتادة كي يحافظ على صحته، إنه يحرص على ذلك كل ليلةٍ سواءً كانت تمطر أم لا. ولكنه قد تأخَّر الليلة أكثر بكثير من المعتاد، و...»

توقَّفتْ فجأةً عن الكلام عندما رأت التعبير المرتسم على وجه بينت، والذي ينمُّ على أنه كان يحمل بعض الأخبار، وتقطَّب وجهها ونظَرتْ إليه نظرةً متسائلة.

سألَت قائلة: «هل ثَمَّةَ خطبٌ ما؟» وأردفت: «هل أصابه شيء؟ هل حدث أي شيءٍ خطير؟ لا تخشَ الكلام يا سيد بينت؛ فلا شيء يمكن أن يزعجني أو يخيفني؛ دعني أخبرك، لقد مررتُ بكل ذلك!»

قال بينت: «إذن يؤسفني أن أقول إن السيد كايتلي قد مر بكل شيءٍ أيضًا.» نظر إليها بثباتٍ للحظة، ورأى أنها فهِمَت ما يرمي إليه، فتابع حديثه. وقال: «إنهم يُحضِرونه يا سيدة بيت، ومن الأفضل أن تكوني مستعدة. أعرف أنكِ لن تَرتاعي، ولكن ليس لديَّ أدنى شك في أنه قد قُتِل.»

حدَّقَت المرأة بصمتٍ في زائرَيها؛ ثم أومأَت برأسها المعصوبة وتراجعَت إلى داخل الكوخ.

تمتَمتٍ قائلة: «هذا ما كنتُ أتوقَّعه.» وأردفَت: «لقد حذَّرتُه، أكثر من مرة. حسنًا، دعهم يُحضِرونه إذن.»

اختفت في إحدى الغرف الجانبية، بينما اتجه بينت وبريريتون إلى الحديقة وقابلا الآخرين الذين كانوا يحملون جثة كايتلي. سار كوذرستون خلف رجال الشرطة، وعندما اقترب من بينت، جذبه من كُمِّه وتنحَّى به جانبًا.

وهمس قائلًا: «يُوجَد دليل!» وأردَف: «دليل، هل تسمعُني؟ دليلٌ قوي!»

الفصل الخامس

الحبل

منذ أن غادروا المنزل الواقع عند سفح غابة الصنوبر، كان بريريتون يشعر بجوٍّ نفسي غريب، يتمحور حول كوذرستون. ولقد ازداد قوةً مع تطوُّر الأحداث؛ وكان لا يزال أشدَّ قوة الآن وهم يقفون خارج كوخ الرجل الميت، والضوء القادم من الباب المفتوح والنافذة ذات الستارة البيضاء يسقُط على وجه كوذرستون المنفعل. بدا لبريريتون أن كوذرستون كان مُتلهفًا أكثر من اللازم لشيءٍ ما، حتى إنه كان يُمكن القول إنه كاد أن يكون مبتهجًا. كان سلوكه كله غريبًا. لقد صُدم بالتأكيد عندما اندفَع جارثويت ومعه خبر مقتل كايتلي، ولكن هذه الصدمة لم تَبدُ عادية. لقد بدا وكأنه سيفقد الوعي، ولكنه عندما استعاد زِمام نفسه، كان مسلكه كله (هكذا بدا الأمر لبريريتون على أي حال) مسلك رجلٍ شعر براحةٍ كبيرة لتوِّه. لحصر الأمر برمته في نطاق ضيق، بدا كما لو أن كوذرستون كان مسرورًا لسماعه، ثم لاحقًا اكتشافه دون شك، أن كايتلي قد مات. والآن، بينما كان يقف ناقلًا نظره بين أحد الشابَّين والآخر، وعيناه تلمعان كما لو كان مستمتعًا بالأمر تمامًا؛ وهو ما ذَكَّر بريريتون بذلك النوع من روَّاد المسرح الذي يُصِر على الإشارة إلى المؤثِّرات المسرحية وهي تحدُث أمام عينَيه، فارضًا إعجابه بها على باقي المشاهدين الذين يتمتَّعون بأعينٍ ثاقبة كعينَيه.

كرَّر كوذرستون نفس العبارة ثانية قائلًا: «دليلٌ قوي!» وأضاف: «دليلٌ جيد! وإن كان صحيحًا، فستتَّضح الأمور.»

سأله بينت: «ما هو؟» بدا أنه هو أيضًا قد لاحظ أن ثَمَّةَ شيئًا غريبًا في حَمِيه المستقبلي، وكان يُحدِّق فيه بتأمُّل كما لو كان مندهشًا. وأردَف: «أي نوعٍ من الأدلة؟»

قال كوذرستون بصوتٍ غريب وشبه ضاحك: «من العجيب أنه لم يخطر على بالي، ولا على بالك أنت أيضًا، في البداية.» وأردف: «ولكن ما دام خطر على بال شخصٍ ما، فلا

فارق، أليس كذلك؟ أن يخطر على بال أحدنا كأن يخطر على بال الآخر. ألا يمكنك تخمين ما هو؟»

أجاب بينت، وصبره يكاد أن ينفد: «لا أعرف ما الذي تُفكِّر فيه.»

أطلق كوذرستون ضحكةً مكتومة لا تخطئها أذن ردًّا على ذلك، وأشار إليهما أن يتبعاه إلى داخل الكوخ.

قال: «تعالَيا وانظرا بنفسَيكما، إذن.» وأردف: «ستَكتشفانه. ولكن، على أيِّ حال، لا يمكن توقُّع أن يكتشفه السيد بريريتون؛ نظرًا لأنه غريب عن البلدة.»

دخل الرجال الثلاثة إلى غرفة المعيشة في الكوخ؛ وهو مكانٌ قديم الطراز جيد الحجم وسقفه ذو روافدَ خشبية داعمة، حيث كانت نيران المدفأة مشتعلة، وعلى جانبَيها كرسيان مريحان بذراعَين. وأمام أحد هذَين الكرسيَّين، كان خُفٌّ موضوعًا بحيث يشير من ناحية الأصابع إلى الأعلى في مقابل المدفأة؛ وعلى طاولةٍ قريبة، كان يُوجد صندوقُ تبغٍ قديم من الرصاص، محاط بغليونٍ طويل الساق، وزجاجة خمر، وكأس، وطبقٌ موضوع عليه سكر وليمون؛ واعتبر بريريتون أن في هذه الأشياء دلالةً على أنَّ كايتلي، بعدما كان يَنتهي من تمشيته المسائية، كان معتادًا على تدخين الغليون في هدوء واحتساء مشروبٍ دافئ قبل الذهاب إلى الفراش. وبعدما أخذ ينظر حوله أكثر، لاحظ وجود بابٍ مفتوح — الباب الذي اتجهَت نحوه السيدة بيت ثم اختفت — وسريرٍ بالداخل كان كايتلي يَرقد عليه الآن، والدكتور روكليف وعريف الشرطة منحنيان عليه. وقف رجال الشرطة الآخرون بجانب الطاولة في غرفة المعيشة، وهمس أحدهم — وهو الشُّرطي الذي حمل دفتر الجيب — بصوتٍ مسموع إلى كوذرستون عندما دخل هو والشابان.

قال، وهو يومئ برأسه إيماءةً ذات مغزًى: «الطبيب يخلعه عنه. أُراهن بأي شيءٍ على أن الأمر كما أقول، يا سيد كوذرستون».

وافقه كوذرستون وهو يفركُ يدَيه وقال: «يبدو كذلك.» واستطرد: «يبدو كذلك بالتأكيد يا جورج. ولكنها قوةُ ملاحظةٍ منك أن تنتبه إلى ذلك، على أي حال.»

اعتبَر بريريتون أن هذه المحادثة تشير إلى الدليل الغامض، وتأكَّدتْ شكوكه بعد لحظة. دخل الطبيب والرقيب إلى غرفة المعيشة، والطبيب يحمل شيئًا في يده وضَعَه على المنضدة المركزية على مرأًى من الجميع. ورأى بريريتون بعد ذلك أنه كان قد نزع عن عنق القتيل الحبل الرمادي الطويل الذي خُنِقَ به.

كان ثَمَّةَ شيءٌ شِرِّير للغاية في مجرَّد وَضْع هذا الحبل أمام أعين هؤلاء الرجال الأحياء. فقد تسبَّب في موت رجلٍ آخر كان قبل ساعة مفعمًا بالحياة مثلهم تمامًا؛ واستخدَمه رجل، على نفس القَدْر من الحيوية، أداةً لجريمة قتلٍ شنيعة. مع أن الحبل في حد ذاته كان عديم الأهمية؛ فهو مجرَّد قطعةٍ من خيوط القنَّب المغزولة والملفوفة بقوة، ولكنه كان موحيًا بغرابة؛ وعلى أي حال، لرجلٍ واحد، من بين أولئك الذين وقفوا ينظرون إليه، كان ذلك الحبل بمثابة تذكيرٍ بأنه لا بد أن القاتل الذي استخدَمه يخشى الآن من حبلٍ آخر أقوى نُصْب عينَيه.

أشار الطبيب فجأةً وهو يلقي نظرةً سريعة إلى رجال الشرطة: «اعثُروا على صاحب ذلك الحبل، وقد تصلون إلى شيءٍ ما.» وأردَف: «هل تقول إنه حبلُ جزَّار؟»

أومأ الرجل الذي همَس لتوِّه إلى كوذرستون برأسه موافقًا.

وأجاب: «إنه حبل يستخدمه الجزَّار مع الخنازير، يا سيدي.» وتابع: «إنه ما يربط به الجزار الخنزير كي يُثبتَه على الوشيع.»

«وشيع؟ ما هذا؟» هكذا سأل بريريتون الذي كان قد اقترب من الطاولة لفحص الحبل، ورأى أنه على الرغم من كونه رفيعًا، فقد كان قويًّا للغاية، وأليافُه منسوجة بإحكام. وأردَف: «هل تقصد شيئًا مثل الألواح الخشبية التي كان قديمًا يُربَط فيها المحكوم عليه بالإعدام ويُجَر إلى مكان تنفيذ الحكم؟»

وافقه الشرطي، قائلًا: «أجل يا سيدي.» وأردَف: «إنه نوعٌ من أنواع الألواح الخشبية، على أربعة أرجل. يضعون عليه الخنزير، ويربطونه بحبل من هذا النوع؛ لقد كان هذا الحبل يُستخدَم لذلك الغرض؛ فهو يصبح دُهْنيَّ المَلمَس مع طول الاستعمال.»

قال الطبيب: «وقد قُطعَ من لفيفةٍ أطول، بالطبع.» وأضاف: «هذه الحبال طويلةٌ جدًّا، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل: «إنها طويلة يا سيدي، وتكون على هيئة لفائفَ عادية، مثل ...». انحنَى هو الآخر ونظر إلى طول الحبل الموضوع أمامه. وأردَف وهو يشير إلى إحدى نهايتَيه: «يمكن قول إنه قد قُطعَ حديثًا.»

«وقُطعَ بسكينٍ حادٍّ أيضًا.»

نظر رقيب الشرطة إلى الطبيب كما لو كان يَطلب نصيحته حول كيفية التعبير بالكلمات عن أفكاره.

«حسنًا؟»، هكذا قال الطبيب بإيماءةٍ موافقة. وتابع: «بالتأكيد، في ذهنك شيءٌ ما أيها الرقيب، صحيح؟»

أجاب قائلًا: «حسنًا، يُوجد رجلٌ يذبح الخنازير ولديه حبال كهذا، ويعيش بالقرب من هنا أيها الطبيب.» وأضاف: «أنت تعرف مَن أقصد؛ إنه الرجل الذي يُسمُّونه «جاك النبيل».»

قال الطبيب: «هل تقصد هاربورو؟» وأردَف: «حسنًا، من الأفضل أن تسألوه عما إذا كان يعرف أي شيء. ربما سرق شخصٌ ما أحد حباله. ولكن يُوجد جزارون آخرون يذبحون الخنازير في البلدة، بالطبع.»

علَّق شرطيٌّ آخر قائلًا: «ليس في هذه الجهة من البلدة، لا يُوجد آخرون هنا.»

تابع الطبيب، وهو يَنظر إلى كوذرستون والآخرين: «الواضح أن كايتلي قد خُنِقَ بهذا الحبل، وأن كل شيء قَيِّم كان يحمله قد سُرِق. من الأفضل أن تكتشفوا ما كان بحوزته، أو ما كان من المُحتمَل أن يحمله معه. اسألوا مدبِّرة المنزل.»

أتت الآنسة بيت من الغرفة الداخلية، حيث كانت قد بدأَت بالفعل استعداداتها لتجهيز الجثمان. كانت هادئةً كما كانت عندما أخبرها بينت لأول مرة بما حدث، ووقفَت عند نهاية الطاولة، والحبل بينها وبين مُستجوبيها، ولم تُظهِر أي تأثر أو دهشة مما حدث.

سألها الرقيب: «هل يُمكنك أن تخبرينا بأي شيء عن هذا يا سيدتي؟» وتابع: «كما تَرينَ، لقد لقي سيدك حتفه على يد شخصٍ ما، ولا يوجد شك في أنه تعرَّض للسرقة أيضًا. هل يتصادف أنكِ تعرفين ما كان يحمله معه؟»

وضعَت مدبرة المنزل، التي كانت تحمل بين ذراعَيها كومةً من الملاءات والمفارش، حملها على مَنْشَر الملابس أمام المدفأة قبل أن تَرُد. بدا أنها تُفكِّر بعمق، وعندما استدارت مرةً أخرى، كان ذلك لِتهُز رأسها الملفوفة بالمنديل المزخرف الغريب.

أجابت: «حسنًا، لا يمكنني القول بالضبط.» وأضافت: «ولكنَّني لن أندهش إن كان يحمل الكثير؛ مقارنةً برجلٍ مثله، كما تعلم. كان بالفعل يحمل مالًا؛ فلم يكن يعاني من نقص المال أبدًا منذ عرفتُه، وأحيانًا كان يحمل مبلغًا معقولًا في جيوبه؛ إنني أعرف ذلك، بالطبع؛ لأنه كان يُخرِج المال من جيوبه، فَكَّة نقود من عملاتٍ ذهبية وفضية ونحاسية، وقد رأيتُه يأخذ أوراقًا نقدية من دفتر جيبه. ولكنه على الأرجح كان يحمل مبلغًا كبيرًا أكثر من المعتاد الليلة.»

سأل الرقيب: «لماذا؟»

أجابت الآنسة بيت: «لأنه ذهب إلى البنك هذا الصباح لسحب معاشه.» وتابعَت: «أجهل مقداره، مثلما أجهل مصدره. لقد كان رجلًا كتومًا، ولم يُخبر أي شخصٍ أبدًا

أكثر مما يرغب في الإفصاح عنه، ولم يُخبرني أبدًا أي شيء عن ذلك. ولكنَّني أعلم أنه كان ما يُمكن أن تطلق عليه مبلغًا لا بأس به، لرجلٍ يعيش في كوخ. لقد ذهب إلى البنك ظهر اليوم؛ وكان دائمًا يذهب مرةً واحدة كل ثلاثة أشهر، وقال بعد ظهر اليوم إنه سيذهب لدفع إيجاره للسيد كوذرستون هذا ...»

تمتَم كوذرستون: «وقد فعل.» وأردَف: «أجل، فعَل ذلك.»

تابعَت مدبرة المنزل: «حسنًا، كان يَحمل كلَّ ما تبقى من نقوده معه.» وتابعَت: «وكان يحمل مبلغًا مثل الذي كان يحمله من قبلُ؛ لأنه كان سيحصل على أموالٍ إضافية غير معاشه. وأقول لك إنه كان من الناس الذين يحملون نقودهم معهم؛ لقد كان أحمقَ لهذه الدرجة. وكان معه ساعة وسلسلة ثمينتان للغاية، أخبَرني أنهما كانا بغرض الوجاهة، وأنهما كلَّفاه ما يَقرُب من مائة جنيهٍ إسترليني. وبالطبع، كان يحمل دفتر جيب مليئًا بالأوراق.»

سألها الرقيب: «دفتر الجيب هذا؟»

وافقَت الآنسة بيت قائلة: «أجل، هذا هو.» وأضافت: «ولكنه دائمًا ما كان مليئًا بقِطَع من الرسائل والأوراق. هل تقصد أنكَ وجدتَه فارغًا؟ هل فعلتَ؟ حسنًا إذن، أنا لست حمقاء، وأقول إنه إن كان قد قُتِل، فقد كان ثَمَّةَ سببٌ ما يتجاوَز سرقة ماله وما كان بحوزته! الشخص الذي أخذ أوراقه، أيًّا كانت هُوِيَّته، كان يرغب في الحصول عليها بشدة!»

قال الرقيب متجاهلًا تلميح الآنسة بيت: «والآن ماذا تعرفين عن عاداته؟» وأردَف: «هل كان يذهب للتمشِّي على تلَّة شول كل ليلة؟»

أجابت: «أجل، بانتظامٍ كالساعة.» وتابعَت: «كان يقرأ ويكتب كثيرًا في المساء، ثم يضع كل كتبه وأوراقه جانبًا ويتناول عَشاءه، ويخرج ساعةً للتمشي هنا وهناك. ثم يعود ويلبس خُفَّه — ها هو هناك، موضوع لتدفئته من أجله — ويُدخِّن غَلْيونًا واحدًا، ويَحتسي كأسًا واحدة من شراب التودي الساخن — ها هي هناك أدوات إعدادها — ثم يأوي إلى الفراش. كان أكثر شخصٍ منظَّم عرفتُه في حياتي، في كل شيءٍ يفعله.»

سألَها بينت، الذي رأى أن الرقيب لم يعُد لديه المزيد من الأسئلة: «هل تأخر الليلة أكثر من المعتاد؟» وأردَف: «بدا أنكِ تُلمِحين إلى ذلك، عندما أتينا.»

اعترفَت الآنسة بيت قائلة: «حسنًا، لقد تأخر أكثر قليلًا الليلة.» وأضافت: «كان الوقت الذي يَستغرقه يختلف بالطبع. ولكنه كان يستغرق نحو ساعة. كان يَصعد التل

ويهبطه، ويمشي بجانبه، ويسير عَبْر أجمات الأشجار ذهابًا وإيابًا. لقد حذَّرتُه أكثر من مرة.»

«ولكن لماذا؟» هكذا سأل بريريتون الذي كان فضوله يدفعه للمشاركة في هذه المأساة. وتابع: «ما السبب الذي دفعكِ لتحذيره؟»

استدارت الآنسة بيت ونظَرتْ بتمحيص إلى مستجوبها الأخير. أخذَت تراقبه بهدوء ودقة، وتَحوَّل التعبير الفضولي المُرتسم على وجهها إلى ما يشبه ابتسامةً مسترخية.

قالت: «أستطيع التكهُّن بمهنتك يا سيد.» وأضافت: «أنت رجلُ قانون! لقد رأيتُ أمثالك مرارًا. كما أنكَ دقيق الملاحظة أيضًا! حسنًا، وعلى الرغم من كونك شابًّا، فأنت ناضجٌ بما يكفي لأن تكون قد سمعتَ عن بعض الأشياء. هل سمعتَ من قبلُ أن النساء يمتلكن ما يفتقر إليه الرجال؛ الغريزة؟»

سألَها بريريتون: «هل حقًّا تقولين لي إن السبب الوحيد الذي دفعكِ لتحذيره من الخروج في وقتٍ متأخِّر من الليل هو الغريزة فحسب؟ لا تُمازحيني!»

فأجابت قائلة: «في المقام الأول الغريزة، على أي حال.» وأردفَت: «تتمتَّع النساء بنوعٍ من الحَدْس تجاه الأشياء لا يَتمتَّع به الرجال؛ على الأقل، لا أحد من الرجال الذين قابلتُهم. ولكن بالطبع كان لديَّ أكثر من ذلك. لقد كان السيد كايتلي من سكان المدينة؛ فقد كان من لندن. وأنا امرأةٌ ريفية. لم يكن يفهم، ولم أستطع جعله يفهم أنه ليس من المأمون السير في أماكنَ مُوحِشة في مناطقَ ريفية كهذه في وقتٍ متأخر من الليل. عندما أُتيح لي أن أتعرف على عاداته، تجادلتُ معه أكثر من مرة. أوضحتُ له أنه في أماكن كهذه، حيث لا يُوجد أي شيءٍ قريب منها إلا المنازل الواقعة أسفل التل من ناحية، وكوخ هاربورو من ناحيةٍ أخرى، وكلاهما على بعد ربع ميل؛ وحيث يُوجد كل هذه الأماكن المتوارية عن الأنظار والمُغطَّاة بأجمات الأشجار والصخور، لم يكن مأمونًا لرجلٍ مُسِن يَرتدي ساعة وسلسلة ذهبيتَين أن يذهب للتجوُّل في الظلام. دائمًا ما يُوجد الكثير من الأشخاص السيئين في الأماكن الريفية، المُستعدِّين لأن يَضربوا الملك نفسه على رأسه من أجل نفس قَدْر ما كان يَحمله السيد كايتلي، حتى لو لم يكن أكثر من سلسلة يُمكن لأي شخص رؤيتها! وقد حدث ما تنبَّأتُ به. ووقعَت الفأس في الرأس!»

قال بريريتون: «ولكنكِ قلتِ لتوكِ إنه لا بد أنه قُتِل لسببٍ آخر غير الأشياء الثمينة التي كان يحملها.»

ردَّت السيدة بيت قائلة: «قلتُ إنه إذا كانت أوراقه قد اختفت، فلا بد أن شخصًا ما كان يريدها بشدة.» وأضافت: «على أيِّ حال، ما حدث هو بالضبط ما شعرتُ أنه قد يحدث، وها قد لقي حتفه. وسأكون مُمتنة لمن سيُرسل منكم لإحضار امرأة أو اثنتَين لمُساعدتي في تجهيز جثمانه؛ لأنه لا يُمكن أن يُتوَقَّع مني أن أفعل كل شيء بنفسي، ولا أن أبقى في هذا الكوخ وحدي!»

خرج الرقيب تاركًا الطبيب واثنَين من رجال الشرطة لترتيب الأمور مع مدبِّرة المنزل، وتبعه الآخرون. ثم التفت إلى كوذرستون.

وقال: «أنا ذاهب إلى كوخ هاربورو، على الطرف الآخر من تلَّة شول.» وتابع: «لا أتوقع أن أحصل على أي معلومات هناك ... ليس بعد، ولكني سأعرف، على أيِّ حال، ما إذا كان موجودًا في المنزل. إذ أراد أيٌّ منكم أيها السادة أن يرافقني ...»

وضع بينت يده على ذراع كوذرستون ووَجَّهه في اتجاه منزله.

وقال: «سأذهب أنا وبريريتون مع الرقيب.» وأضاف: «لا بد أن تعود إلى المنزل؛ فليتي ستكون قلقةً بشأن الأمور. اذهب معه يا سيد جارثويت، سيُحيط كلاكما علمًا بالمزيد لاحقًا.»

كان مما أدهش بريريتون بشدة، أن كوذرستون لم يُبدِ أي اعتراض على هذه الدعوة السريعة للانصراف. ذهب هو وجارثويت في اتجاه، بينما اتجه الآخرون في الاتجاه الآخر، يقودهم الشرطي القوي الملاحظة الذي عثَر على دفتر الجيب الفارغ وتعرَّف على الخصائص الغريبة للحبل.

«إلى أين نحن ذاهبون الآن؟» تساءل بريريتون بينما كان هو وبينت يتبعان مرشدَيهما عَبْر الأشجار ونزولًا على منحدرات تلة شول.

أجاب بينت: «إلى كوخ جون هاربورو، على الطرف الآخر من التلَّة.» وتابع: «إنه الرجل الذي تحدَّثوا عنه هناك بالداخل. إنه شخصيةٌ غريبة الأطوار؛ جزَّارُ خنازير محترف، ويَمتهِن مهنًا أخرى أيضًا. إنه يمارس القليل من اصطياد الفئران والخُلد، والكثير من الصيد غير المشروع. في الواقع، إنه شخصٌ غريب تمامًا، ليس فقط من ناحية شخصيته، ولكن في مظهره أيضًا. والغريب في الأمر أن لديه ابنةً رائعة الجمال وناجحة للغاية، وهي فتاةٌ متفوِّقة بحق، تلقَّت تعليمًا جيدًا وتَكسب قُوتَها بالعمل مُربية في البلدة. إنهما ثنائيٌّ غريب إن رأيتهما معًا!»

سأل بريريتون: «هل تعيش معه؟»

أجاب بينت قائلًا: «أوه! أجل، تعيش معه!» وأضاف: «وأعتقد أنهما مخلصان جدًّا كلٌّ منهما للآخر، على الرغم من أن الجميع يتعجَّب من أن رجلًا كهذا لدَيه ابنةٌ مثلها. ثَمَّة لغزٌ ما بشأن هذا الرجل؛ فمع كونه شخصيةً غريبة، إلا أنه نشأ نشأةً حسنة، ويدعوه الناس في الجوار «جاك النبيل».»

أشار بريريتون قائلًا: «ألن يُخيف كل هذا ابنته؟» وتابع: «أليس من الأفضل أن يذهب شخصٌ ما بهدوء إلى كوخ هذا الرجل؟»

ولكنهم عندما وصلوا إلى كوخ هاربورو في الطرف الآخر من تلَّة شول، كان كل شيء مظلمًا.

فجأةً أشار الشرطي الذي كان يتمتَّع بموهبة قوة الملاحظة: «ومع ذلك، لم يخلدا إلى النوم بعدُ.» وأردَف: «تُوجد نارٌ مشتعلة في موقد المطبخ، ولن يتركاها هكذا. لا بد وأنهما بالخارج، كليهما.»

وجَّهَه الرقيب قائلًا: «اذهب واطرُقِ الباب بهدوء.»

تبِع الشرطي صعودًا على الممشى المرصوف الذي يقود إلى باب الكوخ، وتبعهما الآخران بعد قليل. في ضوء القمر نظر بريريتون إلى المنطقة المحيطة الجديدة، فرأى كوخًا قديمًا مسقوفًا بالقش، وسط حديقة بين الأشجار والشجيرات، له سقيفةٌ مائلة عند أحد أطرافه؛ والأهم من ذلك، كان جوٌّ من الصمت يعمُّ أرجاءه.

فجأةً انكسر الصمت. سُمعَ وقْع خطوةٍ خفيفة وسريعة على الممشى المرصوف من خلفهم، فأدار رجال الشرطة مصابيحهم في اتجاهه. وبعدما دقَّق بريريتون النظر فيما حوله، أدرك وجود فتاة تنظر إلى هؤلاء الزوار بعينَين رماديتَين جميلتَين متسائلتَين.

الفصل السادس

العمدة

ظنَّ بريريتون عندئذٍ أن هذه هي ابنة «جاك النبيل»، الفتاة التي كان بينت يخبره عنها للتو. نظر إليها بتمعُّن وهي تقف في مواجهة المجموعة الغريبة. قال في نفسه إنها شابَّة تتمتع برباطة الجأش؛ فباستثناء القليل من تورُّد الوجه، والقليل من التساؤل البادي في نظرتها والمُرتسم على شفتَيها، لم تُظهر أي تعبيرٍ مفرط عن المفاجأة أو الخوف. كانت بالتأكيد شابةً جميلة المظهر أيضًا، ولم تكن على الإطلاق من نوع البنات اللاتي يُمكن لرجلٍ ذي شخصيةٍ غريبة أن يحظى بهن؛ فقد كانت ملامحها رقيقة، ويبدو عليها حسن التربية، وتُوحي بالرُّقيِّ. ولاحظ أنه بينما كان هو وبينت يَرفعان قبعتَيهما تحيةً لها، لمس الشرطيان خوذتَيهما؛ إذ كان من الواضح أنهما يَعرفان الفتاة جيدًا، ونظرا إليها ببعض القلق المشوب بالاحترام.

قال الرقيب، الذي بدا واضحًا أنه لم يكن مُستمتعًا بمهمته هذه على الإطلاق: «أستميحكِ عذرًا يا آنسة.» واستَطرَد: «ولكن الأمر هو أنني أرغب في السؤال عن والدِك، تُرى، هل هو في المنزل؟»

سألَتْه قائلة: «ماذا تُريد؟» وبدأَت تنظر إلى الرقيب نظرةً مستفسرة، ثم حوَّلَتها إلى بينت. وتابعَت: «هل حدث شيءٌ ما يا سيد بينت؟» وأضافت: «إن كنتَ تُريد والدي، وهو ليس موجودًا بالبيت، فأنا لا أعرف مكانه؛ فقد خرج في وقتٍ مُبكِّر من المساء، ولم يكن قد عاد عندما غادرتُ المنزل قبل ساعة.»

أجاب بينت قائلًا: «لم يحدث شيءٌ على ما أظن.» وأردَف: «ولكن الحقيقة هي أن شيئًا ما قد حدث. جارك في الناحية الأخرى من الغابة، السيد كايتلي العجوز، كما تعلمين، عُثرَ عليه ميتًا.»

لاحظ بريريتون، الذي كان يُراقب الفتاة عن كَثَب، أن الخبر لم يكن له أيُّ وقعٍ عليها، بخلاف كونه مجرَّد خبر. تحركَت نحو باب الكوخ، وأخذَت مفتاحًا من فِراءِ تدفئة اليدَين الخاص بها.

وقالت: «حسنًا، وماذا بعدُ؟» وتابعَت: «أظُن أنكَ تُريد من والدي أن يُساعدَكم، أليس كذلك؟ ربما يكون في الداخل؛ ربما يكون قد أوى إلى الفِراش.»

فتحَت الباب، ودخلَت غرفة المعيشة المفتوحة، وألقت نظرةً سريعةً حولها وهي تَرفع مصباحًا كان موضوعًا على الطاولة.

تابعَت قائلةً: «لا.» وأضافَت: «لم يَعُد؛ لذا ...»

همَس الرقيب قائلًا: «من الأفضل أن تُخبرَها، يا سيد بينت.» وأضاف: «لا فائدة من إخفاء الأمر يا سيدي؛ فلا بد أن تعرف.»

قال بينت: «الحقيقة هي ... يؤسفنا أن نقول إنَّ السيد كايتلي قد قُتِل.»

استدارت الفتاة بحدَّة عند سماعها ذلك؛ واتسعَت عيناها، وأزداد تورُّد خدَّيها.

صاحت قائلةً: «قُتِل! أُرديَ قتيلًا بطلقٍ ناري؟»

تجاوزَت عيناها بينت نحو أحد أركان الغرفة، وتبع بريريتون نظرتها، فرأى مسدسًا موضوعًا بين كومة من صنارات الصيد وأدوات التسلية المُماثلة. استقرَّت نظرتها عليه لجزء من الثانية فحسب، ثم عادت تنظر إلى وجه بينت.

قال بينت بهدوء: «يُستحسَن أن أُخبركِ بكل شيء.» وأردَف: «لقد تعرَّض السيد كايتلي للخنق. وقطعة الحبل التي استُخدِمَت في ذلك، كما تقول الشرطة، ربما تكون قد قُطعَت من إحدى لفائف الحبال التي يستخدمُها والدكِ في مهنته، كما تعرفين.»

أشار الرقيب قائلًا: «إننا لا نُلمحُ إلى أي شيء، كما تعلمين يا آنسة أفيس.» واستطرد: «لا يبلُغنَّ بكِ الأمر أن تفكِّري في ذلك — في الوقت الحالي. ولكن، كما تَرينَ، قد يكون لدى هاربورو واحدٌ من تلك الحبال معلقٌ في مكانٍ ما هنا، و... هل تفهمين ما أقصد؟»

صمتَت الفتاة تمامًا، ونقلَت نظرها بثبات من رجل إلى آخر. ثم استَقرَّت عيناها مرةً أخرى على بينت.

وسألَت فجأة: «هل تعرف سبب مَقتل السيد كايتلي؟» وأضافت: «هل وجدتم أي سبب لذلك؟»

أجاب بينت قائلًا: «لقد سُرقَ بعد مقتله.» وأردَف: «ذلك يبدو مؤكدًا تمامًا.»

علَّقتِ قائلةً، بعد فترة صمت: «أيًّا كان ما يمكن أن تقوله، لديكَ بعض الشكوك بشأن والدي.» وأضافت: «حسنًا، كل ما يُمكنني قوله هو إن والدي ليس بحاجة إلى سرقة أي شخص، بل إن هذا مُستبعَد تمامًا، إذا كنتَ تريد الحقيقة. ولكن ماذا تريد؟» تابعَت بقليل من نفاد الصبر. «أبي غير موجود بالمنزل، ولا أعرف مكانه، وغالبًا ما يكون في الخارج طَوالَ الليل.»

قال الرقيب: «هل يمكننا فحسب أن نُلقي نظرةً حول السقيفة الآن؟» واستطرد: «فقط لنرى إن كان أي شيء مفقودًا، كما تَعلمين. فكما ترَين يا آنسة ...»

ردَّت أفيس مقاطعة: «يُمكنك أن تبحث حول السقيفة وحول أي مكانٍ آخر.» وأضافت: «على الرغم من أنه لا فائدة من ذلك ... حسنًا، أنت تعرف مكان السقيفة.»

أشاحت بظَهْرها وبدأَت في خلع قبَّعتها ومعطفها، وخرج الرجال الأربعة إلى الحديقة واتجهوا نحو السقيفة المائلة الموجودة عند نهاية الكوخ. امتدَّت شرفةٌ ذات أرضيةٍ مبلَّطة على طول واجهة الكوخ والسقيفة، وكان باب السقيفة يقع في طرفها البعيد. ولكن عندما كان الرقيب على وشك أن يفتحه، اكتشف الشرطي القوي الملاحَظة اكتشافه الثالث. كان يُوجِّه ضوء مصباحه المباشر على المنطقة المحيطة، ثم أداره نحو لفافةٍ من الحبل تتدلى من مسمارٍ مثبَّت في جدار السقيفة بين الباب والنافذة.

«هاكم، أيها السادة!» قال وهو يَرفع المصباح بإحدى يدَيه ويشير منتصرًا إلى نقطةٍ محددة من الحبل الملفوف بسبابة اليد الأخرى. وتابع قائلًا: «انظروا هناك! إنه مقطوعٌ بدقة أيضًا، تمامًا كالجزء الآخر الموجود هناك!»

تقدَّم بريريتون إلى الأمام ونظر عن كثَبٍ إلى ما كان الشرطي يشير إليه. لم يكن يُوجد شك في أن جزءًا من الحبل قد قُطعَ حديثًا من اللفافة، وأيضًا، قُطعَ بسكينٍ ذي نصلٍ حاد ودقيق على نحوٍ غير عادي؛ فقد كانت الحوافُّ المقطوعة متساوية تمامًا وواضحة، وكانت الخيوط المنفصلة جديدة وغير متسخة. كان واضحًا أن جزءًا من هذا الحبل قد قُطعَ من باقي اللفافة منذ وقتٍ قريب جدًّا، وهَزَّ الرقيب رأسه بقلقٍ شديد وهو ينزع اللفافة من مسمارها.

وقال: «لا أظن أن ثَمَّةَ حاجة للبحث أكثر من هذا يا سيد بينت.» وأضاف: «بالطبع سآخذ هذه معي، وأُقارنها بالجزء الأقصر. ولكننا سنُلقي نظرةً خاطفة على هذه السقيفة، حتى نجعل ابنتَه تعتقد أن ذلك ما أردناه؛ فأنا لا أريد أن أُخيفَها أكثر مما فعلنا. لا يُوجد شيءٌ هناك، كما ترى»، هكذا تابع، وهو يفتح باب السقيفة ويكشف عن جدرانٍ بيضاء

اللون مزوَّدة بالأدوات واللوازم الخاصة بمهنة صاحبها. وأردَف قائلًا: «حسنًا، سنذهب ونكتفي بما لدينا.»

عاد إلى باب الكوخ وأدخل رأسه ونادى برفقٍ على قاطنته.

سألَت أفيس: «ماذا إذن؟»

قال الرقيب: «حسنًا يا آنسة، سنُغادر.» وأضاف: «ولكن إذا جاء والدُك، فقط اطلُبي منه أن يأتي إلى مركز الشرطة، هل تفهمينني؟ أَودُّ التحدُّث معه قليلًا.»

لم تُجبِ الفتاة على هذا الطلب المهذَّب، وعندما انضمَّ الرقيب إلى الآخرين، أغلقَت باب الكوخ، وسمعها بريريتون وهي تُوصِدُه بالقفل وبالمزلاج.

قال بريريتون وهو يُغادِر هو وبينت رجالَ الشرطة ويستديران نازلَين تجاه حارةٍ جانبية تؤدي إلى البلدة: «هذا أغرب شيءٍ على الإطلاق تقريبًا!» وأردَف قائلًا: «ليس لديَّ أدنى شك في أن قطعة الحبل التي خُنق بها كايتلي قد قُطعَت من تلك اللفافة! والآن ماذا يعني ذلك؟ إن هذا يُمثِّل لي، بالطبع، الدليل الأكيد على أن هاربورو هذا لا علاقة له بجريمة القتل.»

سألَه بينت: «لماذا؟»

هتف بريريتون متفاجئًا: «لماذا؟ بربِّك يا صديقي العزيز!» وأضاف: «هل تظن حقًّا أن أي رجلٍ في كامل قواه العقلية سيفعل شيئًا كهذا؟ يقطع قطعة حبل من لفافتها، ويترك اللفافة حيثما يُمكن لأي شخص أن يجدها، ثم يخنق رجلًا بالجزء المقطوع ويتركه حول عنق الضحية؟ هذا عبث! لا وألف لا!»

سأل بينت: «حسنًا، وماذا حدث إذن؟»

أجاب بريريتون: «آه! قطع شخصٌ ما ذلك الجزء ليستخدمه فيما فعل.» وتابع: «ولكن من؟»

لم يرُدَّ بينت لفترة من الوقت. ثم عندما وصلا إلى ضواحي البلدة، خَبَط بيده على ذراع رفيقه.

وقال: «على الرغم من عقليتك القانونية، فقد نسيتَ شيئًا.» وأضاف: «ربما يكون القاتل قد تعرَّض لشيءٍ ما قاطَعه قبل أن يتمكَّن من إزالة الحبل. وفي تلك الحال ...»

توقَّف فجأةً عندما انفتحَت بوابة في جدار حديقة كانوا يمرُّون بها للتو، وخرج منها رجلٌ طويل القامة. تعرَّف بينت على مالاليو على ضوء المصباح المجاور. وتعرَّف مالاليو عليه أيضًا، وتوقَّف.

صاح بينت قائلًا: «أوه، هذا أنت، يا سيدي عمدة البلدة!» وتابع: «كنتُ أسأل نفسي للتو ما إذا كنتُ سأزورُك زيارةً سريعة أثناء مروري أم لا. هل سمعت بما حدث الليلة؟»

أجاب مالاليو قائلًا: «لم أسمع شيئًا.» وأضاف: «كنتُ ألعب لُعبة ويست للتوِّ مع المستشار نورثروب وزوجته وابنته. ماذا حدث إذن؟»

كان ثلاثتهم يسيرون نحو البلدة بحلول ذلك الوقت، واندسَّ بينت بين بريريتون ومالاليو، وأمسك بذراع العمدة.

وقال: «لقد وقعَت جريمة قتل.» وتابع: «تلك هي حقيقة الأمر. أتعرف كايتلي العجوز، المستأجر من شريكِك؟ حسنًا، قتلَه شخصٌ ما.»

كان وقع هذا الخبر على مالاليو غير عادي. شعر بينت بذراع مالاليو التي كان قد تأبَّطَها لتوِّه ترتجف حرفيًّا كردَّة فعل لدماغه المصدوم؛ كما سقط الغَلْيون الذي كان يُدخِّنه مالاليو من بين شفتَيه؛ ومن شفتَيه انطلق ما يُشبه كثيرًا صرخة فزع.

وصاح قائلًا: «رُحماك يا إلهي!» وأضاف: «هل أنت جاد؟»

أجاب بينت: «إنها حقيقة.» وتوقَّف والتقَطَ الغَلْيون الذي كان قد سقط. وأردف: «أعتذر لقولي الخبر بطريقةٍ خرقاء؛ فلم أظن أنه سيؤثِّر عليك هكذا. ولكن هذا ما حدث؛ لقد قُتلَ كايتلي. قُتلَ خنقًا!»

ردَّد مالاليو قائلًا: «قُتلَ خنقًا!» وتابع: «يا إلهي ... يا إلهي ... يا إلهي! متى حدث هذا؟»

ردَّ بينت: «منذ حوالي ساعة.» وأضاف: «كنتُ أُمضي أنا والسيد بريريتون — وهو صديقٌ لي من لندن — الأمسية في منزل شريكك عندما جاء جارُه ذاك، السيد جارثويت، مهرولًا ليُخبر السيد كوذرستون أنه وجد كايتلي جثةً هامدةً على تلة شول. وبالطبع صَعِدنا جميعًا إلى هناك.»

سأله مالاليو: «إذن ... رأيتَه؟» وأردَف يسأل: «ألا يُوجد شك في الأمر؟»

صاح بينت قائلًا: «شك!» وأضاف: «أظنُّ أنه لا يُوجد أدنى شك! إنها قطعًا جريمة قتل. لا، لا يُوجد شك.»

توقَّف مالاليو عند بوابة منزله.

وقال: «تفضَّلا أيها السيدان.» وتابع: «تفضلا دقيقةً فقط، على أي حال. أنا ... بحق الرب لقد اجتاحَتْني الصدمة جرَّاء ذلك الخبر! جريمة قتل؟ لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل في هذه الأنحاء منذُ جئتُ إلى هنا من قرابة ثلاثين عامًا. تفضَّلا بالدخول وأخبراني بالمزيد عما حدث.»

قادهما صعودًا على الممر المرصوف بالحصى، ودخل هو وزائراه إلى المنزل بعدما فتح مزلاج الباب، واتجهوا نحو قاعة فيها مدفأةٌ مُشتعلة وصينيةُ عَشاء صغيرة موضوعة على طاولةٍ أسفلَ مصباح.

وقال: «لقد أوى أهل بيتي جميعهم إلى الفراش.» وأضاف: «إنهم يَنامون ويتركون لي بعض الطعام؛ فغالبًا ما أتأخر، كما ترَون. هل تودَّان أيها السيدان تناوُل شطيرة، أو بسكويتٍ جافٍّ؟ حسنًا، إذن ستتناولان شرابًا. إذن ...»، وتابع وهو يُخْرج كئوسًا من الخزانة الجانبية: «إذن كنتما تُمضيان الأمسية مع كوذرستون، وماذا بعد؟»

أجاب بينت: «حسنًا، لا يُمكنني أن أقول إننا قضينا الأمسية كلها معه بالضبط؛ لأنه تعيَّن عليه الخروج قسمًا كبيرًا منها لقَضاء بعض الأعمال. ولكننا كنا معه، كنا في منزله، عندما جاء الخبر.»

سأل مالاليو، كما لو كان ذلك محضَ فضول: «أجل، كان عليه المغادرة، أليس كذلك؟» واستطرد يسأل: «في أي وقتٍ كان ذلك؟ كنتُ أعلم أنه كان لديه عمل الليلة؛ عمل يخصنا.»

أجاب بينت قائلًا: «من التاسعة إلى العاشرة، تقريبًا.» وتابع: «كان قد عاد لتوِّه عندما جاء جارثويت بالخبر.»

أشار مالاليو قائلًا: «لقد كانت صدمةً له بكل تأكيد.» وأردف: «مُستأجره!»

وافق بينت قائلًا: «أجل، كانت صدمة.» أخذ الكأس التي ناولَه إياها مالاليو وجلس. وتابع: «من الأفضل أن نُخبركَ بكل شيء عن الأمر.» وأضاف: «إنها مسألةٌ غريبة؛ ويظن السيد بريريتون، وهو محامٍ، أنها مسألةٌ غريبة جدًّا.»

أومأ مالاليو برأسه وجلس وهو يحمل كأسًا في يده هو الآخر. استمع باهتمام، وراقبه بريريتون بينما كان يستمع. قال بريريتون في نفسه إن مالاليو رجلٌ أنيق، وماكر، وسريع الملاحظة، ويقظ؛ من نوعية الناس الذين يستمعون إلى كل شيء، ولا يقولون إلا القليل. وانتظر بترقُّبٍ سماعَ ما سيقوله مالاليو بعدما سمع كل شيء.

التفَت إليه مالاليو عندما انتهى بينت من الحديث.

وقال: «أتَّفق معكَ يا سيدي.» وتابع: «لن يقطع أحدٌ ذلك الجزء من الحبل ويتركه حول عنق الرجل، ويترك اللفافة معلَّقة حيث يُمكن لأيِّ شخص أن يجدها إلا إذا كان شخصًا أحمق. ولكن هذا الرجل المدعو هاربورو ليس أحمق! هذا ليس من صنيعه، يا بينت. لا!»

سأله بينت: «صنيع مَن إذن؟»

فجأةً تجرَّع مالاليو كأسه ونهض واقفًا.

وقال: «بصفتي رئيسَ القضاة، من الأفضل أن أذهب إلى الشرطة.» وأضاف: «لقد كان يَتسكَّع في البلدة مؤخَّرًا شخص أو شخصان غريبا الأطوار. يُستحسَن أن أستحثهم على العمل. لا أظنُّ أنكما ستأتيان معي، أليس كذلك؟»، تابع عندما كانوا يُغادرون المنزل معًا.

أجاب بينت: «لا، لن يُفيد وجودنا في شيء.»

كان منزله على الجانب الآخر من الطريق أمام منزل مالاليو، وتمنَّى له هو وبريريتون ليلةً سعيدةً واتجها نحو منزل بينت، بينما سار العمدة بخطواتٍ سريعة في اتجاه مركز الشرطة.

الفصل السابع

مهمةٌ ليلية

كانت المسافة من مجموعة المنازل الصغيرة الجديدة الواقعة عند سَفح تلَّة شول إلى مركز الشرطة في نهاية شارع هاي ستريت لا تَستغرِق سوى بضعِ دقائقَ فقط سيرًا على الأقدام. كان مالاليو سريع الخُطى، وقطع هذه المسافة بأقصى سرعته. ولكن خلال تلك الدقائق القليلة توصَّل إلى استنتاج، وذلك لأنه كان سريع التفكير مثلما كان سريع الخُطى.

لقد قتل كوذرستون كايتلي بالتأكيد. كان ذلك مؤكَّدًا. كان قد بدأ يشُك في ذلك ما إن سمع بجريمة القتل؛ وقد صار مُقتنعًا به بمجرَّد أن ذكر بينت الشاب أن كوذرستون ترك ضيفَيه لمدة ساعة بعد العشاء. لقد فقَد كوذرستون عقله بلا شك وارتكب هذه الفعلة الحمقاء! والآن لا بد من حماية كوذرستون وتأمينه؛ وإن احتاج إبعادَ الشكوك عنه أن تُقلَب السماء على الأرض، فلا بدَّ من ذلك. لأن أي شيءٍ يُمكن أن يحدث لكوذرستون، سيطوله أيضًا، وقد كان مالاليو عازمًا على الاعتناء بنفسه جيدًا. بصرف النظر عما سيحُل بشخصٍ بريء، لا بد أن يفلت كوذرستون من أي عقاب.

وكان أوَّل شيء يجب عليه فعله هو التوجُّه إلى الشرطة، واستخدام نفوذه، وتدبير الأمور. بصرف النظر عن مدى إيمانه ببراءة هاربورو؛ فقد كان هو الرجل المناسب ... في الوقت الحالي. لا بد أن يكون التركيز مُنصبًّا عليه، وعليه وحده. لا بدَّ من فعل أي شيءٍ مهما كان، وبأي ثمن حتى وإن كان منافيًا للأخلاق والأمانة لتحويل الشبهة بعيدًا عن ذلك الأحمق كوذرستون! هذا إذا لم يكن الأوان قد فاتَ فعلًا. ما جعل مالاليو يسرع في طريقه إلى الشرطة كان رغبته في التأكُّد من أنَّ الأوان لم يفُت بعدُ، ورغبته في أن يكون سبَّاقًا. كان يعرف مكمن قوته؛ فقد كان يتمتع بثقةٍ مطلقة في قُدرته على تدبير الأمور، وقد كان عازمًا على تكريس جهوده في هذه الليلة لتنفيذ المُخطَّط الذي كان يتأجَّج بالفعل في عقله الخصب، عوضًا عن أن تسلك العدالة ما من شأنه أن يَعتبره مسارًا خاطئًا.

بينما كان يجلس صامتًا ويُنصِت باهتمام إلى قصة بينت عن الجريمة، كان مالاليو — الذي كان يتمتَّع بالقدرة على التفكير والاستماع وإيلاء كامل انتباهه لكلتَي العمليتَين العقليتَين دون السماح لإحداهما بأن تُؤثِّر على الأخرى — قد تصوَّر في ذهنه جريمة القتل. كان يَعرف كوذرستون جيدًا؛ لم يكن أي شخصٍ آخر يعرفه بنَفس القَدْر. كان كوذرستون داهيةً، كما كان مالاليو يطلق عليه؛ فقد كان بارعًا وواسع الحيلة ومبدعًا. مما لا شك فيه، أن كوذرستون قد فكَّر مليًّا في الساعات الأولى من المساء في الأمر برمَّته. كان على درايةٍ جيدة جدًّا بعادات ضحيته المحتملة. ويَعرف بالضبط متى وأين يتربَّص بكايتلي. كانت سرقة قطعة الحبل من اللفافة المعلقة على جدار سقيفة هاربورو تصرُّفًا ذكيًّا، بل جهنميًّا، هكذا فكَّر مالاليو، الذي كان يُعجَب إلى حدِّ الولَع الشديد بأي نوعٍ من الذكاء يتوافَق مع مهاراته وأساليبه الخاصة. كان من السهل فعل ذلك، ويا له من أمرٍ بالغ الأهمية! بالطبع كان كوذرستون يعرف كل شيء عن أدوات هاربورو وتجهيزاته؛ فقد كان يمرُّ في كثيرٍ من الأحيان بمنزل جزَّار الخنازير — لا بد وأنه رأى عَبْر سياج الحديقة لفائف الحبال المشحَّمة تتدلى من المسامير التي عُلِّقَت عليها أسفل سقف الشرفة، أجل، لا بدَّ وأنه رآها ألف مرة. وما أسهلَ التسلُّل إلى حديقة هاربورو عَبْر الغابة المُجاورة، وقطْع جزء من الحبل واستخدامه، وتركَه كدليلٍ أول ضد رجلٍ له سجلٌّ عام مشكوك فيه. يا لها من خطةٍ شديدة الذكاء بحق! فقط ليت كوذرستون نجح في التغلُّب على مخاوفه، ولم يَسمح لما يعتمل في ضميره بالظهور على وجهه! ويجب أن يساعد — على الرغم من شعوره ببراءة هاربورو، يجب أن يُوجِّه مسار الأمور ضده؛ فقد كانت حياته بلا قيمة مقابل سلامة مالاليو وكوذرستون.

دخل مالاليو مركز الشرطة ليجدَ أن الرقيب عاد لتوِّه ويتشاور مع المفتش، الذي كان قد استدعاه لسماع تقريره. التفَت كلاهما نحو العمدة بتساؤل.

قال مالاليو وهو يندفع بصخبٍ متقدمًا نحوهما: «لقد سمعتُ كل شيء عما حدث.» وتابع: «أخبَرني السيد بينت. والآن، أين ذلك الحبل الذي يتحدَّثون عنه؟»

أشار الرقيب إلى اللفافة والجزء المقطوع، الذي كان موضوعًا على ورقةٍ بنية كبيرة على طاولةٍ جانبية، تمهيدًا لغلقها بإحكام. عَبَر مالاليو نحو الطاولة وأجرى فحصًا قصيرًا لهذَين الدليلَين؛ ثم التفت إلى المُفتِّش بحزم.

وقال: «هل اتَّخذتم أي إجراء؟»

أجاب المفتش: «ليس بعدُ يا سيدي العمدة.» وأضاف: «كنا نتشاوَر للتوِّ بشأن الإجراء الأفضل.»

أجاب مالاليو: «أظنُّ أن الأمر واضح.» واستطرد: «لا بد أن تبدءوا العمل! يوجد شيئان لا بد أن تقوموا بهما الآن. أولًا، اتَّصلوا هاتفيًّا بنوركاستر، وثانيًا، بمحطة قطارات «هاي جيل». أعطوهما وصف هاربورو؛ فربما يكون قد ذهب إلى مكانٍ أو آخر، ليَهرب بالقطار. واطلبوا منهم في نوركاستر أن يُعيروكم بضعة رجال بملابسَ مدنية عادية، وأن يُرسلوهم إلى هنا على الفور بالسيارة، فلا قطارات آتية حتى الصباح. ثُمَّ أَرسِلوا كل رجالكم إلى الخارج حالًا! وأَبعِدوا الناس عن الدروب في تلك الغابة، وضَعوا مراقبةً على منزل هاربورو، في حال تجرَّأ وعاد إليه — إنه وقحٌ بما يَكفي — وبالطبع، إذا جاء، فسيُلقون القبض عليه. افعلوا كل هذا الآن — على الفور!»

قال المفتِّش: «أتظنُّ إذن أن هاربورو هو الجاني؟»

أجاب مالاليو قائلًا: «أظنُّ أن لدينا ما يُسمِّيه أهل القانون «حال أدلةٍ ظاهرة الوجاهة» ضده.» وتابع: «واجبكم هو القبض عليه على أي حال، وإذا تمكَّن من تبرئة ساحته فيُمكنكم إطلاق سراحه. هيا باشروا اتِّصالاتكم الهاتفية، وكونوا محدَّدين بشأن المساعدة من نوركاستر؛ فعدد العاملين هنا قليل كما هو معروف.»

سارع المفتش بمغادرة مكتبه واستدار مالاليو إلى الرقيب.

وقال: «فهمتُ من السيد بينت أن مدبِّرة منزل كايتلي قالت إنه ذهب إلى البنك ظهر اليوم لسَحب بعض المال! هل هذا صحيح؟»

أجاب الرقيب: «هذا ما قالَتْه، سيادتك.» وأردَف: «ذهب لسَحب معاشٍ أو شيء من هذا القبيل، كان يَسحبه كل ثلاثة شهور. ولكنها لم تكن تعرف كم المبلغ.»

سأل مالاليو: «ولكنَّها تصوَّرتْ أنه كان معه عندما هوجم، صحيح؟»

أجاب الرقيب: «قالت إنه كان من نوعية الرجال الذين دائمًا ما يحملون نقودهم معهم.» وأردَف: «فهمنا منها أن هذه كانت عادته. قالت إنه دائمًا ما كان يحمل معه مبلغًا كبيرًا، كقاعدةٍ عامة. وبالطبع، إن كان قد سحَب أكثر اليوم، فقد يكون من المُمكن أنه كان يحمل الكثير من المال.»

قال مالاليو: «سنَكتشِف ذلك قريبًا.» وأضاف: «سأذهب إلى مدير البنك وأُوقِظه. والآن اجمع رجالك؛ فهذا ليس وقت النوم. لا بدَّ أن تنشر بعض رجالك فوق تلَّة شول الآن.»

قال الرقيب: «لقد تركتُ رجلًا عند كوخ كايتلي يا سيدي، وآخر بالقرب من منزل هاربورو، في حال عودته أثناء الليل.» وأضاف: «لدينا شرطيان آخران بالقرب من المحطَّة. سأُحضرهما.»

أمره مالاليو قائلًا: «افعل هذا الآن.» وأردف: «سأعود بعد قليل.»

هُرع بالخروج مرةً أخرى، وتَوجَّه بسرعة إلى شارع هاي ستريت ومنه إلى المبنى القديم الطراز بالقُرب من مجلس البلدة حيث يُوجد البنك الوحيد الذي كان يخدم البلدة الصغيرة، والذي كان يعيش فيه مدير البنك. كان الشارع خاليًا تمامًا من المارة، وبدا أن صوت قرع جرس باب البنك، والذي صاحبه مالاليو بطَرقٍ صاخب، كانا يُصدِران أصداءَ صوتٍ لا حصر لها. وعلى الرغم من أن مالاليو كان يَعتقِد أنه يتمتَّع بثباتٍ انفعالي لا تؤثِّر فيه مثل هذه الأشياء التافهة، فقد أجفل عندما فُتحَت فجأةً إحدى النوافذ فوق رأسه.

وقف مدير البنك المذهول، الذي كان قد هُرع بالنزول إلى ضيف منتصَف الليل مرتديًا لباس نومه ونعاله، مذعورًا بعدما أدخل العمدة وعرف سبب زيارته.

وقال: «بالتأكيد!» وتابَع: «لقد كان كايتلي في البنك اليوم، وقتَ الظهر تقريبًا، وقد تولَّيتُ أمره بنفسي. كانت تلك هي المرة الثانية التي يأتي فيها إلى هنا منذ مجيئه إلى المدينة. كان قد أتى هنا بعد يوم أو يومَين من استلامه لمنزله لأول مرة من السيد كوذرستون، لصرف كمبيالةِ معاشِه التقاعدي ربع السنوية. عرَّفَني بعد ذلك بنفسه. هل تعرفه؟»

أجاب مالاليو: «على الإطلاق»، وقد كذب بسهولةٍ تامة لأنه كان مُستعدًّا تمامًا للسؤال الذي كانت هذه هي إجابته. وأردَف: «لم أكن أعرف أي شيء عنه.»

قال مدير البنك: «لقد كان محقِّقًا سابقًا.» وتابع: «كان متقاعدًا، بالطبع، وكان يتقاضى معاشًا جيدًا. هذا ما أخبَرني به؛ وأعتقد أنه كان يحصل على معاشه لقاء أربعين عامًا من الخدمة في الشرطة. يا إلهي! كم هذا محزن! ويُؤسفني أن أقول إنني أستطيع أن أخبرك بالمزيد عن ذلك.»

سأَله مالاليو، وقد ظَهرتْ عليه الدهشة ولم يتمكَّن من مغالبة نفسه: «ماذا؟»

قال مدير البنك وهو يهز رأسه: «لقد ذكرتُ هاربورو.»

قال مالاليو: «حسنًا؟» وأردَف: «ماذا إذن؟»

أجاب مدير البنك: «كان هاربورو موجودًا عند شبَّاك الصرَّاف عندما كان كايتلي يتسلَّم نقوده.» وتابع: «كان قد أتى لتغيير ورقةٍ نقدية من فئة الخمسة الجنيهات.»

تبادل الرجلان النظرات في صمتٍ لبعض الوقت. ثم هزَّ مدير البنك رأسه مجددًا.

وتابع: «لا يمكن لأحدٍ أن يتصوَّر أن رجلًا معه ورقةٌ نقدية بقيمة خمسة جنيهاتٍ جاء لتغييرها يُمكن أن يقتل رجلًا آخر من أجلِ ما يُمكن أن يحصل عليه.» وأضاف: «ولكن كايتلي أخذ معه قدْرًا كبيرًا من المال، وكان يرتدي ساعةً وسلسلةً ذهبيتَين قيِّمتَين للغاية، وقد كان مولَعًا بالتباهي بهما في المدينة، و... ماذا؟»

قال مالاليو: «إنه أمرٌ يُثير الريبة.» وتابع: «هل تقول إن هاربورو رأى كايتلي وهو يأخذ نقوده؟»

أجاب مدير البنك: «بلا أدنى شك.» واستطردَ: «كان يقف إلى جانبه. وضع العجوز نقوده من الأوراق النقدية والذهب في جيبٍ داخل صدريته.»

تريَّث مالاليو، كما لو كان يفكر، وهو يَفركُ ذَقَنه ويحدِّق في السجادة. وقال أخيرًا: «حسنًا، ذلك دليلٌ إضافي نوعًا ما.» وأردَف: «يبدو أن وضع هاربورو سيِّئٌ جدًّا.»

أشار مدير البنك قائلًا: «لدينا الأرقام المُسلسَلة للأوراق النقدية التي سلَّمتُها إلى كايتلي.» وتابع: «قد تكون مفيدة عند أيِّ محاولة لصرف أيٍّ منها، كما تعلم.»

هَزَّ مالاليو رأسه.

أجاب: «أجل، إنها كذلك.» وأضاف: «ولكن أظن أنه لن تحدُث أي محاولات ... ليس الآن. إنها مسألةٌ غريبة، أليس كذلك؟ ولكن، كما قلتُ، تُوجد أدلة ضد هذا الرجل، ويجب أن نُحاول القبض عليه.»

خرج بعد ذلك وعَبَر الشارع إلى منزل الطبيب؛ فقد كان يرغب في معرفة كل شيء قَدْر استطاعته أثناء وجوده في الجوار. واستغرق وقتًا أطول بكثير عند الطبيب مما أمضى في البنك، وعندما تركَه كان يَشعر بحَيرةٍ شديدة. وهذا لأنَّ الطبيب قال له ما سبق أن قاله لكوذرستون وبينت وبقية المجموعة في الغابة؛ أنَّ من خنق كايتلي، أيًّا كان، كانت لديه خبرةٌ سابقة في هذا النوع من الأعمال القذرة، أو أنه كان بحارًا لديه خبرة في ربط العُقَد. بحلول ذلك الوقت، كان مالاليو متأكِّدًا أكثر من أي وقتٍ مضى من أن كوذرستون هو القاتل، وكان واثقًا من أن كوذرستون لم يكن لديه أيُّ خبرةٍ في هذا النوع من الأعمال.

وبينما كان يسير عائدًا إلى مركز الشرطة، تمتَم محدثًا نفسه: «لقد نُفِّذَت الجريمة بحركةٍ واحدة فقط!» وأردَف: «أجل، أجل! ذلك يبدو أنه يَعكس معرفةً كافية. ولكن ليس شأني تتبُّع ذلك الآن؛ فأنا أعرف ما شأني، ولا أحد يَعرفه أفضل مني.»

كان المفتش والرقيب يعطيان الأوامر لشرطيَّين ناعسَين عندما انضمَّ مالاليو إليهما. انتظر حتى غادر رجال الشرطة لتنفيذ دورياتٍ في تلة شول، ثم تنحَّى بالمفتش جانبًا.

وقال: «لقد سمعتُ المزيد من الأخبار التي تُدين هاربورو.» وأضاف: «لقد كان في البنك هذا الصباح، أعني صباحَ أمسِ، كما هي الحال الآن، عندما كان كايتلي يسحب أمواله. قد لا يعني ذلك شيئًا ذا بال، وقد يعني الكثير. على أيِّ حال، كان يعلم أن الرجل العجوز كان يحمل معه مبلغًا كبيرًا من المال.»

أومأ المفتش برأسه، ولكنَّ أسلوبه كان مُتشكِّكًا.

وقال: «حسنًا، ذلك دليل، بالطبع؛ مع أخذ الملابسات في الاعتبار.» وأردَف: «ولكنَّك تعلم مثلما أعلم، يا سيدي العمدة، أن هاربورو لم يكن يومًا بحاجة إلى المال. يَعتقد كثيرٌ من أهل البلدة أن لديه ماله الخاص؛ فقد كان دائمًا غامضًا بعض الشيء بقَدْر ما أتذكر. لقد استطاع تحمُّل تكاليف تعليم ابنته تلك تعليمًا جيدًا، كالذي تحصُل عليه أيُّ سيدةٍ شابة، كما أنه ينفق الكثير من المال، ولم أسمع عنه مطلقًا أنه كان مدينًا بأي شيء. إنه غريب الأطوار، بكل تأكيد، ونَعلم أنه صائدٌ غير قانوني، وكلُّ ذلك، ولكنه ماهر جدًّا في ذلك لدرجة أننا لم نتمكَّن من الإمساك به مطلقًا. ليس بوسعي أن أتصوَّر أنه المذنب، ومع ذلك ...»

قاطعه مالاليو قائلًا: «لا يمكنك التهرُّب من الحقائق.» وتابع: «يجب البحث عنه. إذا اختبأ ... إذا لم يعُد إلى المنزل ...»

وافقه المفتِّش قائلًا: «آه، سيكون ذلك ضده بالتأكيد!» وأضاف: «حسنًا، إنني أفعل كل ما في وسعي. أرسلنا رجالنا للبحث عنه، ويُوجد ثلاثة ضباطٍ قادمين من نوركاستر بالسيارة؛ إنهم في طريقهم الآن.»

قال مالاليو: «استَدعِني إن حدث أي شيء.»

سار ببطء إلى المنزل، وعقلُه لا يزال مشغولًا بالاحتمالات المُمكنة. وفي غضون خمس دقائقَ من استيقاظه في ميعاده المعتاد في السادسة صباحًا، كان عقله مشغولًا مرةً أخرى وفضوليًّا. وكونه هو وكوذرستون كانا رجلَي أعمالٍ صارمَين يؤمنان بالإشراف المُستمر على عمَّالهما، فقد اعتادا على الاجتماع في الفِناء في الساعة السادسة والنصف من صباح كل يوم، صيفًا أو شتاءً، وقد كان يتساءل في نفسه عما كان شريكه سيقوله ويفعله، وكيف كان سيبدو.

كان كوذرستون في الفِناء عندما وصل مالاليو. كان يعطي بعض الأوامر إلى سائقِ عربة، وأنهى ما كان يفعله قبل أن يذهب إلى مالاليو. بدا كالمعتاد إلى حدٍّ كبير في ضوء الصباح الباكر الخفيف، ولكن مالاليو لاحظ عليه التعب مُتمثلًا في لونٍ داكن أسفل عينَيه وتَوترٍ مكتوم في صوته. هو نفسه ظل صامتًا ومنتبهًا، وتَرك كوذرستون يتكلم أولًا.

«ماذا، إذن؟» هكذا قال كوذرستون وهو يقترب من مالاليو وهما يقفان في مكانٍ فارغ خارج المكتب. وأردَف: «ماذا؟»

أجاب مالاليو: «ماذا؟»

بدأ كوذرستون في العبث بتململٍ ببعض دفاتر الحسابات والأوراق التي كان قد أحضَرها من منزله. استرق النظر إلى شريكه بمكر؛ بينما نظر إليه مالاليو بثباتٍ وانتباه.

قال كوذرستون بعد فترة صمتٍ محرج: «أظن أنكَ سمعتَ كل شيء عن الأمر، صحيح؟»

أجاب مالاليو بطريقةٍ جافة: «أجل!» وأردف: «أجل، سمعتُ.»

نظر كوذرستون حوله. لم يكن يُوجد أحد بالقرب منه، ولكنه أخفض صوته لدرجة الهمس.

تمتَم، وهو يُلقي نظرةً جانبية أخرى على مالاليو: «ما دام لم يكن أحد غيره يعرف، وما دام لم يَقُل أي شيء لأي شخص، ولا أظن أنه فعل، فنحن ... في أمان.»

كان مالاليو لا يزال يُحدِّق بهدوء في كوذرستون. وبدأ كوذرستون يزداد توترًا في ظل تلك النظرة الثابتة المُتشكِّكة.

قال مالاليو أخيرًا: «أوه!» وتابع: «حقًّا؟ هل هذا ما تظنُّه؟ آه!»

صاح كوذرستون في غضبٍ مفاجئ: «يا إلهي، لا تظنَّ أنت هذا!» وأضاف: «عجبًا ...»

ولكن عندئذٍ، ظهر شرطيٌّ آتيًا من شارع هاي ستريت إلى الفِناء، ورأى الشريكَين، فتوجَّه إليهما وهو يلمس خوذته مُحييًا.

وسأل مالاليو قائلًا: «هل يُمكن لسيادتك أن تأتيَ إلى مركز الشرطة؟» وتابع: «لقد قبضوا على هاربورو، والمفتِّش يَرغب في التحدُّث معك.»

الفصل الثامن

مُحتجَز للدفاع

بدلًا من الردِّ على الشرطي قولًا أو فعلًا، نظر مالاليو نظرةً خاطفة إلى كوذرستون. كان ثَمَّةَ إيحاءٌ غريب في تلك النظرة لم يُعجِب كوذرستون. كان غاضبًا بالفعل، ولكن نظرة مالاليو المتسائلة جعلَتْه أشد غضبًا.

سأله مالاليو باقتضاب: «هل تَودُّ مرافقتي؟»

أجاب كوذرستون مستديرًا نحو المكتب: «لا!» وأردَف: «لا شأن لي بذلك».

عَبَر الأبواب واختفى، وخرج مالاليو من الفِناء إلى شارع هاي ستريت، ليصادف بينت وبريريتون، اللذَين كانا يُهْرعان نحو مركز الشرطة بصحبة شرطيٍّ آخر.

قال مالاليو عندما التقَوا: «آه!» وأضاف: «إذن فقد سمعتما بالأمر أيضًا على ما أظن، أليس كذلك؟ أعني سمعتُما أنه قد قُبِض على هاربورو. والآن، أخبرني كيف قُبضَ عليه؟» هكذا تابع، ملتفتًا إلى الشرطي الذي استدعاه. وأردَف: «ومتى، وأين؟ أخبرنا.»

أجاب الشرطي: «لم يُقبَض عليه سيادتك.» وأردَف: «ليس بالطريقة المعتادة على الأقل. لقد عاد إلى منزله قبل نصف ساعة أو نحو ذلك، عندما بدأ ضوء الشمس في البزوغ، وأخبره اثنان من رجالنا الموجودين هناك بما يَجري، وقد بدا أنه ذهب معهما على الفور. إنه يقول إنه لا يعرف شيئًا يا سيدي.»

علَّق مالاليو بفظاظة: «هذا هو المتوقَّع.» وتابع: «سيكون أحمقَ إن قال أي شيء غير ذلك.»

وضع إبهامَيه في فتحتَي الذراع في صدريته، ودخل مركز الشرطة يمشي الهُوينَى ويتبعه الآخرون، كما لو كان في زيارة تخص مسألةً تافهة. ولم يكن يُوجد أي شيء في قسم الشرطة يدل على وجود قصةٍ درامية عن الحياة والموت تتشَكَّل في ذلك المكان الرسمي المظهر بجدرانه ذات الألوان المحايدة وأثاثه المُحدَّد وأجواء القمع التي تسود جنباته. وقف

ثلاثة أو أربعة رجال بالقُرب من مكتب المفتش؛ وكان أحد رجال الشرطة يكتب ببطء ومشقة على ورقةٍ كبيرة من الورق الأزرق على طاولةٍ جانبية، وامرأة تُحاول أن تَزيد من اشتعال نار مدفأةٍ خاملة.

سُمِع صوت رجل يقول بتهكُّم: «المسألة كلها سخيفة!» وأردف: «لن يَستغرِق الأمر أكثر من خمس ثوانٍ لإدراك ذلك.»

تعرَّف بريريتون بطريقةٍ غريزية على هُويَّة المتحدِّث. كان ذلك هو هاربورو، بالطبع؛ الرجل الطويل الذي كان يقف في مواجَهة الآخرين وينظر إليهم كما لو كان يتساءل كيف يُمكن أن يكونوا حمقى هكذا، وقد كان واضحًا أنه يَعتبرهم كذلك. نظر بريريتون إلى هذا الرجل بفضولٍ كبير. ورأى أنه كان ثَمَّةَ شيءٌ لافت للنظر فيه بلا أدنى شك. كان رجلًا نحيلًا، مُنتبهًا، حادَّ النظر، ذا ملامحَ وسيمة تُشبه ملامح الغجر إلى حدٍّ ما، وبشرةٍ مُسْمرَّة جدًّا بفعل الطقس، كما لو كان دائم التعرُّض للشمس والرياح والمطر والبرد؛ وكان حاد الحركة، وكان واضحًا أن ذكاءه يفوق الذكاء العادي، وعلى الرغم من ملابسه الخشنة وقبَّعته المصنوعة من الفِراء، كان يوحي بصورةٍ لا يُمكن تحديدها بالتهذيب والنُّبل. كان بريريتون قد لاحظ بالفعل تغيُّر حدة صوته ونبرته؛ والآن وهو يلمس قبعَّته لتحية العُمدة، لاحظ أن يدَيه، على الرغم من خشونتهما وسمرتهما بسبب التعرُّض للطقس، كانتا جيدتَي الشكل ورقيقتَين. بدا أن شيئًا ما في طريقته، ونظرة عينه، يُشير إلى أنه كان يفوق رجال الشرطة في المكانة الاجتماعية، سواء من كانوا يرتدون الزي الرسمي أو من يرتدون ملابسَ مدنية، والذين كانوا يراقبونه بنظراتٍ فضولية ومرتبكة بعض الشيء.

قال مالاليو وهو يتوقَّف وينظر حوله: «حسنًا، ما كل هذا؟» وتابع: «ماذا الذي لديه ليقوله؟»

نظر المفتِّش إلى هاربورو وأومأ برأسه. وفسَّر هاربورو هذه الإيماءة بمعناها الحقيقي، وتحدَّث دون تردُّد.

«هذا!» قال، ملتفتًا إلى الوافدين الجدد، وأخيرًا خاطب مالاليو. وأردَف: «وهذا هو ما قلتُه بالفعل للمفتِّش هنا. لا أعرف شيئًا عما حدث لكايتلي. لا أعرف عن قَتْله أكثر مما تعرف ... يتعيَّن عليَّ أن أقول إنني لا أعرف الكثير؛ لأنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق أكثر مما قيل لي. لقد غادرتُ منزلي في الساعة الثامنة مساءَ أمسِ، وغِبتُ طَوالَ الليل، ثم عُدتُ اليوم في الساعة السادسة صباحًا. وبمجرَّد أن سمعتُ بما يجري، أتيتُ إلى هنا مباشرةً.

أقول لك يا سيدي العمدة، إن كنتُ قد قتلتُ هذا الرجل العجوز، هل تظنُّ أنني كنتُ سأعود؟ هل هذا مُحتمَل؟»

أجاب مالاليو: «ربما فعلتَ، كما تعلم.» وأضاف: «لا يُوجد تفسير لما سيفعله الناس في مثل هذه الحالات. ولكن ... ماذا أيضًا؟ قل ما تشاء، فكل هذا غيرُ رسمي.»

تابع هاربورو قائلًا: «حسنًا!» وأردَف: «لقد أخبروني بأن الرجل العجوز قد خُنِقَ بقطعة حبل، من الواضح أنها قُطعَت من إحدى لفافاتي. والآن، هل يُوجد أي رجلٍ عاقل سيُصدِّق أنني لو ارتكبتُ هذه الجريمة، سأترك ورائي دليلًا واضحًا كهذا؟ أنا لست أحمق!»

أشار مالاليو: «ربما تكون قد قُوطعتَ قبل أن تتمكَّن من نزع ذلك الحبل عن رقبته.»

صاح هاربورو وهو يرمق الواقفين بنظرةٍ حادة: «أجل، ولكن عليك أن تحسب احتمالات حدوث ذلك! والاحتمالات كلها في صالحي. لا يا سيدي! أيًّا كان من ارتكب هذه الفعلة، فقد قطع هذا الحبل الطويل من لفافتي — وهو ما يُمكن لأي شخصٍ الوصول إليه — واستخدمه لجعلي موضع شبهة! تلك هي الحقيقة، وستَكتشفها يومًا ما، بصرف النظر عما يحدث الآن.»

تبادل مالاليو النظرات مع المفتش ثم واجه هاربورو بحزم وبثقةٍ جذابة.

وقال، بنبرة كادت أن تنطوي على تملُّق: «حسنًا، يا عزيزي!» وتابع: «يتعيَّن فعل شيءٍ بسيط للغاية، وسوف يُوضِّح هذه المسألة فيما يخصك. فقط أجب على سؤالٍ بسيط. أين كنتَ طَوالَ الليل؟»

حلَّ صمتٌ متوتِّر، لم يقطعه سوى صوتِ طقطقة الخشب في موقد المدفأة، التي كانت الخادمة قد نجحَت أخيرًا في إشعال جذوة نيرانها الخامدة، وصوتِ قعقعة حديدِ عصِيٍّ تحريك النار التي كانت تُرتِّبها الآن في سياج المدفأة. كان الجميع يراقبون المشتبه به، ولكن لم يراقبه أيٌّ منهم بمثل اهتمام بريريتون. شعر بريريتون بمأزقٍ وشيك. ارتسمَت نظرةٌ غريبة من العناد والصلابة في عينَي هاربورو، وهَزَّ رأسه.

وأجاب قائلًا: «لا!» وأردَف: «لن أقول! ستَظهر الحقيقة في الوقت المُناسب دون أن أفصح عن ذلك. من غير الضروري لي أن أقول. أين كنتُ خلال الليل هو شأني أنا، وليس شأن أي أحدٍ آخر.»

سأله مالاليو: «لن تُفصح؟»

أجاب هاربورو: «لن أفصح.»

قال مالاليو: «أنت في خطر، كما تعلم.»

أجاب هاربورو بإصرار وعناد: «في رأيكَ أنت.» وأضاف: «ليس في رأيي أنا! يُوجد قانونٌ في هذا البلد. يمكنك القبض عليَّ، إن شئتَ، ولكن لا بدَّ أن تَشرع في عملك لتُثبِت أنني قتلتُ كايتلي العجوز. لا يا سيدي! ولكن ...»، وهنا توقَّف عن الكلام ونظر حوله، ثم ضحك بطريقةٍ تكاد تكون خبيثة، وتابَع. «ولكنَّني سأخبركَ بما سأفعله. سأُخبرك بشيء، إن كان في هذا أي نفعٍ لك؛ لو شئتُ أن أقول تلك الكلمة، يمكنني أن أثبت براءتي التامة! هه!»

سأله مالاليو: «ولكنك لن تقول تلك الكلمة، أليس كذلك؟»

«بلى، لن أقولها! لماذا؟ لأنها غير ضرورية. عجبًا!» هكذا أجاب هاربورو ضاحكًا وعلى وجهه تعبير احتقارٍ صريح. وتابع: «ماذا لديكم ضدِّي؟ لا شيء! كما قلت، يُوجد قانون في هذا البلد، يُوجد قضاة. هل تعتقد أن أي قاضٍ سيدين رجلًا بما لديكم؟ إنه محضُ هُراء!»

كان الشرطي الذي نزل من تلة شول مع بينت وبريريتون يحاول جذب انتباه المفتش لبعض الوقت. وبعد أن نجح في محاولاته أخيرًا، أشار له نحو ركنٍ هادئ من الغرفة، وأدار ظهره إلى المجموعة الواقفة بالقرب من المِدفأة، وأخرج شيئًا من جيبه. انحنى الرجلان يفحصان ما أخرجه، وبدأ الشرطي يتحدث همسًا.

في هذه الأثناء، كان مالاليو يُحدِّق في هاربورو بخلسة وثبات كعادته. بدا وكأنه يحسب حسابه.

وأشار أخيرًا: «حسنًا يا عزيزي.» «إنك تَرتكب خطأ. إن كنتَ لا تستطيع أو لا تريد إخبارنا بما كنتَ تفعله بين الساعة الثامنة مساء أمسِ والسادسة من هذا الصباح، إذن ...»

عاد المفتش، ممسكًا بشيء في يده. ونظر هو أيضًا إلى هاربورو.

وسأله: «هل يمكنكَ أن ترفع قدمكَ اليسرى؟ اقلب النعلَ لأعلى.» وأضاف: «أريد رؤية شيءٍ ما فحسب.»

امتثل هاربورو بسرعة، ولكن بنفاد صبر واحتقارٍ واضح. وعندما أظهر نعل القدم اليُسرى، فتح المفتِّش يده كاشفًا عن قطعةٍ صغيرة من الفولاذ اللامع على شكل هلال.

وقال: «تلك سقطَت من مُقدِّمة حذائك ذي الرَّقبة العالية عند إصبع القدم يا هاربورو.» وتابع: «أنت تعلم هذا! وقد عُثِر عليها والتُقطَت للتو، من مكان الجريمة.

لا بد أنكَ قد فقدتها هناك خلال الساعات القليلة الماضية؛ لأنها لامعة جدًّا، وتخلو من أيِّ ذرة صدأ، كما ترى. فما هو قولك في ذلك؟»

رد هاربورو بتحدٍّ: «لا شيء!» وأردف: «إنها مِلكي بالطبع، فقد لاحظتُ أنها كانت غير ثابتة بالأمس. وإذا عُثِرَ عليها في الغابة، فماذا في ذلك؟ لقد مررتُ عَبْر الغابة في الليلة الماضية في طريقي إلى ... إلى حيث كنتُ ذاهبًا. يا إلهي، لعلك لا تقصد أنك ستُحدِّد مصير إنسان بناءً على أشياءَ صغيرة من هذا القبيل!»

أشار مالاليو إلى المفتِّش وتنحَّى به جانبًا وتحدَّث معه. وعلى الفور تقريبًا، استدار وغادر الغرفة، بينما عاد المفتِّش إلى المجموعة المجتمعة بجوار المدفأة.

وقال: «حسنًا، ما بيدَيَّ حيلة، يا هاربورو.» وأضاف: «يتعيَّن علينا أن نحتجزك، وعليَّ أن أوجِّه إليك التُّهمة الآن. لا مفرَّ من ذلك، وآمل أن تتمكَّن من تبرئة ساحتك.»

أجاب هاربورو: «لم أكن أتوقَّع أي شيءٍ آخر.» واستطرد: «أنا لا ألومك، ولا ألوم أيَّ أحد. سيد بينت»، تابع، مُلتفتًا إلى حيث كان بينت وبريريتون واقفَين متباعدَين بعض الشيء. وأردَف: «سأكون مدينًا لك إن أسديتَني خدمة. اذهب وأخبر ابنتي بما حدث، إذا سمحتَ! فكما ترى، لقد جئتُ إلى هنا مباشرة، ولم أذهب إلى منزلي بعدما عُدتُ. إن كنتَ لا تُمانع، فاذهب سريعًا وأخبرها، واطلب منها ألا تخاف؛ فلا يُوجد ما يدعو للخوف، كما ستَكتشف وكما سيكتشف الجميع.»

قال بينت: «بالتأكيد.» وأردَف: «سأذهب حالًا.» وربَّت على ذراع بريريتون وقاده إلى الشارع. وسأله بعدما خرجا: «حسنًا؟» وتابع: «ما رأيك في ذلك، الآن؟»

علَّق بريريتون، بتفكيرٍ عميق: «ذلك الرجل يُعطي المرء كل إيحاء بالبراءة، ومن مجرد مراقبتي السريعة له، يتعين عليَّ، أنا شخصيًّا، أن أقول إنه بريء. ولكن كما تعلم، لقد رأيتُ أكثر المجرمين صلابةً ومكرًا وهم يدَّعون البراءة، ويواصلون الادِّعاء حتى النهاية. ومع ذلك، ليس ذلك هو ما يعنينا الآن؛ فالنقطة الحاسمة هنا، فيما يخص هاربورو، على أي حال، هي الأدلة التي تدينه.»

سأل بينت: «وما رأيك في ذلك؟»

أجاب بريريتون: «يُوجد ما يكفي لتبرير اعتقاله وحبسه، وسيتعرَّض للمحاكمة. كل هذا مؤكَّد، ما لم يكن رجلًا متعقلًا، ويخبرنا بما كان يفعله بين الساعة الثامنة والعاشرة مساءَ أمسِ.»

قال بينت: «آه، ولماذا لا يفعل؟» وأردَف: «لا بد أن لديه سببًا وجيهًا. أتساءل عما إن كان بوسع ابنته أن تُقنعه ...»

سأل بريريتون: «أليست تلك القادمة نحونا هي ابنته؟»

نظر بينت على امتداد الطريق ورأى أفيس هاربورو تبعُد عنهما بمسافةٍ قصيرة، وتمضي مسرعةً في اتجاههما وهي تتحدَّث بجدية إلى رجل في منتصف العمر كان من الواضح أنه يستمع باهتمامٍ شديد لما تقوله.

أجاب: «أجل، إنها هي، وذلك الذي معها هو نورثروب؛ الرجل الذي كان مالاليو يلعب الورق معه الليلة الماضية. إنها مربية طفلَي نورثروب الأصغر ... أتوقع أنها قد سمعَت عما حدث لوالدها، وذهبَت لتجعل نورثروب يأتي معها؛ فهو قاضٍ.»

استمعَت أفيس بنفاد صبر عَجزَت عن إخفائه لبينت وهو يخبرها بالرسالة التي يحملها. وقد كرَّر مرتين وصية هاربورو لها ألا تخاف، فازداد نفاد صبرها.

وأجابت: «لستُ خائفة.» وأضافت: «أعني أنني لا أخاف من أي شيءٍ سوى عناد والدي! أنا أعرفه. وأعرف أنه إن قال إنه لن يقول شيئًا عن مكانِه الليلة الماضية، فلن يفعل! وإن كنتَ تريد مساعدته — مثلما يبدو لي — فيجب أن تُدرك ذلك.»

اقترح بريريتون قائلًا: «ألن يُخبركِ أنت؟»

هزت الفتاة رأسها نفيًا.

وأجابت: «إنه يغيب مرةً أو مرتَين في السنة لليلةٍ واحدة، مثلما حدث، ولا أعرف أبدًا، ولم أعرف قط، إلى أين يذهب. ثَمَّةَ لغزٌ ما فيما يتعلَّق بهذا الأمر، أنا أعرف ذلك. لن يقول شيئًا — سيترك الأمور تمضي حتى النهاية، وحتى عندئذٍ لن يقول. لن تكون قادرًا على مساعدته بتلك الطريقة؛ تُوجد طريقة واحدة فقط يمكنك مساعدته بها.»

سألها بينت: «وما هي؟»

صاحت أفيس وهي تنظر نظرةً سريعة نحو بريريتون: «اعثُر على القاتل!» وتابعَت: «أبي بريء مثلي؛ اعثُر على الرجل الذي فعلَها وبهذا تُبرِّئه. لا تنتظر ما سيفعله رجال الشرطة هؤلاء، فهم سيُضيِّعون الوقت على والدي. افعل شيئًا! كلهم يَسلُكون المسار الخطأ، فليسلك أحد ما المسار الصحيح!»

قال نورثروب، الذي كان رجلًا ضئيل الحجم ذا وجه يَشي بالذكاء، وبدا منزعجًا بحق: «إنها محقَّة!» وأضاف: «أنت تعرف حال الشرطة يا سيد بينت؛ إذا تملَّكَتهم فكرةٌ ما، فلن ينصتوا لأي أفكارٍ أخرى. بينما هم يركزون على هاربورو، كما تعلم، سيكون المجرم الحقيقي حرًّا طليقًا يهزأ بهم على الأرجح.»

سأل بينت: «ولكن ... ما الذي يُمكننا فعله؟» وأردف يسأل: «من أين نبدأ؟»

صاحت أفيس قائلة: «اجمع معلوماتٍ عن كايتلي نفسِه!» وأضافت: «مَن يعرف أي شيء عنه؟ ربما كان لديه أعداء؛ وربما تعقَّبوه إلى هنا. اكتشِف ما إذا كان يُوجد أي دافع!» صمتَت قليلًا ونظَرتْ إلى بريريتون نظرةً تمزج بين الجاذبية والتمعُّن. وأردَفتْ: «سمعتُ أنك محامٍ، محامٍ بارع»، تابعَت بقليل من التردُّد. وقالت: «ألا ... ألا يُمكنك أن تقترح أي شيء؟»

أجاب بريريتون باندفاع: «ثَمَّةَ شيء سأقترحه فورًا.» وتابع: «أيًّا كان ما سنفعله، يجب أن يُدافع أحدٌ ما عن والدك. سأُدافع عنه، بأفضلِ ما في وسعي، إن سمحتِ لي، ودون أن يتكبد أي تكاليف.»

صاح نورثروب: «لا فُضَّ فُوكَ يا سيدي!» وأردَف: «ذلك هو الأسلوب الصحيح!»

تابع بريريتون مبتسمًا لحماس الرجل الضئيل: «ولكن لا بد أن نلتزم بالقواعد القانونية.» وأضاف: «يجب أن تذهبي إلى كاتبِ عدلٍ وتطلُبي منه أن يُكلِّفني بالقضية؛ إنه مجرَّد إجراء شكلي. سيأخذك السيد بينت إلى كاتب العدل الخاص به، وسيُقابلني. عندئذٍ يمكنني الحضور على النحو اللائق عندما يَمثُل والدك أمام القضاة. اسمع يا بينت»، تابع، رغبةً منه في أن يمنع الفتاة من إظهار أي تعبير عن الامتنان، «خذ الآنسة هاربورو إلى كاتب العدل الخاص بك، وإن لم يكن مُستيقظًا، فأيقظه. أخبره بما أعرض فعله، وحدِّد لي موعدًا معه. والآن اذهَبا سريعًا، كلاكما؛ أريد التحدُّث إلى هذا السيد دقيقةً واحدة.»

أمسك بذراع نورثروب، وأداره في اتجاه تلة شول، وسارا بضع خطوات، ثم وجَّه إليه سؤالًا مباشرًا.

«والآن، أخبرني، ماذا تعرف عن هذا الرجل المدعو هاربورو؟»

أجاب نورثروب: «إنه رجل غريب الأطوار؛ إنه غامض يا سيدي.» وأردف: «إنه متعدِّد المهارات والمهن نوعًا ما. وهو شخصٌ لطيف ومهذب؛ إذا سمعته يتحدث، فستقول إنه كان رجلًا نبيلًا. يُمكنك أن ترى حال ابنته؛ لقد علَّمها تعليمًا جيدًا. لديه مصادرُ دخلٍ أخرى، ليس لها علاقة بما يكتسبه من مال. أجل، ثَمَّةَ لغزٌ ما فيما يتعلق بذلك الرجل، يا سيدي، ولكنني لن أُصدِّق أبدًا أنه ارتكب هذه الجريمة. إطلاقًا يا سيدي!»

أشار بريريتون: «إذن يجب علينا التصرُّف بناءً على اقتراح ابنته، وأن نتوصل إلى الجاني.» وأضاف: «ثَمَّة قَدْرٌ كبير من الغموض يكتنف تلك المسألة بقَدْر ما يحيط بهاربورو نفسه من غموض.»

وافَق نورثروب قائلًا: «غموضٌ تام، يا سيدي!» وأردَف: «إنه أمرٌ غريب؛ فقد جئتُ عَبْر الغابة على تلَّة شول هناك في حوالي العاشرة والربع ليلة أمسِ؛ كنتُ أعبُر إلى الجانب الآخر لأزور أحد رجالي لمرضه الشديد. ولم أسمع أو أرَ أيَّ شيء مطلقًا، ولكن، صحيح أنني كنتُ على عجَلةٍ من أمري؛ إذ كنتُ على موعد مع العمدة لِلَعب الـ «ويست» في منزلي في الساعة العاشرة مساءً، وظننتُ أنني تأخَّرت. لم أسمع صوتًا مطلقًا ... ولا حتى طقطقة انكسار غُصينٍ يابس! ولكن، كان من الممكن أن يكون قبل ذلك ... في وقتٍ ما.»

وافقَه بريريتون القول: «أجل، في وقتٍ ما.» وأردَف: «حسنًا، سأراك في المحكمة بلا شك.»

استدار عائدًا، وتَبِع بينت وأفيس اللذَين كانا بعيدَين، وهو يُراقِبهما بتمعُّن.

فكَّر في نفسه قائلًا: «في وقتٍ ما؟» وتابَع: «هممم! حسنًا، أنا على درايةٍ الآن بتحركاتِ اثنَين من سكان هاي ماركت في وقتٍ حَرِج من ليلة أمس. لم يذهب مالاليو للَعِب الورق مع نورثروب حتى الساعة العاشرة مساءً، وفي تمام الساعة العاشرة مساءً، عاد كوذرستون إلى بيته بعد غيابه لساعةٍ واحدة.»

الفصل التاسع

سجلٌّ جنائي

خلال الفترة المنقضية بين أحداث الصباح الباكر هذه، وعرض هاربورو أمام قُضاة البلدة في محكمةٍ مكتظَّة، عقد بريريتون عزمه بشأن ما سيفعله. عزَم على أن يتصرَّف بناءً على اقتراح أفيس هاربورو، وأثناء مراقبة مسار الأمور نيابةً عن المشتبه به، سيكتشف كل ما يمكنه اكتشافه بشأن القتيل. في تلك اللحظة، على حدِّ علم بريريتون، كان شخصٌ واحد فقط في هاي ماركت يُحتمَل أنه يعرف أي شيء عن كايتلي، وقد كان هذا الشخص، بالطبع، هو مُدبِّرة منزله الغريبة المظهر. وبناءً على ذلك قرَّر، حتى في تلك المرحلة المبكِّرة من الإجراءات القضائية، أن يضع الآنسة بيت على منصَّة الشهود.

لم يَمثُل هاربورو، الذي كان قد اعتُقِل رسميًّا ووجَّهَت إليه الشرطة الاتهام بعد المحادثة التي جرت في مركز الشرطة، أمام المحكمة حتى الساعة الحادية عشرة، وبحلول ذلك الوقت كانت المدينة كلها والحي بأكمله في حالٍ من الإثارة. ومما أدهش بريريتون نوعًا ما، أن محامي الادِّعاء، الذي كان قد استُدعي على عجلٍ من نوركاستر وبُلِّغ بتفاصيل القضية في الطريق، انغمس تمامًا في القضية أكثر مما كان معتادًا. لقد توقَّع بريريتون أن تطلُب الشرطة تأجيل الجلسة بعد تقديم الأدلة المعتادة للحقائق الظاهرية، وللقبض على السجين؛ ولكن بدلًا من ذلك، استدعى الادِّعاء عدة شهود، من بينهم مدير البنك، الذي قال إنه عندما صرف لكايتلي حوالته في صباح اليوم السابق، في حضور هاربورو، أعطى كايتلي نصف ماله بعملاتٍ ذهبية. ظهَرتْ أهمية هذا الدليل على الفور؛ إذ تلا شرطيٌّ مدير البنك في الشهادة وشهد أنه بعد تفتيش السجين بعد القبض عليه، وَجَدَ معه أكثر من عشرين جنيهًا ذهبيًّا ونصف جنيهٍ ذهبي، موضوعة في حقيبةٍ جلدية من الشمواه.

أدرك بريريتون على الفَور الانطباع الذي أحدثَه هذا الدليل. فقد رأى أنه أحدث تأثيرًا كبيرًا على نصف دُزَينة الرجال الأقوياء والبطيئي الفهم الذين جلسوا على جانبَي مالاليو على مِنصَّة القضاء؛ وشعَر بجوٍّ الشك الذي أحدَثه في المحكمة. ولكنه لم يفعل شيئًا؛ فقد عرف بالفعل ما يكفي من أفيس بعد التشاور معها ومع محامي بينت، ليعلم أنه سيكون من السهل جدًّا أن يُثبت لأيِّ هيئة محلَّفين أنَّ حَمْل هاربورو لعشرين أو ثلاثين جنيهًا ذهبيًّا لم يكن أمرًا غير مُعتادٍ عليه. لم يُوجِّه بريريتون إلى كل هؤلاء الشهود أي سؤال تقريبًا، ولكنه أوضح أنه عندما التقى شرطيان بهاربورو بالقرب من كوخه في فجر ذلك الصباح، وأبلغاه بما حدث، أعرب عن دهشته الشديدة، وسَخِر من فكرة أن يكون له أي صلةٍ بجريمة القتل، ودون التوجُّه إلى منزله، عرض طواعيةً الذهاب مباشرةً إلى مركز الشرطة.

ولكن عندما اعتلَت الآنسة بيت — التي كانت قد تخلَّت عن عمامتها الحمراء والصفراء، وظهَرتْ في ثيابٍ سوداء باهتة أبرزَت اللون العاجي لوَجهها العجوز المميز — مِنصَّة الشهود وأجابت على بضعة أسئلةٍ عادية متعلِّقة بتحرُّكات القتيل في مساء اليوم السابق، استعد بريريتون للجزء الذي كان يَعرف أنه مُهم. ووسَط صمتٍ عميق — إذ أوحى شيءٌ ما للجميع أن صديق السيد بينت اللندني بادي الأناقة كان على وشك البدء في التعمُّق في الأمور — طَرَح سؤاله الأول على السيدة بيت.

«منذ متى وأنتِ تعرفين السيد كايتلي؟»

أجابت الآنسة بيت قائلة: «منذ أن بدأتُ التعامل معه بصفتي مدبِّرة منزله.»

سأل بريريتون: «منذ كم من الوقت؟»

«منذ تسع إلى عشر سنوات؛ قرابة عشر سنوات.»

«هل عملتِ لديه مدبِّرة منزلٍ ما يقرب من عشر سنوات ... بصفة مستمرة؟»

«لم أتركه منذ مجيئي إليه أول مرة.»

«أين ذهبتِ إليه أول مرة ... أين كان يقطن في ذلك الوقت؟»

«في لندن.»

«أجل، أين في لندن؟»

«في ٨٣ أكاسيا جروف، كيمبيرويل.»

«عشتِ مع السيد كايتلي في ٨٣ أكاسيا جروف، كيمبيرويل، منذ أصبحتِ مدبِّرة منزله حتى الآن؛ أي قرابة عشر سنوات في المجمَل. أيُمكننا إذن أن نعتبر أنكِ كنتِ تَعرفين السيد كايتلي حق المعرفة؟»

أجابت الآنسة بيت بتجهُّم: «بقَدْر ما كان أي شخصٍ آخر يعرفه.» وأردفَت: «فهو لم يَكن من النوعية التي يَسهُل معرفتها.»

تابع بريريتون، مُركِّزًا نظرته على ملامح السيدة بيت الفضولية: «ومع ذلك، فقد عرفتِه لعشرة أعوام. من كان السيد كايتلي؟ وماذا كان عمله؟»

دقَّت الآنسة بيت بأصابعها داخل القفَّاز الأسود على حافةِ منصة الشهود وهزَّت رأسها.

وأجابت: «لا أعرف.» «وأضافت: «لم أعرف أبدًا.»

«ولكن لا بد أن لديكِ فكرةً، فكرةً ما عنه ... بعد معرفة استمرَّت عشر سنوات! بربكِ! ما الذي كان يفعله في لندن؟ ألم يكن لديه عمل؟»

أجابت الآنسة بيت: «كان لديه عمل.» وتابعت: «كان يَغيب معظم اليوم ويقضيه فيه. ولكني لا أعرف ماذا كان.»

«ألم يذكُره لكِ مطلقًا؟»

«ولا مرة.»

«ألم تُكوِّني أي فكرة عنه؟ على سبيل المثال، هل كان يجعله يَغيب عن المنزل في ساعات العمل العادية؟»

«لا، لم يكن يفعل. أحيانًا كان يغادر مبكرًا جدًّا، ومُتأخرًا في أحيانٍ أخرى، وفي بعض الأيام لم يكن يغادر مطلقًا. وأحيانًا كان يغادر ليلًا، ويغيب لعدة أيامٍ متتالية. لم أسأله مطلقًا عن أي شيء بالطبع.»

«أيًّا كان عمله، فقد تقاعد منه في النهاية، صحيح؟»

«أجل، قبل مجيئنا إلى هنا مباشرةً.»

«هل تعرفين لماذا جاء السيد كايتلي إلى هنا؟»

أجابت قائلةً: «حسنًا، لقد كان يقول دائمًا إنه يُريد بيتًا صغيرًا لطيفًا في الريف، ويُفَضَّل أن يكون في الشمال. جاء إلى هنا لقضاء عطلة منذ بضعة أشهر، وعندما عاد قال إنه قد وجد المنزل والحي المناسبَين تمامًا؛ لذا، بالطبع، انتقلنا للعيش هنا.»

«ومنذ متى وأنتِ هنا؟»

«ما يزيد قليلًا عن ثلاثة أشهر.»

صمت بريريتون للحظة أو لحظتَين قبل أن يطرح سؤاله التالي، والذي صاحبتْه نظرةٌ فاحصة أخرى إلى الشاهدة.

«هل تعرفين أي شيء عن علاقات السيد كايتلي؟»

أجابت الآنسة بيت: «لا!» وأردفَت: «لسببٍ بسيط. كان يقول دائمًا إنه ليس لديه أي علاقات.»

«ألم يزُرْه من قبلُ أي أحد يدَّعي أنه قريبه؟»

«ليس خلال السنوات العشر التي عرفتُه فيها.»

«هل تظنِّين أنه كان لديه ممتلكاتٌ أو أموال قد يتركها لأي شخص؟»

بدأت الآنسة بيت تعبث بوشاح الفرو الذي كان يتدلى من رقبتها الرفيعة.

أجابت بتردُّد: «حسنًا، أجل، قال إنه كان لديه.»

«هل سَمعتِه من قبلُ يقول ماذا سيَحدث لهذا المال عند وفاته؟»

نظَرتِ الآنسة بيت حولها في أرجاء المحكمة وابتسمَت قليلًا.

وأجابت بقَدْرٍ كبير من التردُّد: «حسنًا، لقد كان ... كان يقول دائمًا إنه بما أنه لم يكن لديه أقارب، فسيَتركها لي.»

انحنى بريريتون قليلًا عَبْر الطاولة باتجاه منصة الشهود وأخفض صوته.

وسألها قائلًا: «هل تعرفين أن كان السيد كايتلي قد كتب وصية؟»

أجابت السيدة بيت: «أجل.» وأردفَت: «لقد فعل.»

«متى؟»

«قبل مغادرتنا لندن مباشرةً.»

«هل تعرفين محتويات تلك الوصية؟»

قالت الآنسة بيت: «لا!» وأضافت: «لا أعرف، ولا أهتم!»

«هل شهدتِ عليها؟»

«لا، لم أفعل.»

«هل تعرفين مكانها؟»

«أجل، أعرف.»

«أين هي؟»

أجابت الآنسة بيت: «مع ابن أخي.» وأردفَت: «إنه محامٍ، وهو من كتبها.»

سألها بريريتون: «ما اسم ابن أخيكِ وعنوانه؟»

على الفور، أجابت الآنسة بيت: «السيد كريستوفر بيت، ٢٣ بي شارع كورسيتور.»

«هل أعلمتِه بوفاة السيد كايتلي؟»

«أجل. كان أول ما فعلتُه هذا الصباح أنني أرسلتُ إليه برقية.»

«تطلبين منه إحضار الوصية؟»

صاحت السيدة بيت بسخط، قائلةً: «لا، لم أفعل.» وأضافَت: «لم أذكُر أي شيء عن الوصية. كان السيد كايتلي مُولعًا بابن أخي؛ فقد كان يعتبره شابًّا شديد الذكاء.»

علَّق بريريتون قائلًا: «سنَسعد، بلا شك، برؤية ابن أخيكِ عما قريب.» وتابع: «حسنًا، الآن أريد أن أطرح عليكِ سؤالًا أو سؤالَين عن نفسكِ. ماذا كان عملكِ قبل أن تُصبحي مدبرة منزل السيد كايتلي؟»

أجابت بطريقة فظة: «مدبِّرة منزل سيدٍ آخر!»

«من كان هذا السيد؟»

«حسنًا، إن كنتَ تريد أن تعرف، كان الرائد ستيلمان، ضابطٌ متقاعد ... ومع ذلك، ما علاقة ذلك ...»

«أين كان يعيش الرائد ستيلمان؟»

أجابت السيدة بيت، التي ظَهرتْ عليها حينئذٍ بوادر غضبٍ مُتصاعد: «كان يعيش في قندهار كوتيدج، ووكينج.» وأردفَت: «ولكن ...»

قال بريريتون: «أجيبي على أسئلتي، من فضلكِ، ولا تُدلي بأي تعليقات.» وأضاف: «هل الرائد ستيلمان ما زال على قيد الحياة؟»

أجابت قائلة: «لا، مات منذ عشر سنوات.» وأردفَت: «وإن كنتَ ستطرح عليَّ المزيد من الأسئلة حول هُويَّتي وعملي، أيها الشاب، فسأُوفِّر عليك العَناء. لقد قضيتُ سنواتٍ عديدة مع الرائد ستيلمان، وقبل ذلك كنتُ أمينة مخزن في أحد فنادق لندن، والمسئولة عن الأغطية والبياضات في فندقٍ آخر، وقبل ذلك كنتُ أعيش في المنزل مع والدي، الذي كان مُزارعًا محترمًا في ساسكس. وما علاقة كل هذا بما نحن هنا من أجله؟ أَودُّ أن ...»

قاطعها بريريتون سائلًا: «فقط أعطيني اسم الفندقَين اللذَين كنتِ تعملين فيهما في لندن، هل تُمانعين في ذلك؟»

أجابت الآنسة بيت: «أحدهما كان «رويال بيلفيدير» في بايزووتر، والآخر «ميرفين كريسينت» في كينجستون.» واستطردَت: «كلاهما مُحترمان للغاية.»

«وأنتِ في الأصل من أين في ساسكس؟»

«مزرعة أوكبارو، بالقرب من هورشام. هل تُريد معرفة أي ...»

قال بريريتون بلباقة: «لن أزعجك أكثر من هذا.» وأضاف: «ولكن هل يُمكنكِ فقط أن تخبريني، هل استقبل السيد كايتلي أي زوَّارٍ منذ قدومه إلى هاي ماركت؟»

أجابت الآنسة بيت: «واحدٌ فقط.» وتابعت: «وكان ابن أخي، الذي جاء في عطلة نهاية الأسبوع لرؤيته في مسألةٍ ما. بالطبع لا أعرف ماذا كانت. كان لدى السيد كايتلي أملاك في لندن؛ منزل و...»

قاطعها بريريتون: «ولا شك في أن ابن أخيكِ، بصفتِه مُحاميه، جاء لرؤيته لهذا الشأن.» وأضاف: «شكرًا لكِ يا آنسة بيت، لا أريد أن أزعجك أكثر من ذلك.»

جلس بينما كانت مدبِّرة المنزل تغادر منصة الشهود، وهو واثق من أنه نجح في إضفاء جوٍّ جديد على القضية. كانت تسري بالفعل همسات في المحكمة المزدحمة؛ وشعر بأن هؤلاء الريفيِّين، الذين يتسرَّعون دائمًا في التشكُّك، بدءوا يسألون أنفسهم ما إذا كان هناك أمرٌ مبهم وشرِّير وراء لغز مقتل كايتلي، وقد كان قاسيًا بما يكفي — من وجهةِ نظرٍ مهنية بحتة — لئلا يهتمَّ مطلقًا إن كانت الشكوك بدأَت تساورهم حول السيدة بيت. وذلك لأن بريريتون كان يعلم أنه لا شيء ناجعٌ بحق في تقويض أحد الأحكام المُسبقة سوى تشكيل حكمٍ آخر، وقد كان هدفه الكبير في ذلك الوقت هو تحويل مسار تحيُّز الناس بعيدًا عن موكله. ومع ذلك، كما كان يعلم جيدًا، لم يكن يُمكن لأي شيء أن يمنع إدانة هاربورو إدانةً نهائية في تلك المرحلة، إلا إذا اختار هاربورو نفسه إثبات «حُجة غيابه» التي كان قد تَباهى بها بتبجُّح. ولكن هاربورو رفض فعل أي شيءٍ حيال ذلك، وعندما أُجِّلَت القضية لمدة أسبوع، ونُقِل السجين إلى زنزانة في انتظار نقله إلى سجن نوركاستر، فشلَت زيارة بريريتون وأفيس مجتمعَين في تغيير رأيه.

قال هاربورو عندما ناشداه أن يتحدث: «لن يجدي هذا نفعًا يا فتاتي؛ لن يجدي نفعًا يا سيدي.» وأردف: «أنا مُصمم! لن أقول أين كنتُ الليلة الماضية.»

حثَّه بريريتون قائلًا: «أخبرني، سرًّا، ثم دعني أستفِد من المعلومة، سرًّا أيضًا.»

أجاب هاربورو: «لا يا سيدي، بحسمٍ، لا.» وتابع: «لا تُوجد ضرورة. قد أظلُّ محتجزًا لبعض الوقت، ولكن الحقيقة حول هذا الأمر ستظهر، أو يتعين أن تظهر، قبل أن أحاكَم. اتركاني وشأني، أنا بخير. كل ما يزعجني الآن يا فتاتي هو ... أنتِ!»

قالت أفيس: «إذن لا تنزعج.» وأضافَت: «سأُقيم مع السيدة نورثروب. لقد أصرُّوا على ذلك.»

كان بريريتون يخرج من الزنزانة تاركًا الأب وابنته معًا، عندما عاد فجأة.

وقال: «أنت رجلٌ متعقِّل يا هاربورو.» وأرَدف: «هيا أخبرني، هل لديك أي اقتراحٍ حول كيفية مساعدتك؟»

ابتسم هاربورو ونظر إلى مُحاميه نظرةً تنطوي على دراية.

وأجاب: «أجل يا سيدي!» وتابَع: «سأقدم لك أفضل اقتراحٍ يمكن أن تحصل عليه. إن كنتَ تريد معرفة من قتل كايتلي، ارجع لتاريخه! راجع كل تفصيلةٍ صغيرة في تاريخ حياته!»

الفصل العاشر

حفرة سقف القش

بعدما اصطحب بينت ضيفه إلى المنزل لتناوُل العشاء بعد انتهاء إجراءات محكمة الشرطة، أظهر فضولًا قويًّا ومشجعًا. كبقية سكان البلدة الذين كانوا قد وجدوا وسيلةً للاكتظاظ داخل المحكمة القديمة، كان مهتمًّا للغاية باستجواب بريريتون للسيدة بيت. كان يريد حينئذٍ أن يعرف ما الذي كان يعنيه هذا الاستجواب، وعلامَ يدُل، وما هي علاقته الحقيقية بالقضية؟

صاح بينت غير مصدِّق، عندما جلسا لتناوُل العشاء على طاولة عزوبيته: «أنت لا تقصد أن تقول إنك تشُك في تلك العجوز الغريبة الأطوار النحيلة!» وتابع: «ومع ذلك، فقد بدوتَ حقًّا كما لو كنتَ تشُك فيها، وعملتَ على إظهار ما يشبه كثيرًا الشك في صوتك أيضًا! يا إلهي! سيجلس نصف متحذلقي هاي ماركت لتناوُل لحم الضأن المشوي في هذه اللحظة وهم يُصدِّقون تمام التصديق أن الآنسة بيت خَنقَت سيدها!»

سأل بريريتون ببرود: «حسنًا، ولم لا؟» وأردَف: «إذا واجهتَ الحقائق، فبالتأكيد ستجد أسبابًا كافيةً للاشتباه في الآنسة بيت بقَدْر ما تُوجد أسباب للاشتباه في هاربورو؟ كلاهما بريء تمامًا مثلك، على الأرجح. من المسلَّم به أنه تُوجد بعض الأدلة السيئة ضد هاربورو، ولكن يُوجد أيضًا افتراض، مبني على ما تلفَّظَت به الآنسة بيت نفسها، أنها تتوقع الاستفادة من وفاة هذا الرجل العجوز. إنها امرأةٌ قوية ونحيلة، وقد أخبرتَني أن كايتلي كان ضعيفًا إلى حدٍّ ما؛ فربما تكون قد قتلَته، كما تعلم. جرائم القتل يا صديقي العزيز، تُرتَكَب على يد الأشخاص الأبعد احتمالًا، ولأسبابٍ غريبة؛ لقد ارتكبتها إناثٌ مُحترَمات تمامًا — مثل الآنسة بيت — دون سببٍ سوى مجرد نزوة.»

سأل بينت: «هل تشكُّ بها حقًّا؟» وأردَف: «ذلك ما أريد معرفته.»

أجاب بريريتون بضحكةٍ مرحة: «ذلك ما لن أُخبركَ به.» وتابع: «كل ما سأقوله لك هو أنني أعتقد أن جريمة القتل هذه إما مسألةٌ شديدة البساطة، أو شديدة التعقيد. انتظر قليلًا، انتظر مثلًا حتى يصل السيد كريستوفر بيت بهذه الوصية. عندئذٍ سنُحرِز تقدمًا كبيرًا.»

قالت بينت: «أنا أشعر بالأسف نحو أفيس هاربورو، على أي حال، ولا يُمكنني على الإطلاق تخيُّل سبب رفض والدها البوحَ بالمكان الذي كان فيه الليلة الماضية. أظن أن القضية ستشهد نهايتها إن أثبتَ مكان وجوده، أليس كذلك؟»

أجاب بريريتون: «سيتعيَّن عليه إثباتُ أين كان في كل دقيقة بين التاسعة والعاشرة مساءً.» وأضاف: «لن يُجدي هذا نفعًا، على سبيل المثال، إذا أثبتنا للمحلَّفين أن هاربورو كان مثلًا من العاشرة مساءً حتى الخامسة من صباح اليوم التالي في، لنَقُل مثلًا، مركز مقاطعة بلدتك، في نوركاستر. قد تقول إن الأمر سيستغرق ساعةً للوصول من هنا إلى نوركاستر، وساعةً للعودة، وهذا من شأنه أن يُفسِّر مكان وجوده بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء الليلة الماضية، وبين الخامسة والسادسة من هذا الصباح. لن يُجدي هذا نفعًا لأنه، وفقًا للأدلة، غادر كايتلي منزله قُبيل الساعة التاسعة مساءً، وربما يكون قد قُتِل على الفور. بفرض أنَّ هاربورو قتله في تمام الساعة التاسعة، فحتَّى في هذه الحالة، سيكون هاربورو قادرًا على الوصول إلى نوركاستر بحلول الساعة العاشرة. ما نريد أن نعرفه، لإثبات براءة هاربورو بالكامل هو، أين كان، وماذا كان يفعل منذ اللحظة التي غادر فيها كوخه الليلة الماضية وحتى الساعة التاسعة والربع، وهو أقصى وقت يمكن أن تكون جريمة القتل قد ارتُكِبَت فيه، وفقًا لما قاله الطبيب؟»

قال بينت: «خرج في إحدى رحلات صيده غير القانوني، على ما أظن.»

أجاب بريريتون: «لا، ذلك مُستبعَد تمامًا.» وأضاف: «يُوجد لغزٌ غريب حول هذا الرجل، وسيتعين عليَّ الوصول إلى حقيقة الأمر، على الرغم من إصراره على التكتُّم! بينت! سأتابع هذه المسألة حتى أكتشف كل شيء! سوف تنعقد «محكمة نوركاستر» في الشهر المقبل، وبالطبع سيمثُل هاربورو أمامها في ذلك الوقت. سأبقى في هذا الحي وأعمل على حلِّ القضية؛ ستُفيدني كثيرًا بطرقٍ شتى؛ الخبرة، والعمل، والاهتمام المنصَب عليها، والثناء — سأظفر بكل ذلك إن نجحتُ في إطلاق سراح هاربورو، وهذا ما سأفعله! لذا، سأطلب منك دون خجل أن تُعطيَني غرفةً في منزلك خلال ذلك الوقت.»

أجابت بينت: «بالطبع.» وتابع: «اعتَبِره منزلك؛ هذا من دواعي سروري الشديد، يا صديقي العزيز. ولكن يا لها من قضيةٍ غريبة! سأفعل أي شيء، كما تعلم، لأعرف رأيك فيها حقًّا.»

قال بريريتون: «لم أستقرَّ على رأيٍ بعدُ حيالها.» واستطرد: «ولكنَّني سأقترح عليك بضع نقاطٍ يُمكنك التفكير فيها في وقت فراغك. ما الدافع الذي يُمكن أن يكون لدى هاربورو لقتل كايتلي؟ تُوجد شهاداتٌ كثيرة في البلدة — من ابنته، والجيران، والتجار — أن هاربورو لم يعانِ من نقصٍ في المال أبدًا، وأنه كان لديه دائمًا مالٌ أكثر مما ينبغي أن يكون لدى مُعظم من هم في مكانته. هل تظن أنه من المحتمَل أنه قتل كايتلي للحصول على ثلاثين جنيهًا؟ مرةً أخرى، هل يُعقَل أن يُصدِّق أي شخصٍ عاقل أن رجلًا ذا اقتدارٍ واضح مثل هاربورو كان سيقتل ضحيته بهذه الطريقة الخرقاء، تاركًا دليلًا مباشرًا وراءه؟ والآن لنَنتقل إلى جانبٍ آخر. أليس واضحًا أنه إن أرادت الآنسة بيت قتل كايتلي، كان لديها فرصٌ ممتازة ليس فقط لفعل ذلك، بل لتوجيه الشكوك نحو شخصٍ آخر؟ لقد كانت تعرف عادات سيدها، وتعرف المنطقة المحيطة، وتعرف أين احتفظ هاربورو بذلك الحبل؛ إنها من النوع الذي يمكن أن يتسلَّل بهدوءٍ تام مثل القطط. إن كانت ستستفيد من موت كايتلي — كما يمكن أن تُثبته الوصية التي لدى ابن أخيها، والتي قد تكون على معرفةٍ دقيقة بها، على الرغم من كل تأكيداتها، أو بالأحرى قَسَمها بخلاف ذلك — ألا يُوجد دافع هنا؟ من الواضح أن الآنسة بيت لا بد أن تكون موضع شبهة!»

سأل بينت بعدم تصديق: «هل تقصد أن تقول إنها كانت ستقتل كايتلي العجوز لمجرد الحصول على المال القليل الذي سيتركه؟» وتابع: «بربِّك، هذا افتراضٌ قاسٍ.»

أجاب بريريتون: «لا أراه كذلك.» وأضاف: «لقد سمعتُ بقضية قتلَت فيها زوجةٌ شابة زوجها العجوز بطريقةٍ دقيقة لأنها كانت تواقةً بشدة لوضع نهاية للحياة المُملة التي عاشتْها معه لدرجة أنها لم تستطع الانتظار عامًا أو عامَين حتى تحدُث الوفاة الطبيعية؛ وكذا سمعتُ عن قضية سمَّمَت فيها امرأةٌ مسنَّة أختها التوءَم، حتى تتمكَّن من الحصول على نصيبها من الإرث وتذهب لتعيش حياةً مترفة في برايتون. لا أريد أن أظلم الآنسة بيت على الإطلاق، ولكنني أقول إنه تُوجد أسباب للاشتباه بها، وقد يزداد نطاقها.»

قال بينت: «إذن يئول الأمر إلى هذا.» وأردَف: «يوجد شخصان مُشتبهٌ بهما: تَشتبه الشرطة في هاربورو، وتَشتبه أنت في الآنسة بيت. وربما تكون الحقيقة، وهذا هو الأرجح، أن كلَيهما بريء تمامًا. في تلك الحالة، من هو المذنب؟»

وافقه بريريتون بلا مبالاة بعض الشيء: «أوه، صحيح، من؟» واستطرد: «ذلك هو السؤال. ولكن واجبي هو إثبات أن موكلي غير مُذنِب. ومثلما ستهتمُّ بشئونك بعد ظُهر هذا اليوم، سأهتم بشئوني قليلًا بأن أُعْمِل فكري في الأمور.»

عندما غادر بينت إلى البلدة، أشعل بريريتون سيجارًا، وتمَّدد على كرسيٍّ مريح أمام نارٍ دافئة في غرفة تدخين مُضيفه، وحاول التفكير بصفاء ذهن. لقد قال لبينت كل ما كان يدور في ذهنه عن هاربورو والآنسة بيت، ولكنه لم يقل شيئًا — وكان مُصمِّمًا على عدم قول أي شيء — عن فكرةٍ غريبة كانت تدور في رأسه، وشكٍّ مبهم وغير محدَّد كان يساوره. لقد كان هذا الشك المبهم حتى ذلك الحين هو ما كان يشغل تفكيره بالكامل في الوقت الراهن؛ ونحَّى هاربورو والآنسة بيت عن تفكيره تمامًا.

وبينما كان جالسًا هناك، سأل نفسه أولًا: لماذا خطر بباله هذا الشك الغريب في رجلَين شديدَي الاحترام كما يبدو في هذه البلدة الصغيرة المعزولة عن العالم؟ أرجعَ هذا إلى مصدره الأول؛ كوذرستون. كان بريريتون ملاحظًا دقيقًا للناس؛ كانت الملاحظة غريزةً طبيعية لديه، وكان دائمًا ما يُعزِّزها بالمزيد من التدريب والتطوير. لقد تيقَّن بينما كان جالسًا معه لتناول العشاء، في الليلة السابقة، أن تفكير كوذرستون كان مشغولًا بشيءٍ لا يتعلَّق لا بضيفَيه ولا بابنتِه ولا حتى بنفسه. لقد أشار سلوكُه بالكامل إلى الانشغال التام، والشرود بين الحين والآخر؛ ففي مرة أو اثنتَين، بدا واضحًا أنه لم يكن يستمع إلى الكلام الذي وُجِّه إليه. وبالتأكيد كان قد أبدى عن غير قصدٍ نوعًا غريبًا من الارتباك عندما ذُكرَ اسم كايتلي. كما أبدى دهشةً كبيرة، وانزعاجًا شديدًا عندما جاء جارثويت حاملًا خبر وفاة كايتلي.

وهنا أتى ما شعر بريريتون أنه النقطة الحاسمة والبالغة الأهمية في هذه المسألة، محاولَته الأولى للتفكير بتمعُّن وعقلانية في الأمور. لم يكن متأكدًا على الإطلاق من أن الدهشة التي أبداها كوذرستون عند سماع خبر جارثويت لم تكن مزيَّفة، وأنها لم تكن تمثيلًا خالصًا. لماذا؟ ابتسم بسخرية وهو يجيب على سؤاله. كانت الإجابة هي أنه عندما انطلق كوذرستون، وجارثويت، وبينت، وبريريتون من منزل كوذرستون لإلقاء نظرة على جثَّة القتيل، كان كوذرستون هو من قاد الطريق إلى مكان الجثة مباشرةً.

كيف عرف كوذرستون المكان بالضبط الذي ارتُكِبَت فيه جريمة القتل في نصف ميلٍ كامل من الأشجار الكثيفة التي تُغطِّي جانب التل، وهي الجريمة التي كان قد عرف بوقوعها قبل خمسِ دقائق فقط؟ ومع ذلك، فقد قادهم جميعًا إلى مكانٍ يبعُد بضعَ

يارداتٍ عن القتيل، حتى تدارك الأمر فجأة، ودفع بالمصباح في يد جارثويت قائلًا إنه بالطبع لا يعرف مكان الجثة! ألا يعني ذلك حقًّا، عند تحليل الأمر برمَّته، أنه حتى لو لم يَقتُل كوذرستون كايتلي بنفسه خلال الساعة الكاملة التي غاب فيها عن منزله، فقد عرف بمقتله، وبالمكان، وربما بالفاعل أيضًا؟

على أي حال، كانت تُوجد بعض الحقائق المؤكدة، وكان لا بد من أخذها في الحسبان. قُتِل كايتلي في حوالي الساعة التاسعة والربع. كان كوذرستون خارج منزله بين التاسعة وعشر دقائق مساءً حتى العاشرة وخمس دقائق. كان مُضطربًا بوضوحٍ عندما عاد؛ وكان أكثر اضطرابًا عندما ذهب مع بقيتهم إلى الغابة. أليس من المحتمَل أنه قد فقَد حذره تحت ضغط ذلك الاضطراب، وتوجَّه مباشرة ودون تفكيرٍ إلى المكان موضع الأهمية الشديدة؟

يكفي ذلك. ولكن كان يُوجد أمرٌ آخر. كان مالاليو شريك كوذرستون. ذهب مالاليو إلى منزل نورثروب للعب الورق في الساعة العاشرة مساءً. قد يكون من الجيد أن يَكتشف، بهدوء، ما كان مالاليو يفعلُه حتى الساعة العاشرة مساءً. ولكن النقطة الأساسية هي، ما الذي كان يفعله كوذرستون خلال ساعة غيابه تلك؟ وهل كان لدى كوذرستون أي سبب — سواء كان يخصه أو يشترك فيه مع مالاليو — لرغبته في التخلُّص من كايتلي؟

جلس بريريتون يُفكِّر في كل هذه الأشياء حتى انتهى من تدخين سيجاره؛ ثم غادَر منزل بينت وسار صاعدًا إلى غابة تلَّة شول. أراد أن يُلقي نظرةً هادئة في أنحاء مسرح الجريمة. لم يذهب إلى هناك منذ الليلة السابقة، وقد خطر له الآن أنه سيكون من الجيد أن يرى كيف يبدو المكان في وضَح النهار. لم يجد صعوبة في العثور على البقعة بالضبط، حتى وسط تلك الأغطية الكثيفة من التنوب والصنوبر؛ كان أمامه صفٌّ ضئيل من المتفرِّجين الفضوليين يمتد إلى أعلى تلة شول، وكل واحدٍ فيه يتلهف لرؤية المكان الذي أُودي فيه بحياة إنسانٍ مثلهم.

لكن لم يستطع أحدٌ الوصول إلى مسرح الحادث بالضبط. كانت الشرطة قد طوَّقَت جزءًا من أيكةِ أشجارٍ صغيرة بالحبال لتفصلَها عن بقية المكان، وكان شرطيان أو ثلاثة في زيهم الرسمي يحرسون هذا المكان المُطوَّق؛ بينما كان يُوجد في داخل الطوق رجلان يرتديان ملابسَ مدنية؛ عرف بريريتون بحلول ذلك الوقت أنهما محقِّقان من نوركاستر، وكان واضحًا أنهما كانا يفحصان الأرض بعنايةٍ شديدة. حول الجزء المُسيَّج، وقف سكان البلدة، صغارًا وكبارًا، يتحدَّثون، ويتكهَّنون، وكانوا مُنتبِهين بشدة لما يحدث، أملًا في أن يجد الباحثون شيئًا ما حالًا، حتى يتمكَّنوا من نقل بعض الأخبار المُثيرة إلى البلدة وحول

طاولات الشاي المريحة في منازلهم. كان معظمُهم موجودين داخل أو خارج المحكمة في ذلك الصباح، وتعرَّفوا على بريريتون وأفسَحوا الطريق له وهو يتقدَّم نحو الحبال. تعرف عليه أحد المُحقِّقين أيضًا ودعاه للدخول.

«هل وجدتم أي شيء؟» سأل بريريتون، الذي كان يتساءل في نفسه لماذا تتصرَّف الشرطة بمثل هذه الحماقة الشديدة وتُضيِّع الوقت في عملية بحثٍ يكاد يكون من المؤكد أنها كانت بلا جدوى.

أجاب المحقِّق: «لا يا سيدي، لقد كنا في المقام الأول نتأكد من مكان وقوع جريمة القتل الفعلية قبل أن يُجَر القتيل ويوضع وراء تلك الصخرة.» وتابع: «بقَدْر ما يمكننا أن نتعرف عليه من إبر الصنوبر المبعثرة هذه، لا بد أن القاتل وثَب على كايتلي من خلف أجمات شجر الجولق تلك — هناك حيث نمَت إلى ارتفاعٍ كبير — ثم جرَّه إلى هنا، بعيدًا عن ذلك الجزء من المسار. لا، لم نعثر على أي شيء. ولكني أظن أنك سمعتَ بما اكتُشِفَ في كوخ هاربورو؟»

صاح بريريتون في فزعٍ على العكس من رباطة جأشِه المعتادة قائلًا: «لا!» وأردَف: «أي اكتشاف؟»

أجاب المحقق: «أجرى بعض رجالنا تفتيشًا هناك بمجرَّد انتهاء إجراءات جلسة محكمة الشرطة.» واستطرد: «كانت فرصتهم الأولى لفعل أي شيء بطريقةٍ منهجية. لقد عثَروا على الأوراق النقدية التي حصَل عليها كايتلي من البنك مساء أمسِ، وكمية من الرسائل والأوراق التي نَفترض أنها كانت في دفتر الجيب الفارغ ذاك. كانت كلها مخبأةً في حفرة في سقف القش بسقيفة هاربورو.»

سأل بريريتون: «أين هذه الأشياء؟»

أجاب المحقِّق: «في قسم الشرطة؛ بحوزة المفتِّش.» وأردَف: «سيريهم لك يا سيدي، إن شئتَ أن تذهب إلى هناك.»

للتوِّ غادر بريريتون إلى مركز الشرطة في الحال، واقتيد إلى مكتب المفتِّش دون تأخير. وعلى الفور، فتح المفتش أحد أدراج مكتبه وأخرج رزمةً مطويةً بورقٍ بني.

وقال: «أظن أن هذا ما تريد أن تَراه يا سيد بريريتون.» وتابع: «أظنك سمعتَ عن هذا الاكتشاف، أليس كذلك؟ لقد كان مخفيًّا في أحد حُفَر فئرانٍ في سقف القَش بسقيفة هاربورو يا سيدي؛ أقسم بشرفي أنني لا أعرف ما الذي يمكنني استنتاجه من هذا! كان

المرء يظن أن رجلًا بحسٍّ وذكاء هاربورو ما كان سيَضع هذه الأشياء هناك، في مَوضعٍ كان من المؤكَّد أنه سيُعثَر عليها فيه.»

قال بريريتون: «لا أظن أن هاربورو وضعهم هناك.» وأضاف يَسأل: «ولكن ما هذه الأشياء؟»

أشار المفتِّش إلى ضيفه كي يجلس بجانبه، ثم فَضَّ الأوراق على مكتبه.

وأجاب: «ليست أشياءَ كثيرة.» وأضاف: «ثلاثُ أوراق نقدية من فئة الخمسة الجنيهات؛ لقد تَثَبَّتُّ من أنها تلك التي حصل عليها كايتلي البائس في البنك أمسِ. وعدد من الرسائل، أغلبها حول كتبٍ قديمة، ومواضيعَ أثرية، وما إلى ذلك؛ وبعض قصاصاتٍ من الصحف، لها الطابع نفسه. ودفتر المذكرات هذا، الذي يتناسَب مع حجم دفتر الجيب الفارغ الذي وجدناه، مدوَّن فيه بعض الأشياء بقلم رصاص، لا شيء ذو أهمية. افحصها إن شئتَ، يا سيد بريريتون. أنا لا أستنتج شيئًا منها.»

لم يستنتج بريريتون أي شيء منها أيضًا، لأول وهلة. كانت الأوراق تمامًا كما وصفها المفتش، وتفحَّصها بسرعة دون أن يجد أي شيءٍ جدير بالملاحظة. ولكنه أولَى اهتمامًا أكبر بدفتر المذكرات الصغير، وبالمدخلات الأخيرة بوجهٍ خاص. وأدهشَتْه إحدى تلك المدخلات، التي دُوِّنَت خلال الأشهر الثلاثة الماضية، ما إن نظر إليها، على الرغم من أنها كانت تبدو عديمة الأهمية. كانت عبارةً عن سطرٍ واحد فقط، كُتبَ فيه بضعة أحرفٍ أولى، واختصار أو اثنَين، وتاريخ: M. & C. v. S. B. cir. 81، وما أدهش بريريتون من هذا المُدخَل، الذي كان يبدو عاديًّا، هو أنه كان لا يزال يفكِّر في أن لمالاليو وكوذرستون دورًا خفيًّا في كل هذا؛ وبلا شك، الحرفان إم وسي هما أول حرفَين في هذَين الاسمَين غير الشائعَين.

الفصل الحادي عشر

كريستوفر بيت

جلس الرجلان وهما يُحدِّقان في صمتٍ في المكتب المليء بالأوراق المبعثَرة لعدة لحظات؛ وكلٌّ منهما مشغول بأفكاره. أخيرًا، بدأ المفتش في جمع الأدلة العديدة معًا، والتفت إلى بريريتون بإيماءةٍ أوحت بقَدْرٍ معيَّن من نفاد الصبر الفكري.

وقال: «ثَمَّةَ شيءٌ واحد في كل هذا لا أستطيع فهمه يا سيدي.» وأضاف: «وهو أنه من الواضح جدًّا أن مَن قتل كايتلي، أيًّا كان، كان يُريد الأوراق التي حملَها معه في دفتر الجيب ذاك. فلِمَ أخرجها من دفتر الجيب ثم رماه؟ لا أعرف رأيك في هذه المسألة، ولكنها تُسيطِر على تفكيري تمامًا!»

وافقَه بريريتون قائلًا: «أجل، إنه أمرٌ مُحيِّر بالتأكيد. كنت أظن أن القاتل كان سيأخذ دفتر الجيب في التو واللحظة. كونَه أخذ الأوراق منه، ثم ألقى به، ثم وضع الأوراق، أو بعضًا منها، حيثما وجدها رجالك بالضبط، في سقيفة هاربورو، يبدو لي أنه يُشير إلى شيءٍ محيِّر أكثر. أحسبك تفهم ما أعنيه، أليس كذلك؟»

أجاب المفتش: «لا يُمكنني أن أقول إنني أفهم، يا سيدي.» وأضاف: «ليس لديَّ خبرةٌ كبيرة في هذا النوع من العمل، كما تعلم، يا سيد بريريتون؛ إنه أمرٌ بعيد جدًّا عن عملنا المُعتاد. ما الذي تقصده إذن؟»

أجاب بريريتون وهو يَضحك قليلًا: «عجبًا، ما أعنيه هو أنه يبدو أن القاتل لم يكن يتصرَّف باستعجالٍ بعد مقتل كايتلي! لقد التُقطَ دفتر الجيب، كما تعلم، بالقرب من الجثة. وكان فارغًا، كما رأينا جميعًا. والآن ما الذي يُمكننا استنتاجه من ذلك سوى أنَّ القاتل وقف بالقرب من ضحيته لفحص الأوراق؟ وفي تلك الحال لا بد أنه كان يحمل مصباحًا. ربما كان يحمل مصباحًا كهربيًّا. دعنا نحاول إعادة بناء المسألة برمتها. سنَفترض أن القاتل، أيًّا كان، كان يتلهَّف بشدة للعثور على بعض الأوراق التي كان يُريدها، والتي

اعتقد أن كايتلي كان يحملها معه، وأنه فحص محتويات دفتر الجيب على الفور. فأشعل مصباحه الكهربي وأخرج كل الأوراق من دفتر الجيب، ووضع دفتر الجيب جانبًا. كان يتفحَّص الأوراق عندما سمع صوتًا في الأجمات أو الشجيرات المجاوِرة. فأطفأ مصباحه على الفور، وهرَب بالأوراق، وترك الغلاف الفارغ، وربما يكون قد نسي تمامًا وجوده في ذلك الوقت. ما هو رأيك في هذا، كنظرية؟»

أجاب المفتش: «جيدٌ جدًّا، يا سيدي.» وتابع: «جيدٌ جدًّا، ولكنها مجرد نظرية، كما تعلم، يا سيد بريريتون.»

نهض بريريتون، وهو يضحك مرةً أخرى.

وقال «بالضبط.» وتابَع: «ولكن لنفترضْ أنكَ حاولتَ أن تضعها موضع التنفيذ عمليًّا، فماذا ستفعل؟ بهذه الطريقة، لا شك أن لديك تجارًا في هذه البلدة يَبيعون أشياءَ مثل المصابيح الكهربائية. اكتشف، في سريةٍ تامة، ما إذا كان أيٌّ منهم قد باع مؤخرًا مصابيحَ كهربائية لأي شخصٍ في البلدة، وإن كان قد فعل، فلِمَن. وذلك لأنني متأكِّد من أن دفتر الجيب ومحتوياته فُحِصا في التو واللحظة، وأن هذا الفحص لا يُمكن أن يتم إلا باستخدام ضوء، وأن المصباح الكهربائي هو أسهل وسيلةٍ لتوفير هذا الضوء. وبهذا، أترى كيف يُمكن حتى لدليلٍ صغير كهذا أن يساعد؟»

وافَق المفتش قائلًا: «سأفعل ذلك.» وأردَف: «حسنًا، الأمر برمته شديد الغرابة، يا سيدي، ويزداد اقتناعي أكثر من أي وقتٍ مضى بأننا قد قبضنا على الرجل الخطأ. ومع ذلك، ما الذي كان وما يزال يُمكننا فعله؟»

أجاب بريريتون: «أوه، لا شيء في الوقت الحاضر.» واستطرد: «دعِ الأمور تأخذ مجراها. إنها في بدايتها فحسب.»

ثم غادَرَ، ليس ليُفكِّر في آخر موضوع في المحادثة، بل ليُخرج دفتر جيبه بمجرد خروجه من مركز الشرطة، ويدون المُدخَل الذي رآه في مذكرة كايتلي: M. & C. v. S. B. cir. 81. ومرةً أخرى، أذهلَتْه حقيقة أن أوَّل حرفَين مدونَين كانا الحرفَين الأولَين من اسم مالاليو وكوذرستون، وتساءل ثانيةً عما كانت تَعنيه تلك الحروف. ربما لم تكن تُشير بأي شكل من الأشكال إلى العمدة وشريكه، ولكن في ظل الظروف الراهنة، كانت مصادفةً غريبةً على أيِّ حال، وكان يغمره حَدْس بأن شيئًا ما يكمُن وراء ذلك المُدخَل. ولكن ... ماذا؟

في ذلك المساء، بينما كان بينت وضيفه يُشعلان السيجار بعد العشاء، دخلت خادمة بينت إلى غرفة التدخين ومعها بطاقة. ألقى بينت نظرةً خاطفةً على البطاقة ثم نظر إلى بريريتون بدهشة.

وصاح قائلًا: «السيد كريستوفر بيت!» وأضاف يسأل: «ما الذي يُريد مقابلتي من أجله بحق السماء؟ أحضري السيد بيت هنا على أيِّ حال»، تابَع، ملتفتًا إلى الخادمة. وأردَف: «هل هو وحده؟ أم أن الآنسة بيت معه؟»

أجابت الفتاة: «معه مفتِّش الشرطة يا سيدي.» وأضافت: «سألا إن كانا يمكنهما مقابلتك والسيد بريريتون لمدة نصف ساعة لمناقشة مسألة عمل.»

قال بينت: «أحضريهما إذن.» نظر إلى بريريتون مرةً ثانيةً بنظرة استجوابٍ أشد. وتابع قائلًا: «أحداثٌ جديدة، أليس كذلك؟» واستطرد: «إنه السيد كريستوفر بيت ابن شقيق تلك المومياء العجوز على ما أظن. ولكن ما الذي يمكن أن يرغب في مقابلتي من أجله ... أوه، حسنًا، إنه يرغب في مقابلتكَ أنت ... أنا المتفرج.»

لم يرُدَّ بريريتون. كان يُراقب الباب. وعَبَر من خلاله في الحال هيئةٌ ووجه تعرَّف عليهما على الفور، على أنهما لرجلٍ صغير الحجم ذي مظهرٍ عادي، ووجهٍ خبيث كان يراه كثيرًا في المحاكم القضائية في لندن، وافترض أنه كاتب محامٍ. بدا مألوفًا وشديد الخبث بينما كان يدلفُ بجانبه عَبْر الباب إلى غرفة التدخين، وهو يخلع قبَّعته الحريرية بيدٍ واحدة ويضع حقيبة أوراقٍ على الطاولة باليد الأخرى، وخَصَّ بريريتون بابتسامة تعرُّفٍ واهنة بعدما انحنى ترحيبًا لرب المنزل. بعد ذلك، فرك يدَيه اللتَين كانتا طويلتَين ورفيعتَين للغاية وبيضاوَين، وابتسم لبريريتون مرةً أخرى.

قال بصوتٍ رفيع متملق: «مساء الخير يا سيد بريريتون.» وتابَع: «لا شك في أنكَ رأيتَني من قبلُ يا سيدي، أليس كذلك؟ كثيرًا ما كنتُ أراك في المحاكم يا سيد بريريتون، ولكنِّي لم أتشرَّف مطلقًا بالعمل معك ... حتى الآن يا سيد بريريتون، حتى الآن يا سيدي! لكن ...»

ألقى بريريتون، الذي كان بينت قد مرَّر إليه بطاقة السيد كريستوفر بيت، نظرةً خاطفةً على البطاقة مرةً أخرى، ثم نظر إلى صاحبها.

وأشار ببرود: «أرى أن عنوانكَ هو عنوانُ مكتب محاماة «السيدَين بوبهام وبيلبودي» في شارع كورسيتور، يا سيد بيت.» استطرد يسأل: «هل لك أي صلةٍ بذلك المكتب المعروف؟»

فرك السيد بيت يديه، ومُتخذًا الكرسي الذي أشار إليه بينت بصمت، جلس ورفع بنطالَه فبرزَت منه ركبتان نحيلتان وناتئتان. ابتسم ابتسامةً واسعةً، فظهَرتْ مجموعة أسنانٍ ذات شكلٍ غريب.

وأجاب بلطف: «دائمًا ما كان السيد بوبهام، يا سيدي، صديقًا عزيزًا جدًّا لي. بدأتُ العمل لدى السيد بوبهام في سنٍّ مبكرة، يا سيدي. وقد عامَلني السيد بوبهام، يا سيدي، بكرمٍ شديد. لقد وضعَني تحت التمرين يا سيدي. وعندما قُبِلتُ قبل عامَين، يا سيد بريريتون، أعطاني السيدان بوبهام وبيلبودي، بسخاءٍ كبير منهما، مكتبًا في جناحهما، كي أصبح معروفًا، وأقوم بالقليل من العمل بنفسي، يا سيدي. أوه أجل! إنني مرتبط ارتباطًا وثيقًا بذلك المكتب الشهير، يا سيد بريريتون!»

كان السيد بيت يتَّسم بالثقة، ثقة تصل إلى حد الغرور، وكان واثقًا من نفسه بشيء من البهجة، مما جعل بريريتون يتوق لركله؛ ولكنَّه كبح مشاعره وقال ببرود إنه افترض أن السيد بيت يرغب في التحدث إليه وإلى السيد بينت بشأن مسألة عمل.

أجاب بيت واضعًا أصابعه البيضاء الغريبة الشكل على حقيبة أوراقه: «لا تخصُّني أنا يا سيدي.» وتابع: «إنها تخُص قريبتي الموقَّرة الآنسة بِيت. بلغ إلى علمي يا سيد بريريتون — ولا أقصد أي إهانةٍ أبدًا يا سيدي! — أنك وجَّهتَ بعض الأسئلة، التي لا شكَّ أنها ضرورية، إلى الآنسة بِيت في المحكمة هذا الصباح وكان لها وَقعٌ سلبي على آذان الحضور، أَضرَّ بصورتها في أعينهم. وبناءً على ذلك، ترغب الآنسة بِيت، ألا أتوانى، بصفتي ممثلها القانوني، في عرض الوضع الحقيقي للوضع عليكَ فيما يتعلق بعلاقتها بالراحل كايتلي؛ وبناءً عليه يا سيدي، وفي حضور صديقنا، المفتِّش، الذي تحدَّثتُ إليه بالفعل بالخارج، أودُّ أن أُخبركَ بالحقيقة. بصورةٍ غير رسمية يا سيد بريريتون، كما تفهم، بصورةٍ غير رسمية!»

أجاب بريريتون: «كما تشاء.» واستطرد: «كل هذا، كما تقول، غير رسمي.»

وافقه بيت الذي كان يزداد ابتهاجًا مع كل كلمة: «غير رسمي تمامًا يا سيدي.» وتابَع: «أوه، بالتأكيد. إنه فيما بيننا بالطبع. ولكن سيكون من دواعي سروري أن تعرف. لا ترغب عمتي، الآنسة بيت، بطبيعة الحال يا سيد بريريتون في أن يُساور أي شخص — سواء هنا أو في أي مكانٍ آخر — الشكوك حولها كما أوحى استجوابك لها اليوم فيما يبدو؛ وأنا أتكلم يا سيدي بناءً على المعلومات التي قُدِّمَت لي. ولذا أودُّ، يا سيدي، أن أُخبركَ بما يلي. عملتُ مستشارًا قانونيًّا للسيد كايتلي. كتبتُ له وصيته. لديَّ تلك الوصية

في هذه الحقيبة. بإيجازٍ يا سيد بريريتون، لا يعرف مخلوقٌ في هذا العالم بمحتويات تلك الوصية إلا أنا، كاتبك المتواضع والمطيع!»

سأله بريريتون بطريقةٍ جافَّة: «هل تعرض أن تُخبرنا بمُحتويات وصية السيد كايتلي؟»

أجاب بيت: «أجل يا سيدي.» واستطرد: «ولهذا السبب، لا تعرف قريبتي الآنسة بيت ماذا كانت مهنة السيد كايتلي، ولا ما كان يَمتلكه عند موته. إنها لا تعرف أي شيء! ولن تعرف حتى أتلو عليها هذه الوصية بعد أن أكون قد أبلغتُك بفحواها. وهو ما سأفعله في كلماتٍ موجزة. لقد كان الراحل السيد كايتلي، يا سيدي، محققًا سابقًا في الشرطة. وبالاقتصاد والادخار، اشترى منزلًا صغيرًا لطيفًا في لندن، في بريكستون على وجه الدقة. يُدرُّ هذا المنزل حوالي مائة وخمسين جنيهًا إسترلينيًّا سنويًّا. واختصارًا للحديث، وضعَه بالكامل تحت تصرف الآنسة بيت. أنا شخصيًّا يا سيد بريريتون، لستُ سوى مُنفِّذ للوصية. إذا كنتَ ترغب في فحص الوصية يا سيدي، سواء أنت أو السيد بينت أو المفتش، فلكم مُطلق الحرية في ذلك.»

أشار بريريتون بيده رافضًا الوثيقة المعروضة ونهَض من كرسيه.

وقال: «لا، شكرًا لك يا سيد بيت.» وتابع: «لا أرغب في رؤية وصية السيد كايتلي. أنا أُصدِّق تمامًا كل ما قُلتَه عنها. أنت، بصفتكَ محاميًا، تعلم جيدًا أنه أيًّا كان السؤال الذي وجَّهتُه إلى الآنسة بيت هذا الصباح، كان دافعُه مصلحة موكلي. لا ... فيما يخصني، أنا لا أرغب في رؤيتها؛ لذا يُمكنك تنحيتُها جانبًا. لقد أكَّدتَ لي أن الآنسة بيت لا تزال تجهل محتوياتها حتى الآن، وأنا أُصدِّقك. ومع ذلك، أظنُّ أن الآنسة بيت لن تندهش كثيرًا.»

وافقَه بيت، الذي أعاد الوصية إلى حقيبته بعدما رفض كلٌّ من بينت والمفتِّش عرضه بطريقةٍ مهذَّبة: «أوه، بوسعي أن أقول إن عمَّتي لديها فكرةٌ جيدة جدًّا عنها يا سيد بريريتون.» وأردف: «جميعنا لا نعرف سوى القليل عما ستئول إليه الأمور في مثل هذه القضايا، كما تعلم يا سيدي. بالطبع، لم يكن لكايتلي الراحل أيُّ أقارب يا سيد بريريتون؛ في الواقع، وعلى حدِّ علمي، لم يكن لديه أي أصدقاء سوانا، أنا والآنسة بيت.»

قال بريريتون: «كنت سأطرح عليك سؤالًا ذا صِلة بهذا الموضوع إلى حدٍّ ما يا سيد بيت.» وأضاف: «سؤالٌ غير رسمي تمامًا، كما تعلم. هل تظنُّ أنه كان لديه أي أعداء؟»

عقد بيت أصابعه البيضاء الطويلة معًا وأمال رأسه إلى أحد جانبَيه. فتح فمه المزموم قليلًا، وابتسم ابتسامةً خبيثة أظهَرتْ أسنانه الغريبة.

وقال: «حسنًا!» وتابع: «بالطبع أفهم ما ترمي إليه يا سيد بريريتون. بطبيعة الحال، ستظُن أن رجلًا كان يعمل في مثل مهنتِه سيكون له أعداء. لا شك في أنه لا بد أنه يُوجد عددٌ كبير من الأشخاص الذين كانوا سيسعدون — لو كان لا يزال على قيد الحياة — بطعنِه بسكاكينهم. أوه، أجل! ولكني لا أعرفهم، يا سيدي، للأسف.»

سأَلَه بريريتون: «ألم تَسمعه مطلقًا يتحدث عن أي شخصٍ من المحتمل أنه كان يرغب في الانتقام منه؟»

علَّق بيت بتأمُّل: «مطلقًا يا سيدي! لم يكن الراحل كايتلي يتحدث عن إنجازاته المِهَنية. لقد عرفتُ بالصدفة أنه كان معنيًّا ببعض القضايا المهمة في وقته، ولكنه نادرًا، ما كان يذكرها لي، إن لم يكن مطلقًا. في الواقع، يمكنني القول أيها السادة»، تابع بدفعةِ ثقةٍ واضحة، «يمكنني القول فيما بيننا، إنني تَشرَّفتُ بمعرفة السيد كايتلي لفترة من الزمن قبل أن أعرف مجال عمله! إنها حقيقة!»

سأَلَه بريريتون: «كنتَ مقربًا إليه، أليس كذلك؟»

أجاب بيت: «واحد من أقرب الناس.» وأضاف: «أجل، يمكنك قول ذلك، يا سيدي.»

تابَع بريريتون: «أظن أنه لم يكن من المرجَّح أن يُفصِح عن الأمور، صحيح؟»

قال بيت: «لم يكن من شيمه! لقد كان كايتلي عجوزًا عاديًّا منغلقًا على نفسه كفخٍّ فولاذي!»

«وأظنُّ أنه ليست لديك أي نظرية أو فكرة عن مقتله، أليس كذلك؟» سأل بريريتون الذي كان يراقب الرجل الضئيل عن كثب. وأردَف: «هل كوَّنتَ أي نظرياتٍ أو أفكار عن مقتله؟»

أغمض بيت عينَيه نصف إغماضةٍ وهو يُديرهما ناظرًا إلى السائل.

أجاب وهو يهزُّ رأسه: «هذا مبكِّرٌ جدًّا!» واستطرد: «مبكِّر للغاية. ولكنني سأفعل، في الوقت المناسب. ولكن في غضون ذلك، لديَّ مهمةٌ صغيرة أخرى عليَّ إتمامهما، ويُمكنني إتمامها الآن على الفور. تُوجد هِبتان أو ثلاث هِباتٍ بسيطة في هذه الوصية يا سادة؛ واحدة منها تخصك يا سيد بينت. لم تكن موجودة في الوصية الأصلية، التي كُتبَت قبل أن ينتقل كايتلي للعيش في هذه المنطقة. إنها في ملحق، كُتبَ عندما جئتُ إلى هنا قبل بضعة أسابيع في زيارتي الوحيدة للسيد كايتلي العجوز. لقد أراد، حال وفاته، أن يترك لك شيئًا — قال إنكَ كنتَ ودودًا جدًّا معه.»

قال بينت بنظرة دهشة: «هذا لطفٌ بالغ منه، بالتأكيد.» وأردَف: «ومع ذلك، فأنا مندهش للغاية لسماع هذا.»

علَّق بيت ضاحكًا وهو يسحب من الحقيبة ما بدا وكأنه دفتر حساباتٍ قديم مثبت بقفلٍ نحاسي: «أوه، ليس الكثير.» وتابع: «إنه سجلُّ قصاصاتٍ احتفظ به كايتلي العجوز، ألبوم نوعًا ما، كان يلصق فيه أشياءَ مختلفة ومتفرقة. كان يظن أنك ستجده مثيرًا للاهتمام. ولمعرفتي بهذه الهبة يا سيدي، فكَّرتُ في إحضار هذا السجلِّ معي إلى هنا. سأطلب منك فقط إعطائي إيصالًا رسميًّا باستلامه يا سيد بينت.»

أخذ بينت إرثه الغريب، وقاد السيد بيت إلى أحد المكاتب ليُمليَه صيغة الإيصال. وبينما كانا يستديران بعيدًا، أشار المفتش إلى بريريتون بالتوجُّه معه إلى أحد أركان الغرفة.

وهمس قائلًا: «أتعرف ما قُلتَه عن فكرة المصباح الكهربائي بعد ظهر اليوم، يا سيدي؟» وأضاف: «حسنًا، بعد أن غادرتَني، تحقَّقتُ على الفور بسريةٍ تامة، كما تعلم، بنفسي. ذهبتُ إلى ريليت، تاجر الأدوات المعدنية — كنت أعلم أنه إذا دخلَت مثل هذه الأشياء إلى البلدة، فستكون من خلاله؛ لأنه الوحيد المطَّلِع على كل ما هو جديد. وسمعتُ أكثر مما كنتُ أتوقَّعه!»

سألَه بريريتون: «ما الذي سمعتَه؟»

أجاب المفتش قائلًا: «أظن أنه قد يكون ثَمَّةَ قَدْر من الحقيقة فيما قلتَه.» وتابع: «ولكن اسمع هذا؛ يقول ريليت إنه مستعدٌّ لأن يقسم قسمًا رسميًّا على أنه لا يُوجد أي شخصٍ آخر يبيع المصابيح الكهربائية في هاي ماركت. وأنه باعها لثلاثة أشخاصٍ فحسب؛ ابن الكاهن، والسيد مالاليو، وجاك هاربورو!»

الفصل الثاني عشر

قلقٌ أبوي

للحظة، تبادل بريريتون والمفتش النظرات في صمت. ثم قام بينت من على مكتبه في الجانب الآخر من الغرفة، وتَوجَّه هو وكاتب المحامي الضئيل نحوهما.

تمتَم بريريتون قائلًا: «أبقِ هذا سرًّا إذن.» وأردَف: «سنتحدَّث عنه لاحقًا. قد يكون مهمًّا.»

همس المفتش وهو يتراجع قليلًا وعينه على الرجلَين الآخرَين: «حسنًا، يُوجد الكثير مما يجب وضعه في الاعتبار.» واستطرد: «لم يُعثَر على أي شيءٍ من ذلك القبيل مع موكلك! وقد قضى الليل كله بالخارج. ذلك أمرٌ يستحقُّ التفكير — بناءً على موقف، يا سيد بريريتون.»

أومأ بريريتون برأسه مُوافقًا واستدار بنظرة تنبيهٍ أخرى. بعد قليلٍ غادر بيت والمفتش، وجلس بينت على كرسيِّه المريح وهو يضحك.

وقال: «إرثٌ غريب غير مُتوقَّع نوعًا ما!» وأضاف: «أتساءل هل حقًّا ظَنَّ كايتلي العجوز أنني سأهتم بسجلِّ قُصاصاته؟»

علَّق بريريتون، وهو يُلقي نظرةً خاطفةً على السجل الذي وضعه بينت جانبًا فوق أحد أرفف الكتب: «قد يحوي الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام.» وأردَف: «اعتنِ به. حسنًا، ما رأيك في السيد كريستوفر بيت؟»

أجاب بينت: «أظن أنه جريء.» وتابَع يسأل: «ولكن، ما رأيك أنتَ فيه؟»

قال بريريتون بغلظة: «أوه، لقد قابلتُ أشخاصًا من نوعية السيد كريستوفر بيت من قبلُ.» واستطرد: «إنه ممارسٌ قانوني مِن نوعية مَن ينتمون إلى مكتب محاماة «دودسون وفوج»، وهو نوعٌ لم يَنقرِض بأي حال من الأحوال. أرغب بشدة في أن أعرف أكثر

عن تعاملاته المختلفة مع كايتلي. سنرى ونسمع المزيد عنها، ولكن، لاحقًا. أما في الوقت الحاضر، فثَمَّةَ أمورٌ أخرى.»

غَيَّر الموضوع بعد ذلك إلى شيءٍ بعيد تمامًا عن جريمة القتل وغموضها. وذلك لأن الموضوع الوحيد الذي كان يشغل عقله تمامًا، كان أيضًا هو نفسه الموضوع الذي لم يَستطع مناقشته مع بينت. هل كان لكوذرستون ومالاليو أي علاقة بموت كايتلي؟ بدأ ذلك السؤال يستحوذ على انتباهه بالكامل؛ فكر في هذه المسألة أكثر من تفكيره في مخطَّطاته لدفاعٍ ناجح عن هاربورو، مدركًا تمامًا أن أفضل وسيلة لإثبات براءة هاربورو تَكمُن في إثبات جرم رجلٍ آخر.

قال بريريتون في نفسه وهو يأوي إلى الفِراش في تلك الليلة: «إنني على استعدادٍ لأن أفعل أي شيء في مقابل أن ألقي نظرةً سريعة على ما يدور في عقل كوذرستون، أو في عقل مالاليو أيضًا! فأنا أُقسِم أن هذَين الاثنَين يعرفان شيئًا، وربما يُهنِّئان أنفسهما على أنه لن يعرفه أي شخصٍ آخر أبدًا!»

لو كان بريريتون يستطيع قراءة ما يدور في ذهن أيٍّ من الشريكَين في هذا المنعطف الدقيق، كان سيجد مجالًا كبيرًا للتفكير وللتأمُّل بفضول. فقد كان كلاهما يراقب مجريات الأمور عن كثب من ناحية؛ ويراقب أحدهما الآخر من ناحيةٍ أخرى. لقد راقبا الإجراءات القضائية والشرطية ضد هاربورو ووجَدا، بارتياحٍ مطلق، أنه لم يطرأ أي شيء يبدو معاديًا لهما. لقد راقبا إجراءات التحقيق الذي يجري حول كايتلي؛ كما أنهما لم يُفسِحا المجال لأي شيء من شأنه أن يلفت الانتباه إليهما بالطريقة التي كانا يخشيان منها. عندما مرت عدة أيام وبدا أن تحقيقات الشرطة قد استقرَّت على أن تنصَبَّ على توجيه أصابع الاتهام إلى المشتبه به، اعتقد كلٌّ من مالاليو وكوذرستون أنهما في مأمن من افتضاح أمرهما؛ فقد بدا أن سرَّهما المشترك قد دُفِنَ تمامًا مع المحقق العجوز. ولكن السر كان حيًّا نابضًا في قلبَيهما، وعندما واجه مالاليو الحقيقة، كان يَعلم أنه يشتبه في كوذرستون؛ وعندما وضع كوذرستون الأمور في نصابها أمام نفسه، وجد أنه يعلم أنه يشتبه في مالاليو. وآل الأمر بالرجلَين إلى أنهما أخذا يتبادلان النظرات خِلسةً بمكر، ويتحدثان معًا بفظاظة واقتضاب، وعندما كان يتصادَف أن يكونا بمفردهما، كان يسود بينهما جوٌّ ثقيل من الكراهية والشكِّ المتبادل.

كانت حقيقةً نفسية غريبة أنه على الرغم من أن هذَين الرجلَين كانا شريكَين طوال الفترة الأهم من حياتهما، لم يكن يجمعهما أي شيءٍ مشترك. كانا شريكَين مُمتازَين في

مسائل العمل؛ فقد كان كلاهما يعرف الآخر جيدًا في كل ما يتعلَّق بجني المال. أما فيما يتعلق بالذوق، والمزاج، والشخصية، والفهم، فقد كانا على طرفَي نقيض. عندما اختُبرَت بشكلٍ أكبر عَبْر الأحداث الأخيرة المربكة، تجلَّت هذه الفجوة في صورة عزوف عن الثِّقة. كان مالاليو، أيًّا كان ما يفكِّر فيه، يعلم جيدًا أنه لن يفصح أبدًا عما يدور في عقله لكوذرستون؛ وكان كوذرستون يعلم الشيء نفسه تمامًا فيما يتعلق بمالاليو. ولكن هذا الصمت ولَّد غضبًا، وبمرور الأيام صار الغضب فوق قدرة كوذرستون على التحمُّل. كان رجلًا شديد التوتُّر والعصبية، وانفعاليًّا ومتسرعًا؛ لذا بدأَت النظرات المتحاشية والملاحظات والردود المُقتضبة لرجلٍ لا يستطيع تحاشي صحبته، في دَفعِه إلى ما يُشبه الجنون. وفي أحد الأيام، عندما بقيَ وحده في المكتب مع مالاليو بعدما غادر الموظَّف ستونر لتناول العشاء، أصبح الغضب فوق احتماله، وانفجر في شريكه في ثورة غضبٍ عارمة لا يمكن السيطرة عليها.

هَسَّ غاضبًا وهو يُصِرُّ أسنانه: «عليك اللعنة!» وأضاف: «أعتقد أنك تظنُّ أنني من قمتُ بهذا الأمر! وإن كان هذا ما تظنُّه، فسحقًا لك، لِمَ لا تقول هذا وننتهي من الأمر؟»

دَسَّ مالاليو، الذي كان واقفًا عند المدفأة يُدفئ ظهره العريض، يدَيه في جيبَيه حتى آخرهما ونظر نظرةً شبه هازئة إلى شريكه من عينَيه المرهقتَين.

قال بهدوءٍ متصنَّع: «أنصحك بأن تحافظ على هدوئك.» واستطرد: «ستُساور الشكوك بشأنك أناسًا غيري إن تصادَف وسمحتَ لنفسك بالخروج عن شُعورك هكذا.»

كرَّر كوذرستون بعصبية: «إذن فأنت تظنُّ ذلك!» وأردَف: «اللعنة، هل تظن أنني لم ألاحظ؟ إنك تنظر إليَّ دائمًا كما لو كنتُ ... كما لو ...»

قاطعه مالاليو قائلًا: «إذن حافظ على هدوئك.» وأضاف: «يُمكنني أن أنظر إليك أو إلى أي شخصٍ آخر، بأي طريقة تروق لي، أليس كذلك؟ لا داعي لأن تُزعج نفسك — لن أقول شيئًا. إن كنتَ قد قررتَ أن تتولى زمام تسوية الأمور بنفسك — كما حدَث فعلًا — فحسنًا، لن أتفوَّه بكلمةٍ واحدة. هذا إلا إذا ... أتفهَم ما أعنيه؟»

صرخ كوذرستون قائلًا: «أفهم ماذا؟»

أجاب مالاليو: «إلا إذا كنتُ مُضطرًّا لذلك.» وتابَع: «لا بد أن أقول بكل وضوحٍ إنه لم يكن لي أي علاقة بتلك المسألة بالذات، أتفهَم؟ فمبدأ أن كل إنسانٍ مسئول عن نفسه، هو مبدأٌ سليم. ولكنني لا أرى أي حاجة لذلك. ولا أعتقد أنه ستكون ثَمَّةَ أي حاجة. ولا تهمني قيمة ذلك القلم الذي يَرتجف هكذا في يدك، مثلما لا يهمني أن يعاني شخصٌ بريء، فإذا كان بريئًا من تلك التُّهمة، فهو مذنبٌ بأخرى. أنت بأمانٍ معي.»

ألقى كوذرستون القلم على الأرض وسحقَه بقدمه. فضحك مالاليو بسخرية ومشى ببطء نحو الباب.

وقال: «أنت أحمقُ يا كوذرستون.» وأردَف: «استمرَّ على هذا المنوال، وستبوح بكل شيءٍ إلى شخص لن يحتفظ بالأسرار بقَدْر ما أستطيع. اهدأ يا رجل، اهدأ!»

صاح كوذرستون قائلًا: «سحقًا لك!» وأضاف: «اهتمَّ بألا أبوح بشيء عنك! أودُّ معرفة أين كنتَ تلك الليلة؟ أو بالأحرى، أعرف أين كنتَ! إنك لستَ بمأمَن أكثر منِّي! وإن قلتُ ما أعرفه فعلًا ...»

استدار مالاليو ويدُه على مزلاج الباب، ونظر إلى شريكه نظرةً مباشرة غير مختلَسة لمرةٍ واحدة.

وقال بهدوء: «وإن قلتَ أي شيء تعرفُه، أو تتخيل أنك تعرفه، فسيحلُّ الخراب ببيتك، أيها الأحمق الضعيف! كنتُ أظن أنك ترغب في أن يَبقى كلُّ شيء سرًّا من أجل ابنتك، أليس كذلك؟ أُف! إنك تَفقد عقلك تمامًا!»

غادر مالاليو بعد قوله هذا، بينما انهار كوذرستون، الذي كان يرتجف غضبًا، جالسًا على كرسي ولعن مصيره. وبعد فترةٍ استعاد زمام نفسه وبدأ يفكِّر، وتحوَّلَت أفكاره غريزيًّا إلى ابنته ليتي.

كان مالاليو محقًّا — بالطبع كان محقًّا! فأي شيءٍ يُمكن أن يقوله أو يفعله كوذرستون من شأنه أن يجلب إلى السطح أشياءَ لا بد أن تظل مدفونة، سيُفسِد فرص ليتي. هكذا بدا له الأمر على أي حال. فقد كان تفكير كوذرستون تفكيرًا ماديًّا في الأساس، وكان يصعُب عليه تصديق أن شابًّا طموحًا مثل ويندل بينت سيَرغب في الارتباط بابنة مجرمٍ سابق. سيكون لدى بينت كل الأعذار المُقنعة لقطع كلِّ الصلات التي تربطه بعائلة كوذرستون إن انكشفَت الحقيقة البغيضة. لا! — أيًّا كان ما فعله، لا بد أن يحافظ على سرِّه آمنًا حتى يتزوَّج بينت وليتي في أمان. بعد تحقُّق ذلك، لم يكن كوذرستون يهتمُّ كثيرًا بالمستقبل؛ إذ لن يَستطيع بينت أن يتخلى عن زوجته. لذا حاول كوذرستون أن يُهدِّئ من رُوعِه، حتى يتمكَّن من التخطيط والتدبير، وقبل حلول الليل زار طبيبه، وعندما عاد إلى المنزل في ذلك المساء، كان قد وضع خططه بالفعل.

كان بينت مع ليتي عندما وصَل كوذرستون إلى المنزل، وفي الحال أدخلَهما غرفةً صغيرةً كان يقتصر دخولها عليه هو فقط كقاعدةٍ عامة. جلَس على كرسيه المريح، وأشار إليهما بالجلوس بالقرب منه.

وقال: «أنا سعيد أنني وجدتُكما معًا.» وأردف: «ثَمَّةَ ما أودُّ قوله. لا يُوجد ما يدعو إلى الخوف يا ليتي، ولكن ما أُريد قوله هو أمرٌ جاد. وسأقوله مباشرةً، وبينت سيتفهَّم. حسنًا، لقد رتَّبتُما للزواج في الربيع المقبل؛ أي بعد ستة أشهر. أريدكما أن تُغيِّرا رأيكما، وأن تتزوَّجا في أقرب وقتٍ ممكن.»

نظر بتوقٍ وأسًى شديد إلى ليتي، متوقِّعًا أن يراها تجفل من الصدمة. ولكن مع ولعه بابنته، كان كوذرستون قد فشل حتى ذلك الحين في فهم التطورات الأخيرة التي حلَّت بشخصيتها. لم تكن ليتي كوذرستون من الشابَّات التي تَسمح لأي شيء بأن يفاجئها. كانت رصينة على نحوٍ لافت للنظر، وهادئة، وذات قدرةٍ جيدة على الاعتناء بنفسها من كل النواحي، وواعية تمامًا بالفرص المحتملة التي يحملها زواجها من رجل الصناعة الشاب الواعد. وبدلًا من أن تبدي أي دهشة، سألَت والدها بهدوء عما يقصده.

«سأخبركِ»، هكذا أجاب كوذرستون وهو في قمة الارتياح عندما وجد أن كلَيهما يميل إلى مناقشة الأمور بهدوء. وأردَف: «الأمر وما فيه أنني لم أكن بخير مؤخَّرًا. الحقيقة يا بينت أنني كافحتُ كثيرًا في شبابي. يُمكن للرجل أن يعمل بكد، كما تعلم، وتظهر عليه الآثار السلبية لهذا في النهاية. هكذا يقول الطبيب، على أي حال.»

صاحت ليتي قائلة: «الطبيب!» وأردفَت تسأل: «هل زرته؟»

أجاب كوذرستون: «زرتُه بعد ظهر اليوم.» وتابع: «لا تخافي. ولكن ذلك هو ما قاله؛ لا يُوجد أي مكروه، كل شيء بخير؛ ولكن آنَ الأوان لأرتاح. أحتاج إلى الراحة والتغيير، التغيير التام. وقد اتخذتُ قراري؛ سأتقاعَد من العمل. ولِمَ لا؟ أنا رجلٌ ثري، وأفضَل حالًا مما يظن معظم الناس. سأخبر مالاليو غدًا. أجل، أنا عازم على هذا. وبعد أن أفعل ذلك، سأسافر لعام أو عامَين؛ فدائمًا ما كنتُ أرغب في أن أجوب العالم. سأذهب؛ هذا كبداية على أي حال. وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل، كما يقول الطبيب. و...»، وهنا نظر بتمعُّن إلى مُستمعيه، وتابَع: «أودُّ أن أراكِ مستقرة قبل أن أسافر. ما الأمر؟»

ظهرت شخصية ليتي الهادئة والحصيفة في الكلمات الأولى التي نطقَت بها. كانت قد أنصتَت بعناية إلى كوذرستون؛ والآن التفتَت إلى بينت.

قالت، بهدوءٍ شديد كما لو كانت تطرح سؤالًا عاديًّا جدًّا: «ويندل، ألن يُفسِد هذا كل ترتيباتك للعام المقبل؟ كما ترى يا أبي!» تابعَت، ملتفتةً إلى كوذرستون، «لقد رتَّب ويندل كل شيء. كان سيقضي الربيع والصيف بأكمله في إجازة عن العمل؛ كنا سنُسافر إلى أوروبا لمدة ستة أشهر. وذلك من شأنه أن يتطلَّب إجراء تغييرٍ تام، و...»

قاطعها بينت قائلًا: «يمكننا تغيير ترتيباتنا.» كان يُراقب كوذرستون عن كثَب، وإذ ظن أنه رأى نظرةً متوترة ومتلهفة ترتسم على وجهه، قرَّر أنه كان يُخفي شيئًا، وأنه لم يُخبرهم بالحقيقة الكاملة عن صحته.

«المسألة كلها تتعلَّق بالترتيبات. يُمكنني ترتيب أن آخذ إجازتي خلال فصل الشتاء يا ليتي.»

اعترضَت ليتي قائلة: «ولكنَّني لا أريد السفر في الشتاء.» وتابعَت: «كما أنني أجريتُ كل ترتيباتي بخصوص فساتيني والأشياء الأخرى.»

قال بينت: «يُمكن ترتيب ذلك أيضًا.» وأضاف: «يمكن للخياطة أن تعمل ساعاتٍ إضافية.»

أجابت ليتي: «ذلك يعني أن كل شيءٍ سيتم على عجلٍ وسيَفسَد.» وأردفَت: «علاوةً على ذلك، لقد رتَّبتُ كل شيء مع وصيفات الشرف. لا يُمكن أن أتوقَّع منهم ...»

قال بينت وهو يضع يده على ذراع ليتي: «يُمكننا الاستغناء عن وصيفات الشرف.» واستطرد: «إذا كان والدك يشعر حقًّا أنه لا بدَّ أن يحصل على الراحة والتغيير اللذَين تحدَّث عنهما، ويريدنا أن نتزوَّج أولًا، فلِمَ إذن ...»

قالت ليتي: «لكن لا يُوجد ما يمنعكَ من الحصول على قسط من الراحة والتغيير الآن يا أبي.» وتابعَت: «ولِمَ لا؟ لا أحب تغيير ترتيباتي؛ فقد خطَّطَت لكل شيء بعنايةٍ شديدة. عندما استقررنا على الربيع المقبل يا ويندل، كان لديَّ بالكاد ما يكفي من الوقت للتحضير!»

رد بينت: «أُف!» واستطرد: «يمكننا الزواج بعد غدٍ إذا أردنا! وصيفات شرف، وفساتين؛ ما نفع كل هذه السخافات؟»

أجابت ليتي: «إنها ليست سخافات.» وأردفَت: «إن كنتُ سأتزوَّج، فأريد أن أتزوج بالطريقة اللائقة.»

نهضَت غاضبة وهي تُميل رأسها إلى الخلف قليلًا بعصبية، وغادرَت الغرفة؛ وتبادل الرجلان النظرات.

قال كوذرستون أخيرًا: «تحدَّث إليها يا بُنَيَّ.» وأضاف: «بلا شك، تُفكِّر الفتيات كثيرًا في ... في كل التفاصيل المصاحبة، أليس كذلك؟»

أجاب بينت: «أجل، أجل، سيكون كل شيءٍ على ما يُرام.» نقَر على ذراع كوذرستون ورمقَه بنظرةٍ فاحصة. وسأله: «إنك لا تُخفي أي شيء بشأن صحتك، أليس كذلك؟»

نظر كوذرستون إلى الباب وأخفض صوتَه حتى صار همسًا.

وأجاب: «إنه قلبي!» وتابع: «إنه مرهَق ... مرهَق أكثر من اللازم، كما يقول الطبيب. الراحة والتغيير أمران ضروريان! ولكن لا تَنطِق بكلمةٍ واحدة عن هذا إلى ليتي يا بينت. تحدَّثْ معها، ورتِّب الأمر. سيُشعِرني هذا بالأمان أكثر، أتفهمني؟»

كان بينت شديد الطيبة، وعلى الرغم من أنه كان يَفهم تمامًا، فقد كان أمرًا طبيعيًّا أن يشعر الأب بمثل هذا القلق على ابنته الوحيدة. لذا، وعده أن يتحدَّث بجدية مع ليتي في الحال عن إتمام الزواج مبكرًا. وفي تلك الليلة، أخبر بريريتون بما حدث، وسأله عما إذا كان يعرف كيفية الحصول على تراخيصَ خاصة، وأبلغه بريريتون بكل ما يعرفه عن تلك النقطة، ولكنه التزم الصمت حيال أمرٍ كان يزداد لديه أهميةً وجدية.

الفصل الثالث عشر

خطاب من مجهول

في غضون أسبوع من تلك الليلة، تَمكَّن بريريتون من تلخيص الأمور وتقييمها ووضعها أمامه بوضوح من حيث صلتها بموكله الغامض. وبحُلول ذلك الوقت، تلخَّصَت كلها في مسألةٍ واضحة؛ ألا وهي أن مسار القضية المُنتظر سيكون مسارًا مستقيمًا يحجب الغموضُ مراحله النهائية. كان هاربورو قد مَثُل مرةً أخرى أمام قضاة هاي ماركت، ورفَض بعنادٍ الإدلاء بأي معلوماتٍ محدَّدة حول ما كان يفعله بالضبط ليلة مقتل كايتلي، وحسب الأصول أُحيل إلى المحاكمة بتهمةٍ عقوبتُها الإعدام. في نفس اليوم، كان محقِّق الوفيات قد أدانه بالمثل، بعدما أجرى استجوابًا امتد إلى جلستَين. لم يكن يُوجد الآن ما يُمكن فعله سوى الانتظار حتى تُعرَض القضية على محكمة الجنايات العليا بنوركاستر. لحسن الحظ، تحدَّد ميعاد انعقاد المحكمة العليا في مُنتصَف الشهر التالي؛ ومن ثَمَّ، كان لدى بريريتون ثلاثة أسابيع لإعداد دفاعِه، أو لإلصاق التهمة بشخصٍ آخر (وهو ما سيكون بديلًا مرضيًا للغاية).

كان كريستوفر بيت، بصفته مستشارًا قانونيًّا للقتيل، قد شعر أن من واجبه البقاء في هاي ماركت حتى انتهاء الإجراءات الشُّرَطيَّة وتحقيق محقِّق الوفَيات. وقد حرص على الظهور في كلٍّ من محكمة الشرطة والمحكمة الجنائية، وكان يدفع بنفسه إلى دائرة الضوء كلما استطاع، ويطرح الأسئلة حيثما سنحَت الفرصة. ازدادت كراهية بريريتون له كلما رأى تصرُّفاته؛ وقد كان مستاءً بخاصةٍ من وُدِّه المبتذل. ولكن بيت كان من الناس الذين يعرفون كيفية الجمع بين الود والأدب وحتى الخنوع؛ فقد كانت رؤيته أو سماعه يتحدَّث إلى أيٍّ من الأشخاص الذين كان يُجبرهم على التحدُّث معه، تُعطي فكرةً عن مدى تبجيله لهم. ربما كان يُبجل بريريتون عندما أجبر المحامي الشاب على التحدُّث معه بعدما أُحيل هاربورو أخيرًا إلى المحاكمة.

أشار بيت وهو يحاصر بريريتون في ممر خارج المحكمة المزدحمة: «أوه، إنه رجلٌ محظوظ يا سيد بريريتون!» وأردَف: «محظوظ للغاية حقًّا، يا سيدي؛ لأنك تهتمُّ بأمره كثيرًا. تخيَّل أنك — على الرغم من كل الفُرَص المتاحة لك في المدينة يا سيد بريريتون! — اخترتَ البقاء هنا، فقط للدفاع هذا الرجل بدافعٍ من ... ماذا نُسمِّيها؟ بدافع من الشَّهامة المحضة! الشهامة! أعتقد أن تلك هي الكلمة الصحيحة يا سيد بريريتون. أوه، أجل؛ فقد انتهى أمر هذا الرجل تمامًا. إنه كقطةٍ فُرَصُ نجاتها معدومة تمامًا! سيُعدَم شنقًا يا سيدي، سيُعدَم موكِّلُك شنقًا!»

رد بريريتون بحسم: «تشبيهك في غير محله يا سيد بيت.» وأضاف: «يُقال إن للقطط سبعة أرواح.»

قال بيت بمرح: «قطة، فأر، جرذ، كلب، أيًّا ما كان، فُرصُه معدومة تمامًا يا سيدي.» وأضاف: «أعرف ما ستقوله هيئة المحلَّفين. لو كنتُ ممَّن يراهنون يا سيد بريريتون — وهو أمرٌ لا أفعله؛ لأني ممن يرتادون الكنيسة بانتظام — كنتُ سأراهنكَ بعشرة جنيهات مقابل جنيهٍ واحد على أن هيئة المحلَّفين لن تغادر المنصَّة مطلقًا يا سيدي!»

أجاب بريريتون: «لا، لا أظن أنهم سيفعلون ذلك؛ عندما يُوضَع الرجل المناسب في قفص الاتهام يا سيد بيت.»

تراجع بيت ونظر إلى المحامي الشاب مُباشرةً بتعبير يمزج بين السخرية والجدية.

وصاح قائلًا: «هل تقصد أن تقول إنك تعتقد حقًّا أن هذا الرجل بريء، يا سيد بريريتون؟» وتابع: «أنتَ من تقول هذا! بكل معرفتك بالإجراءات الجنائية! أوه، بربك، يا سيد بريريتون؛ إنه لطفٌ شديد منك، وشهامةٌ شديدة، كما أُسمِّيها، ولكن ...»

قال بريريتون: «سترى»، واستدار مُولِّيًا إياه ظهره. لم يكن ينوي أن يعامل بيت بما هو أكثر من التحضر، وعبس عندما وضَع بيت، في أوج حماسه، يدَه على عباءته وأمسك بها. فأردَف قائلًا بقليلٍ من نفاد الصبر: «لن أناقش ذلك، يا سيد بيت.» وأضاف: «لديَّ رأيي الخاص في القضية.»

قال بيت بلهفة: «ولكن، ولكن، لحظة يا سيد بريريتون!» واستطرد: «فيما بيننا فقط — حسنًا، ليس بصفتِنا محاميَين، ولكن بصفتنا رجلَين محترمَين. هل تظن أنه من المُمكن أن يكون الفاعل شخصًا آخر؟ هل تظن ذلك حقًّا؟»

سألَه بريريتون بخبث: «ألم تَقُل قريبتُك الموقَّرة، كما تدعوها، أنني ألمحتُ إلى أنها قد تكون المُذنبة؟» وتابَع: «بربِّكَ يا سيد بيت! إنك لا تَعرف كل ما أعرفه!»

تراجع بيت إلى الوراء، وهو يُحدِّق بشك في شفة بريريتون الملتوية، متسائلًا عما إذا كان يجب أن يأخذ كلامه على محمل الجدِّ أم لا. ضحك بريريتون وانطلق مبتعدًا، ولكن بعد مرور خمس دقائق، جال في خاطره أن هذا لم يكن أمرًا مُضحكًا لهاربورو وابنته، وغرق مرةً أخرى في متاهة الأفكار التي كان يَصعب بشدةٍ استقاء أي شيءٍ منها يُمكن أن يبدو مفيدًا.

أجرى مقابلة مع هاربورو مرةً أخرى قبل أن يُعيدوه إلى نوركاستر، ومرةً ثانيةً ألحَّ عليه أن يتكلَّم، ومرةً ثانيةً أبدى هاربورو رفضًا قاطعًا.

قال بحزم: «ليس إلا إذا ساءت الأمور إلى أقصى حد، يا سيدي، وعندئذٍ فقط قد أتراجع عن قراري إن وجدتُ أنه لا تُوجد وسيلةٌ أخرى، وحتى حينئذٍ، سأفعل ذلك من أجل ابنتي فقط. ولكن لن تصل الأمور إلى هذا الحد! ما زال أمامنا ثلاثة أسابيع، وهو أمرٌ جيد، وإذا لم يتمكَّن أحدٌ من الوصول إلى الحقيقة خلال ثلاثة أسابيع ...»

صاح بريريتون قائلًا: «عجبًا!» وتابع: «لا بد أن يخبرك منطقك السليم أنه في مثل هذه القضايا ثلاث سنوات لا تكفي للوصول إلى الحقيقة! ماذا الذي يُمكنني فعله في ثلاثة أسابيع؟»

أجاب هاربورو: «لستَ وحدكَ يا سيدي.» واستطرد: «تُوجد الشرطة والمحقِّقون والـ...»

رد بريريتون بحدة: «الشرطة والمحقِّقون يبذلون قُصارى جهدهم لإلصاق الجريمة بك!» وأردَف: «هذا ما يفعلونه بالطبع! تلك هي طريقتُهم. هل تظُن أنهم عندما يضمنون أنهم وضعوا أيديهم على رجل، سيبحثون عن آخر؟ إن لم تخبرني بما كنتَ تفعله، وأين كنتَ في تلك الليلة، حسنًا، سيتوجَّب عليَّ أن أكتشف ذلك بنفسي.»

رمَق هاربورو مُحاميَه بنظرةٍ غريبة لم يستطع بريريتون فهمها.

وقال: «أوه حسنًا!» وتابَع: «إن اكتشفتَ ذلك ...»

قطع حديثه عند ذلك، ولم يقل أكثر من هذا، فتَركَه بريريتون في الحال وسار إلى المنزل وهو يُفكِّر بعمق في كلمات السجين الأخيرة.

قال متأملًا: «إنه يَعترف بأن ثَمَّةَ شيئًا يتعيَّن أن يُكتشَف.» وتابَع: «ويُلمح ضمنيًّا بهذا الاعتراف إلى أن اكتشافه مُمكن. والآن، كيف؟ أوه! إنني مستعدٌّ لتقديم أي شيء لقاء الحصول على أي معلومةٍ مهما كانت ضئيلة!»

فتحَت خادمة الاستقبال في منزل بينت الباب لبريريتون، واتجهَت نحو دُرجٍ مغلَق في خزانة الملابس القديمة الموضوعة في رَدْهة بينت، وأخذَت منها خطابًا مُسجلًا.

وقالت وهي تُسلِّمه إلى بريريتون: «إنه مُرسَل لك يا سيدي.» وأردفَت: «وصل في بريد الظهيرة، يا سيدي. لقد وَقَّعَت مدبِّرة المنزل لاستلامه.»

أخذ بريريتون الرسالة إلى غرفة التدخين ونظر إليها وقد انتابه حدْسٌ مفاجئ أنها قد تكون ذات صلةٍ بالمسألة التي كانت تشغل باله كثيرًا. لم يكن ينتظر أي خطابٍ مُسجَّل، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن أي شيء يمكن أن يدفع أيًّا من مُراسليه لإرسال خطابٍ مُسجَّل. لم يكن مُمكنًا التعرُّف على خطِّ يد المرسل؛ لأن العنوان كان مكتوبًا بالآلة الكاتبة. وكان ختم البريد هو الخاص بلندن.

قطَع بريريتون غطاء الظرف بعنايةٍ وفتحه، ثم سحَب ورقةً مربعةً مكتوبة بالآلة الكاتبة ومطويةً حول رزمةٍ رفيعة من أوراق بنك إنجلترا النقدية. حَلَّ الرزمة على الفور وألقى عليها نظرةً سريعة. كانت تُوجد ست رُزَم نقدية؛ كلها جديدة تمامًا، وكل واحدة منها قيمتها مائة وخمسون جنيهًا إسترلينيًّا.

وضَع بريريتون هذه النقود جانبًا وفتح الرسالة. كانت هي الأخرى مكتوبة على الآلة الكاتبة؛ وبمجرد نظرةٍ سريعة على خاتمتها، تبيَّن أنها كانت من مجهول. جلس على مكتب بينت وقرأ الرسالة بعناية.

لم يكن يُوجد عنوان؛ لم يكن يُوجد أي شيء يُوضِّح مصدر الرسالة بخلاف الختم البريدي على الظرف؛ ولم يكن يُوجد أي شيء على الإطلاق في محتواها يمكن أن يعطي أي دلالةٍ على المرسِل. ولكن الصياغة كانت واضحةً وصريحة.

> «السيد جيفورد بريريتون، بعد أن عرفتُ من الصحف أنك المُستشار القانوني لجون هاربورو المتهم بقتل رجلٍ يُدعى كايتلي في هاي ماركت، أُرسِل إليك مبلغ ٩٠٠ جنيهٍ إسترليني لتستخدمه في تدعيم الدفاع عنه. لك أن تَستخدم هذا المبلغ كما يتراءى لك تمامًا. لا تدَّخر مالًا ولا جهدًا في إثبات براءة هاربورو، المتيقَّنة للمُرسِل. كلما احتجتَ إلى المزيد من الأموال، كل ما عليك فعله هو إدراج إعلانٍ في العمود الشخصي لصحيفة التايمز نصه: «تحتاج خزينة هاي ماركت إلى سدِّ العجز»، مع إضافة الأحرف الأولى من اسمك. اسمح لي أن أقترح عليك أن تَعرض على الفور مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيهٍ إسترليني لمن يُدلي بمعلوماتٍ تقود إلى القبض على القاتل أو القتَلَة الحقيقيِّين وإدانتهم. إذا فشل هذا العرض في جلب المعلومات بسرعة، فضاعِف المكافأة. أُكرِّر أنكَ لا بد ألا تدَّخر جهدًا حيال هذا الأمر، وأن أيَّ قَدْر من المال مهما كان، لا يُمثِّل مشكلة. سيظل مُرسِل هذه

الرسالة على اطلاعٍ جيد بتطوُّر الأحداث كما ستَرِد في الصحف، التي ستحرص أنت على أن تُقدِّم لها كل المعلومات المناسبة.»

تصفَّح بريريتون هذه الرسالة الاستثنائية ثلاث مرات؛ ثم وضع الرسالة والأوراق النقدية في الظرف، ووضعه في جيبٍ داخلي، وغادر المنزل، وسار إلى الجهة المقابلة حيث تقع فيلَّا آل نورثروب، وطلب رؤية أفيس هاربورو.

أقبلَت أفيس لمقابلته في صالون السيدة نورثروب، وألقى بريريتون نظرةً فاحصة عليها وهي تدخل، ورأى أنها كانت تبدو مُرهَقةً وشاحبةً. وضع الرسالة في يدها بكلماتٍ موجزة.

قال: «يَحظى والدُكِ بصديقٍ ذي نفوذ في مكانٍ ما.»

وأدهشَه أن الفتاة لم تُبدِ دهشةً كبيرة. جفلَت قليلًا عندما رأت المال؛ وتورَّدتْ وجنتاها عندما قرأَت إحدى الجمل في الرسالة. ولكنَّها قرأَتها دون إبداء تعليقٍ وأعادتها إليه بنظرةٍ متسائلة.

قال بريريتون: «لا يبدو أنكِ متفاجئة!»

فأجابت: «لطالَما كان الكثير من الغموض يُحيط بوالدي لدرجة أنني لم أتفاجأ. لا! إنني ممتنَّة فحسب! ممتنَّة لهذا الرجل، أيًّا كان؛ لأنه يقول إنه مُوقن بأن والدي بريء. وذلك ... فكِّر فحسبُ فيما يَعنيه هذا لي!»

سألها قائلًا: «لماذا إذن لا يتقدم ويثبت ذلك؟»

هزَّت أفيس رأسها.

وأجابت: «إن أبي ... إنهم ... يُريدون إثبات براءته من دون ذلك.» واستطردَت: «ولكن ألا تظُن أنه إن فشلَت كل المحاولات، فسيتقدَّم هذا الرجل الذي كتب هذه الرسالة؟ أوه، بالتأكيد سيفعل!»

وقف بريريتون بصمتٍ ينظر إليها لدقيقةٍ كاملة. فمنذ أول لقاءٍ جمعه بها، شعر بانجذابٍ شديد وغريب تجاه ابنة موكِّله، وبينما كان ينظر إليها الآن، بدأ يُدرك أنه ربما يكون مهتمًّا بها أكثر مما كان يُدرك.

صاح فجأة: «إن لغز والدكِ هو أغرب لغزٍ صادفتُه على الإطلاق!» ثم نظر إليها بتفحُّصٍ أكثر. وقال بتهوُّر: «إنكِ قلقة!» ثم أردَف، «لا تَقلقي! أرجوكِ. سأفعل المستحيل، لأنني شخصيًّا مقتنع تمامًا ببراءة والدكِ. وها قد تلقَّينا مساعدةً قوية.»

سألَتْه قائلة: «هل ستَفعل ما اقتُرحَ هنا في الرسالة؟»

فأجاب: «بالتأكيد! إنها فكرةٌ عظيمة!» وتابَع: «كنتُ سأفعلها بنفسي لو كنتُ ثريًّا، ولكنَّني لستُ كذلك. هيا، ابتهجي! إننا نُحرِز تقدمًا رائعًا. انظري، اطلبي من السيدة نورثروب أن تسمح لكِ بالخروج معي. سنذهب إلى المحامي العام للبلدة، معًا، وسنَعرض تلك المكافأة على الفور.»

بينما كانا يسيران بعد قليل إلى البلدة، رمق بريريتون أفيس بنظرةٍ أخرى من نظراته الفاحصة الحادة.

قال بأسلوبه الذي يتَّسم بالفظاظة إلى حدٍّ ما: «إنكِ تشعرين بتحسُّن.» وأردَف يسأل: «هل هذا بسبب هذه الأخبار الجيدة؟»

أجابت: «لذلك السبب، وللشعور بأنني أصنع فارقًا.» واستطردَت: «إن لم أكن أبدو على ما يُرام عندما جئتَ للتو، فذلك لأن الجلوس بلا حَراكٍ أمرٌ سيئ لي. أريد أن أفعل شيئًا! أريد أن أساعد. ليتني حرَّة الحركة. هل تفهمني؟»

أجاب بريريتون: «أفهمك تمامًا! ويُوجد شيء يمكنكِ فعله. رأيتكِ تقودين دراجة بالأمس. لم لا تتوقَّفين عن التدريس لبعض الوقت وتجوبين الريف بحثًا عن بعض الأخبار التي تخصُّ تحرُّكات والدكِ في تلك الليلة؟ إن امتناعه عن إخبارنا بأي شيء ليس سببًا لئلا نُحاول أن نكتشف شيئًا بأنفسنا. لا بُد أنه كان في مكانٍ ما — لابد أن أحدهم قد رآه! لماذا لا تبدئي في التحقق من الأمر؟ إنكِ تعرفين المنطقة. ما رأيكِ في ذلك؟»

أجابت قائلة: «سأكون في غاية الامتنان.» وتابعَت: «وسأفعل ذلك. آل نورثروب لُطفاءُ للغاية، وسيتفهَّمون الأمر، وسيَسمحون لي بالذهاب. سأبدأ على الفور، غدًا. سأتحقَّق في كل قرية تقع بين البحر والتلال!»

قال بريريتون: «جيد!» واستطرَد: «بإنجاز بعض العمل من هذا النوع، وبهذه المكافأة، سيكون كل شيء على ما يُرام، سترين.»

قالت أفيس: «لا أعرف ماذا كنا سنفعل لو لم تكن موجودًا!» وأضافت: «ولكن، ينبغي ألا ننسى. والدي رجلٌ غريب الأطوار، يا سيد بريريتون، ولكنه ليس كما يَعتقد الناس هنا في هاي ماركت، وهو ممتنٌّ لك، كما سترى.»

أجاب بريريتون: «لكن يجب أن أفعل شيئًا أولًا لأستحقَّ امتنانه، كما تعلمين.» وأردَف: «بربِّكِ! إنني لم أفعل شيئًا تقريبًا حتى الآن. ولكنَّنا سنبدأ بدايةً جديدةً بهذه المكافأة، إذا وافق محامي الإجراءات الخاص بوالدكِ.»

وافق المحامي بالفعل — وافق بشدة. وفتح عينَيه على اتساعهما بذهولٍ عندما قرأ الرسالة المجهولة ورأى الأوراق النقدية.

أشار قائلًا إلى أفيس: «والدكِ هو أكثر الرجال الذين سمعتُ بهم على الإطلاق غموضًا! في رأيي، لغز مقتل كايتلي لا يُضاهي الغموض الذي يحيط بهاربورو. هل تقصدين حقًّا أنكِ ليست لديكِ أدنى فكرة عما يعنيه هذا كله؟»

أجاب أفيس قائلةً: «أجل، ليست لديَّ أدنى فكرة!» وأردفَت: «ولا حتى تصوُّر عن فكرة.»

قال محامي الإجراءات الخاص بهاربورو: «حسنًا، سنَنشُر هذه المنشورات وسنُوزِّع هذه النشرات الإعلانية على أي حالٍ يا سيد بريريتون.» وأضاف: «إن خمسمائة جنيهٍ إسترليني مبلغٌ جيد. ليباركك الرب! بعض الناس هنا في هاي ماركت مستعدُّون لبيع أمهاتهم لقاء نصف هذا المبلغ! سيتحوَّل سكان البلدة كلهم إلى مُحقِّقينَ هواة. والآن دعنا نُعِدَّ الصياغة بدقة، ثم سنتدبر أمر المطبعة.»

في اليوم التالي، عُلِّقَ المُلصَق الإعلاني في هاي ماركت مصحوبًا بإعلان المكافأة، ووُزِّع على نطاقٍ واسع في المتاجر والمكاتب، وكان هربرت ستونر، الموظف لدى مالاليو وكوذرستون، من أوائل الناس الذين حصلوا على أحد هذه المنشورات.

الفصل الرابع عشر

منشور المكافأة

في ذلك الوقت، كان ستونر قد أمضى في العمل لدى مالاليو وكوذرستون نحو خمس أو ست سنوات. كان في السابعة والعشرين من عمره عندما باشر العمل لديهما. كان شابًّا يتمتع بقَدْر من الكفاءة، وقوة الملاحظة، واليقظة، والسرعة في التعامل مع الأرقام، وكان جيدًا في التعامل مع المراسلات، ودقيقًا في المواعيد، ومُستعدًّا لأي شيء؛ فقد كان يمكنه إدارة العمل في غياب مالكَيه. وقد قدَّر الشريكان ستونر، وزادا راتبه تدريجيًّا حتى وصل إلى جنيهَين واثنَي عشر شلنًا وستة بنسات في الأسبوع. من وجهة نظرهما، كان يُمكن لأيِّ شابٍّ عازب أن يعيش بشكلٍ جيد جدًّا بهذا المبلغ؛ إذ إن كليهما، مالاليو وكوذرستون، عاشا بشكلٍ جيد للغاية بمرتباتٍ أقل عندما كانا موظفَين في ذلك الماضي البعيد المندثر الذي لم يعودا يهتمان بالتفكير فيه. ولكن ستونر كان شابًّا ذا ذوقٍ رفيع. كان يُحب أن يرتديَ ملابسَ جيدة. وكان يُحب لعب الورق والبلياردو. وكان يُحب احتساء كأس أو اثنتَين في حانات هاي ماركت في إحدى الأمسيات، وأن يكون قادرًا على تقديم عُلب الشوكولاتة أو القفَّازات بين الحين والآخر إلى نادلاته المفضَّلات، ولكن دون إسراف. كان يرى أن راتبه ليس كبيرًا على الإطلاق، وكان دائمًا يبحث عن فرصة لزيادته.

خرج ستونر من مكتب مالاليو وكوذرستون في وقته المعتاد؛ أي في الخامسة والنصف من بعد ظهر اليوم الذي وزِّعَت فيه منشورات المكافأة. كان من عادته الذهاب إلى حانة «جراي مير» كل مساء في طريقه إلى تناوُل العشاء، حيث كان يحتسي نصف باينت من البيرة ويسمع أخبار اليوم من العديد من أصدقائه الذين كان يُقابلهم في ركنٍ في الحانة مخصَّص للزبائن المفضَّلين. أثناء عبوره الشارع في طريقه إلى الحانة في هذا المساء، جاء بوستيك، مُلصِقُ المنشورات المحلي، مسرعًا من متجر الطباعة حاملًا تحت ذراعه مجموعةً

من الأوراق المخصَّصة للتوزيع يدويًّا، وبينما كان يسرع متجاوزًا ستونر، دفع باثنَين منها في يده.

قال بوستيك دون أن يتوقَّف: «خذ، يا سيد ستونر!» وتابَع: «إليكَ هذه كي تشحذ أفكارك وتستخدم ذكاءك في حلِّها. مكافأة قيمتُها خمسمائة جنيه مقابل بعض المجهود الذهني!»

كان ستونر، الذي ظن أن بوستيك يضايقه، على وشك رمي المنشورات، التي كانت لا تزال رطبةً من الطابعة، في البالوعة التي كان يخطو فوقها. ولكن على ضوء مصباحٍ قريب، رأى كلمة «جريمة قتل» مطبوعةً بأحرفٍ كبيرة لا تُخطئها العين أعلى الورقة. وأسفلها رأى المزيد من الأسماء المألوفة، فطوى الورقة وذهب إلى «جراي مير»، وجلس في زاويةٍ هادئة، وقرأ الإعلان بعناية. لقد كان إعلانًا شديد البساطة وذا صياغةٍ سهلة وواضحة. سيدفع السيد تالينجتون، المحامي العام لهاي ماركت، خمسمائة جنيهٍ إسترليني لأي شخصٍ أو أشخاصٍ يُدلون بمعلوماتٍ من شأنها أن تؤدي إلى اعتقال وإدانة قاتل أو قتَلَة الراحل كايتلي.

كان الركن الخاص في حانة «جراي مير» خاليًا عندما دخله ستونر أولًا، ولكن بعدما أعاد قراءة المنشور، كان رجلان أو ثلاثة من رجال البلدة قد دخلوا، ورأى أن كلًّا منهم كان يحمل نسخةً منه. كان أحدهم، وهو تاجرٌ صغير يقع متجره في وسط ساحة السوق، يتكئ على منضدة الحانة ويقرأ شروط المكافأة جهرًا.

سأل بطريقةٍ شبه ساخرة: «ومَن قد يكون صاحب هذا المال؟» واستطرد: «مَن الذي يُبدِّد المال بهذا السخاء؟ لا بد أن أعرف ما إذا كان ذلك المال مضمونًا قبل أن أُضيعَ وقتي في محاولة الحصول عليه.»

قال أحد رفاق المتحدث: «المال سيكون مضمونًا.» وتابع: «اسم المحامي العام تالينجتون مدوَّن في أسفل تلك الورقة. لم يكن سيَضع اسمه على عرضٍ من هذا القبيل لو لم يكن لديه المال بالفعل.»

تساءل المتحدث الأول قائلًا: «مالُ مَن إذن؟» وأضاف: «إنها ليست مكافأةً حكومية. يقولون إن كايتلي لم يكن له أيُّ أقارب؛ لذا لا يمكن أن يكونوا هم مَن رصدوا هذه المكافأة. ولا يمكن أن تكون مدبرة منزله العجوز تلك؛ لأنهم يقولون إنها مُقتنعة تمامًا أن جاك هاربورو هو القاتل، وسعيدة بأنهم قبضوا عليه. أقول إن الأمر برمَّته غريب!»

قال ثالث: «مسألة المكافأة هذه هدفها مصلحة هاربورو.» وأردَف: «إما هذا، أو أن سببًا آخر شديد الغموض يتعلَّق بهذا الأمر. شخصٌ ما غير راضٍ عما يحدث، ومستعدٌّ

لتقديم المال بسخاء لاكتشاف الحقيقة.» ثم استدار ونظر إلى ستونر، الذي كان قد جاء إلى الحانة لاحتساء نصف باينت من البيرة كما هو معتاد. وسأله قائلًا: «هل لرئيسَيك علاقةٌ بهذا؟» وتابَع: «لقد كان كايتلي مُستأجرًا لدى السيد كوذرستون بالطبع.»

ضحك ستونر بازدراء وهو يحمل كوبه الكبير.

وقال ساخرًا: «حسنًا، لا أظن ذلك!» وأضاف: «لا يُمكن أن يهدر أيٌّ منهما خمسمائة بنس، أو حتى خمسة بنسات، بهذه الطريقة! لا يمكن!»

قال أحد الرجال: «حسنًا، اسم تالينجتون يدعم صحة المسألة.» واستطرَد: «فكلنا نعرف تالينجتون. إنه يفعل ما يقوله. سيَحصل من يستحق على هذا المال.»

ثم تبادلوا جميعًا النظرات بصمت، والتخمين والتفكير باديان في عيون كل واحدٍ منهم.

فجأةً علَّق التاجر الصغير، وكأنما خطرت له فكرةٌ عبقرية: «اسمعوا!» وأضاف: «قد يكون بينت الشاب! خمسمائة جنيه لا تُمثل له شيئًا. إن المحامي اللندني الشاب الذي يتولى الدفاع عن هاربورو مُقيم في منزل بينت؛ فهما أصدقاءُ دراسةٍ قدامى. ربما أقنع بينت بأن يُقدِّم المال بسخاء؛ إنهم يقولون إن ذلك المحامي مقتنع اقتناعًا تامًّا بأن هاربورو بريء. لا بد أن هذا مالُ بينت!»

سأل أحد أفراد الجمع الشباب، وهو يغمز لنادلة المشرب، التي بعد أن قدَّمتْ لزبائنها ما يحتاجونه، كانت منحنيةً على نسخة من المنشور كان أحدهم قد تَركَها على المشرب: «ما رأي بوبسي؟» وأضاف: «مالُ مَن هذا يا بوبسي؟»

اعتدلَت نادلة المشرب في وقفتها، وأمسك بكوب وقطعة قماش، وبدأَت تُلمِّع الكوب بنشاط.

كرَّرتْ قوله: «ما رأي بوبسي؟» وأردفَت: «عجبًا، رأيها أنكم حفنة من الحمير لأنكم تُضيِّعون وقتكم في التساؤل عن هوية صاحب المال. ما أهمية هوية صاحب المال، ما دام مضمونًا؟ ما تريدون فعله هو أن تُحاولوا أن تَجْنوه. المرء لا يَجني خمسمائة جنيه كل يوم!»

قال رجل في الجمع: «إنها محقة!» وأضاف: «ولكن ... كيف يُمكن لأي أحدٍ أن يشرع في تلك المهمة؟»

علَّق التاجر الصغير: «سيُوجد العديد من المبادرين، عن كل ذلك، يا رفاق!» وأضاف: «لا تخافوا أبدًا! سيُوجد مرشَّحون.»

تجرَّع ستونر البيرة من كوبه وغادر. عادةً؛ كونَه كان يهتمُّ بالقيل والقال، كان يتوقَّف للثرثرة مع أي شخصٍ يتصادف أن يلتقي به حتى يقترب وقتُ عَشائه. ولكن الملاحظة الأخيرة حثَّتْه على المغادرة. وذلك لأن ستونر كان ينوي أن يكون أحد المُبادِرين، ولم يكن يرغب في أن يسبقه أي أحد.

كان السكن الذي يمضي فيه ستونر أيام عزوبيته هادئًا ومحترمًا للغاية. كانت لديه غرفتان صغيرتان؛ غرفة استقبال وغرفة نوم، في منزل أرملة كان يُقيم لديها منذ مجيئه إلى بلدة هاي ماركت، من قرابة ستِّ سنوات. كان يحتفظ في غرفة الاستقبال الصغيرة ببضعة كتب وطاولة كتابة، وفي تلك الأمسيات التي لم يكن يُمضيها في لعب الورق أو البلياردو، كان يمارس القليل من الجهد الذهني في سبيل تحسين معرفته باللغة الفرنسية، والحسابات التجارية، والمراسلات الرسمية للأعمال التجارية. وفي تلك الليلة، بعد أن تناوَل العشاء، وأغلق الباب في وجه صاحبة المسكن، أشعل غَلْيونه، وجلس إلى طاولته، وفتح أحد أدراجها، ومن صندوق مِلفَّاتٍ قديم أخرج بعض الأوراق. وضع إحدى هذه الأوراق أمامه، وكانت نصف ورقة من ورق الفولسكاب المسطَّر، وأعاد بقية الأوراق إلى مكانها. وبعد ذلك، مسندًا ذَقَنه على يدَيه المطويتَين، أخذ ستونر يتفحص هذه الورقة تفحصًا طويلًا متأملًا.

لو أنَّ أي أحدٍ كان قد نظر من وراء ستونر كان سيراه يُحدِّق في مجموعةٍ كبيرة من الأرقام. كانت نصف ورقة الفولسكاب مُغطَّاة بالأرقام، امتدَّت الأرقام إلى الناحية الخلفية. وما لم يكن من الممكن لأي مُتلصِّص أن يعرفه، ولكن ستونر كان يَعرفه جيدًا، هو أن الأرقام كلها كانت بخط يد كوذرستون؛ أرقامٌ جلية واضحة مكتوبة بشكلٍ جيد. وكانت تُوجد كلمةٌ واحدة مشخبطة بخط يد كوذرستون وسط الأرقام، وعلى أطراف الورقة، وهنا وهناك، كما لو كانت مكتوبة بلا قصد أو مبالاة، ومُكرَّرة مرارًا وتكرارًا. تلك الكلمة كانت ... «ويلشستر».

كان ستونر يعرف كيف صارت نصف ورقة الفولسكاب تلك في حوزته. كانت نصف ورقة كان قد وجدَها على مكتب كوذرستون عندما دلف إلى غرفة الشريكَين الخاصة ليُرتِّبها في صباح اليوم التالي لمقتل كايتلي. كانت موضوعةً هناك، مُلقاة بلا اعتناءٍ وسط أوراقٍ أخرى ذات معنًى أوضح، وبعد أن ألقى ستونر عليها نظرةً سريعة، طواها بعناية، ووضعها في جيبه، وأخذها معه إلى البيت، ووضعها في الدُّرج وأوصَده عليها، كي يتفحَّصها لاحقًا على مهل.

كانت لديه أسبابه، بالطبع، لاستلاب هذه الورقة التي كانت بحقٍّ تخُص كوذرستون. كان تفسير تلك الأسباب لنفسه صعبًا قليلًا من ناحية، وسهلًا من ناحيةٍ أخرى. فيما يتعلق بالصعوبة، كان ستونر بطريقة أو بأخرى قد راودَتْه فكرةٌ غير واضحة، في تلك الأمسية التي وقعَت فيها جريمة القتل، مفادها أن خطبًا ما قد ألمَّ بكوذرستون. كان قد لاحظ، أو تصوَّر أنه لاحظ، نظرةً غريبةً على وجه كايتلي العجوز عندما غادر المحقِّق السابق الغرفة الخاصة؛ كانت نظرة رضًا هادئ، أو انتصار، أو خبث؛ قال ستونر لنفسِه إنها، أيًّا كانت، كانت شيئًا ما. ثم كانت ثَمَّةَ حقيقة شرود ذهن كوذرستون الغريب عندما دخل ستونر ووجد ربَّ عمله جالسًا في الظلام، بعد وقتٍ طويل من مغادرة كايتلي؛ كان كوذرستون قد قال إنه كان نائمًا، ولكن ستونر عرف أن تلك كانت كذبة. إجمالًا، كان ستونر قد راوَدَه شعورٌ مبهم، حدْسٌ غريب، بأنه كان ثَمَّةَ أمرٌ غريب، له صلةٌ بزيارة المستأجِر الجديد لدى كوذرستون، وعندما سمع، في الصباح التالي، بما حاق بكايتلي، تجدَّدتْ كل شكوكه.

هذا هو كل ما يمكن أن يُقال عن الأسباب الصعبة التي كانت قد جعلَتْه يستولي على نصف ورقة الفولسكاب. ولكن كان يُوجد سبب لم يكن صعبًا. كان يكمن في وجود كلمة «ويلشستر». إن لم يكن ستونر على أعظم درجة من الذكاء، فقد كان بعيدًا كل البعد عن أن يكون أحمق، ولم يستغرق وقتًا طويلًا ليُفسِّر لنفسه السبب في أن كوذرستون كتب بغير عنايةٍ اسم تلك البلدة الريفية الواقعة في أقصى الجنوب في أرجاء تلك الورقة، بلا هدف، وعلى ما يبدو بلا سبب، وسط تلك الأرقام التي كتبَها. كانت هي المُسيطِرة على أفكاره في ذلك الوقت، وبينما كان جالسًا هناك، والقلم في يده، أخذ يكتبها، في شرود، مرارًا وتكرارًا ... هكذا كانت ... ويلشستر ... ويلشستر ... ويلشستر.

كان التكرار مثار اهتمامٍ غريب لدى ستونر. لم يكن قد سبق له أن سمع كوذرستون أو مالاليو يذكران ويلشستر في أي وقتٍ منذ قدومه لأول مرة إلى مكتبهما. لم يكن للشركة أي تعاملاتٍ مع أي شركة في ويلشستر. كان ستونر، الذي تعامل مع كل مراسلات مالاليو وكوذرستون، يعرف أنه خلال فترة الخمس سنوات ونصف التي أمضاها موظَّفًا لديهما، لم يسبق له أن أرسل خطابًا واحدًا إلى أي أحدٍ في ويلشستر، ولا تلقَّى على الإطلاق خطابًا واحدًا يحمل ختم بريد ويلشستر. كانت ويلشستر تبعُد أربعمائة ميل، بعيدًا في الجنوب؛ ولم يكن تسعة وتسعون شخصًا من كل مائة شخصٍ من سكان هاي ماركت قد سمعوا من قبلُ باسم ويلشستر. لكن ستونر كان قد سمع به من قبلُ، ليس فحسبُ في كتب

التاريخ، وفي كتب الجغرافيا، وخريطة إنجلترا. كان ستونر نفسه من دارلينجتون. وكان لديه صديقٌ مقرب، صديقٌ حميم، في دارلينجتون، يُدعى مايلر، ديفيد مايلر. في ذلك الوقت كان ديفيد مايلر تاجرًا مُتجولًا؛ كان شخصًا ذكيًّا من عمر ستونر. كان يعمل لحساب شركة في دارلينجتون تعمل في مجال تصنيع المعدَّات الزراعية، وكانت جَولتُه تحديدًا في البلدات التي تُقام فيها الأسواق المركزية في جنوب وجنوب غرب إنجلترا. كان يُمضي شطرًا كبيرًا من العام في تلك الأقاليم، وكانت ويلشستر واحدةً من المراكز الرئيسية الأساسية له؛ كان لدى ستونر عشرات الرسائل من مايلر، والتي كان مايلر قد كتبها له من ويلشستر. وقبل عامٍ فقط من كل هذا، كان مايلر قد تزوَّج فتاة من ويلشستر، ابنة تاجر من ويلشستر.

لذا كان اسم ويلشستر مألوفًا جدًّا لستونر. والآن كان يُريد أن يعرف ما الذي ... ما الذي ... ما الذي جعله مألوفًا جدًّا لكوذرستون لدرجة أن كوذرستون بشرود ذهنٍ أخذ يخطُّه في أرجاء نصف ورقة الفولسكاب؟

ولكن ماذا عن الأرقام؟ هل كان لها أي صلة بالكلمة. كان هذا هو السؤال الذي سأله ستونر لنفسِه عندما جلس تلك الليلة في غرفة استقباله ليفكر بجدية إن كانت لديه أي فرصة للفوز بجائزة الخمسمائة جنيه. نظر إلى الأرقام مجدَّدًا، بتمعُّنٍ أكبر. في حقيقة الأمر لم يكن حتى تلك الأمسية قد أولَى قدْرًا كبيرًا من الانتباه لتلك الأرقام؛ كانت كلمة ويلشستر هي التي استحوذَت على اهتمامه. ولكن الآن، مستحضرًا لمساعدته كل معرفته الحسابية التي لم تكن قليلةً على الإطلاق، ركَّز ستونر جهده في اكتشاف ما كانت تعنيه تلك الأرقام. كان يعرف دومًا أنها حساباتٌ من نوعٍ ما؛ والآن كان يُريد أن يعرف أي نوعٍ من الحسابات.

أتاه حل المشكلة بغتة؛ كما يأتي عادةً حل المسائل الحسابية. رأى الأمر كله بوضوح تام وتعجَّب لماذا لم يَرَه من أول وهلة. لم تكن الأرقام تُمثِّل أي شيء سوى ثلاثة مبالغَ واضحة وعادية، في حسابٍ مركب. كان كوذرستون، لسببٍ خاص به، قد أخذ مبلغ ألفَي جنيه أساسًا، وحسب (أولًا) ما ستُساويه فائدةٌ بنسبة ثلاثة ونصف في المائة لمدة ثلاثين عامًا على أساس ذلك المبلغ؛ و(ثانيًا) ما ستُساويه فائدةٌ بنسبة خمسة في المائة لمدة ثلاثين عامًا؛ و(ثالثًا) ما ستساويه الفائدة المركَّبة لألفَي جنيه — رأس المال والفائدة المركَّبة — في نفس المدة. كان الحساب الأخير — الفائدة المركَّبة — مشطوبًا بجرَّاتِ قلمٍ قوية، كما لو

كان من يُجري العملية الحسابية قد فزع عند اكتشافِ ما سوف يتحوَّل إليه المبلغ الأصلي الذي قيمته ألفا جنيه، إذا ما وُضِع بفائدةٍ مركَّبة لمدة ثلاثين عامًا، في نهاية تلك المدة.

كل هذا كان مبهمًا جدًّا لستونر كاللغة اليونانية. لكنه كان يعرف أنه كان يُوجد فيه شيءٌ ما؛ شيء تُخفيه تلك الأرقام. ربما كانت تُشير إلى بعض الأعمال المالية للمجلس البلدي؛ كونَ كوذرستون أمين خزانة البلدة. ولكن، قد لا تكون كذلك. ولماذا كانت مختلطة بكلمة ويلشستر؟

للمرة الأولى نوعًا ما، لم يتجوَّل ستونر في الخارج في تلك الليلة. عادةً، حتى عندما كان يُمضي بعض الوقت في مكانٍ ما في إحدى الأمسيات، كان آخر ما يفعله قبل أن يأوي إلى الفراش هو أن يَمضي في نزهةٍ قصيرة إلى حانة «جراي مير». ولكن هذه المرة نسي كل شيء عن حانة «جراي مير»، ولم تَخطُر بوبسي نادلة المشرب على باله ولو حتى لثانيةٍ واحدة. جلس في البيت، وقدماه على حاجز المدفأة، وعيناه مثبَّتتان على جمرات الفحم الآخذة في الخمود في موقد المدفأة. كان يفكر ... وأمعن في التفكير حتى إنه نسيَ أن غَلْيونه قد انطفأ. كانت نار المدفأة قد انطفأَت هي الأخرى، عندما نهض أخيرًا وأوى إلى الفِراش. وتابَع التفكير لوقتٍ طويل بعد وضع رأسه على وسادته.

أخيرًا، قال بتفكُّر: «حسنًا، غدًا يوم السبت، على أي حال.» وتابَع: «وهو من حسن ظني.»

في اليوم التالي؛ كونَه كان يوم السبت ونصف اليوم عطلة، ارتدى ستونر أفضل ملابسه، وفي منتصفِ فترةِ ما بعد الظهر، استقل القطار إلى دارلينجتون.

الفصل الخامس عشر

شيء يؤدي إلى آخر

مع أن ستونر كان من دارلينجتون، إلا أنه لم يَعُد لديه أُسرة هناك؛ فقد تُوفُّوا جميعًا. ومن ثَم أقام في فندق رخيص، وبعدما تناول ما أسْماه مالكُ الفندق «وجبة المساء»، خرج مُيمِّمًا وجهه شَطْر هذا الجزء من المدينة الذي أسَّس فيه صديقه مايلر مَسكنًا للزوجية في مبنًى صغير حيث كان يوجد بصعوبةٍ متَّسَع لشخصين للالتفاف. كانت السُّكنى فيه، بالفعل، مثقَلةً بحمل ثقيل في هذا الوقت؛ وذلك لأن والدَي زوجة مايلر قد جاءا لزيارته هو وابنتهما، وعندما دخل ستونر إلى المكان مُضيفًا شخصًا خامسًا، امتلأت حجرة الجلوس الصغيرة لأقصى طاقتها.

قال مايلر بفرح، وهو يُرحِّب بصديقه القديم، ويُقدمه إلى العائلة: «من كان يظن أنني سأراك، يا ستونر!» وأردف: «على أيِّ حال، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أهو العمل؟»

أجاب ستونر: «قليلٌ من العمل فقط.» وتابع: «ليس الكثير؛ فقط مُكالمة سأُجريها في وقتٍ لاحق. ومع ذلك سأُمضي الليلة في البلدة.»

قال مايلر بحزن: «كنتُ أتمنى لو كان بوُسعنا أن نستضيفَك هنا، يا صديقي!» واستطرَد: «لكننا لا نعيش في قلعة، ليس بعد. المكان ممتلئٌ هنا! إلا إذا كنت ترغب في عمل تعديل على طاولة المطبخ، أو في السقيفة الخشبية. أو يمكنك تجرِبة الحمام، إن أردت.»

وسط الضحك الذي أعقبَ هذه المزحة، قال ستونر إنه لا يُريد تعكيرَ صفوِ سلامهم العائلي؛ فقد حجز غرفتَه بالفعل. وبينما انغمس مايلر — الذي، كشأن مندوبي المبيعات، عَمِل على تكوين سُمعة لنفسه بأنه شخصٌ خفيف الظل — في المزيد من النكات، تفحَّص ستونر والد الزوجة خِلسة.

يا لها من صدفة سعيدة! قالها لنفسه؛ يا لها من ضربة حظ! كان يرغب بشدة في أن يعرف شيئًا عن ويلشستر، وها هو يجلس جنبًا إلى جنب معه، أحد رجالات ويلشستر! ها هو رجل من ويلشستر، ومسنٌّ أيضًا؛ إنه بلا شكٍّ يتذكَّر كل شيء عن ويلشستر لسنوات طويلة مضَت. كانت تلك ضربةَ حظٍّ أخرى؛ لأن ستونر كان متأكدًا تمامًا من أنه إن كان لكوذرستون أيُّ علاقة بويلشستر، فلا بد أنها كانت منذ زمن طويلٍ جدًّا؛ إذ كان يعرف، من المعلومات التي حصل عليها، أن كوذرستون كان مستقرًّا في هاي ماركت طيلة ثلاثين سنة.

ألقى نظرةً خاطفة على حَمي مايلر مرةً أخرى بينما كان مايلر — وهو يُعلق قائلًا إنه عندما يلتقي الأصدقاء القدامى يجب أن تتدفَّق الخمر — يُخرج زجاجةَ ويسكي من خِزانة جديدة تمامًا، ويُناشد زوجته أن تأتيَ بما وصفها بطريقة شِعرية بكئوس الكريستال والسائل الفوار. كان والد الزوجة رجلًا عجوزًا صغير الحجم ذا وجهٍ يُشبه التفاحة وعيونٍ مشرقة وابتسامة حاضرة، وكان من الواضح أنه اعتبر صِهره مَرِحًا بالفطرة، فكان مُستعدًّا للضحك على كل تعليقاته. كان رجلًا ذا ذاكرةٍ جيدة، كما قرر ستونر، وتساءل كيف يمكن أن يقود السيد بورسي بطريقة دبلوماسية للحديث عن البلدة التي أتى منها. ولكن السيد بورسي كان سيتحدَّث حالًا عن ويلشستر لغرضٍ ما، ودون أن يُجَرَّ للحديث من قبل ستونر أو أي شخص آخر.

«حسنًا»، علَّق مايلر، بعد أن أمدَّ ضيوفه بالمرطبات الروحية، وأخذ رشفةً من كأسه. وتابع قائلًا: «أنا سعيدٌ برؤيتك، يا ستونر، وكذلك زوجتي، ونأمُل أن تأتيَ مجددًا كثيرًا بقدر ما يَذهب الضِّفدع إلى المياه. لقد حَظِيتَ بالإثارة في تلك البلدة النائية عن العالم، أليس كذلك؟ معارك وجرائم قتل وموت مُفاجئ! مَن كان يظن أن بلدة ريفية عتيقة مملَّة على تلةٍ مثل هاي ماركت يَصدُر منها كلُّ هذا القدر من الإثارة! ماذا حدث لذلك الرجل الذي قبَضوا عليه؟ لم يكن لديَّ الوقت للاطلاع على الصحف في اليوم أو اليومين الماضيَين؛ كنت مشغولًا للغاية.»

أجاب ستونر: «ينتظر المحاكمة.» وأردف: «سيأتي إلى محكمة جنايات نوركاستر الشهرَ المقبل.»

سأل مايلر: «هل يظنُّون أنه فعلها؟» وأضاف: «هل الأمر أكيد؟»

قبل أن يَتمكَّن ستونر من الرد، انضمَّ السيد بورسي إلى ساحة النقاش. وظهرَت على وجهه أماراتُ السعادة التي تبدو على وجه رجلٍ لديه معلومات خاصة.

قال بصوت عالٍ حاد: «إنه أمرٌ غريب، يا ديفيد، غريب جدًّا، أن يحدث هذا عندما أدنو من أماكن تكاد تكون غريبةً عليَّ بقدر جزر فيدجي. حقًّا، يا سيدي»، وتابع، مستديرًا إلى ستونر: «إنه أمرٌ غريب جدًّا! كنت أعرف ذلك الرجل كايتلي.»

كاد ستونر أن يقفز من مقعده، لكنه كبَح جماح نفسه، وحاول ألا يُظهِر انفعالًا يَزيد عن اهتمام مهذَّب.

ثم قال: «حقًّا يا سيدي؟» وأردف: «الرجل البائس الذي قُتِل؟ كنت تعرفه؟»

صادق السيد بورسي على قوله، قائلًا: «أتذكَّره جيدًا جدًّا.» واستطرد: «نعم، مع أني التقيتُ به مرةً واحدة فقط، إلا أنني أتذكر ذلك الرجل جيدًا. أمضيتُ أمسيةً ممتعةً جدًّا معه ومع رجل أو رجلَين آخرَين من مهنتِه، من أفضل رجال الشرطة والمحقِّقين، في منزل صديق لي كان أحد مسئولي شرطة ويلشستر، أوه، إنه ... نعم، لا بد أن ذلك كان منذ ثلاثين عامًا. كانوا قد أتوا من لندن، بالطبع، لإنجاز بعض العمل الجنائي. يا إلهي! يا لها من حكايات تلك التي بوُسع هؤلاء الرجال أن يحكوها!»

علَّق ستونر بأدبٍ: «ثلاثون سنةً زمنٌ طويل يا سيدي.»

قال السيد بورسي بإيماءةٍ واثقة: «صحيح، لكني أتذكَّر ذلك جيدًا.» وأضاف: «أعرف أن ذلك كان منذ ثلاثين عامًا؛ لأن محكمة ويلشستر هي التي كان تُنْظَر أمامها قضية مالوز وتشيدفورث. نعم، ثلاثون عامًا. كان ذلك عام ألف وثمانمائة وواحد وثمانين. مالوز وتشيدفورث ... نعم!»

سأله ستونر: «أتلك قضيةٌ مشهورة يا سيدي؟» كان حينئذٍ لا يكاد يسيطر على انفعالاته، وأخذ جرعةً كبيرةً من الويسكي والماء لتهدئة نفسِه. وأضاف: «شيء خاصٌّ يا سيدي؟ جريمة قتل؟»

أجاب السيد بورسي: «لا، احتيال، اختلاس، نسيتُ ما هو المصطلح القانوني الصحيح.» وتابع: «لكنها كانت قضيةً سيئة، فسادٌ حقيقي. كان لدينا جمعيةٌ للعاملين في التشْييد والبناء في ويلشستر في تلك الأيام — ما زالت موجودةً حتى الآن لذلك الغرض، ولكن تحت مسمًّى آخر — وكان يوجد اثنان من أفضل نوعيةٍ من العاملين الشباب، شابان ذكيَّان، كان أحدهما سكرتيرًا والآخر أمينًا للخِزانة. كان لهذين الاثنين كاملُ التصرف في كل شيء، وكانا موثوقَين، كما لو كانا بنكَ إنجلترا! وفجأةً، تكشَّف شيءٌ ما، وتبيَّن أن هذين الاثنين، مالوز، أمين الخِزانة، وتشيدفورث، السكرتير، قد اختلسا ألفَي جنيهٍ من أموال الجمعية. ألفَي جنيه!»

صاح ستونر، الذي اتجهت أفكارُه كالبرق إلى نصف ورقة الفولسكاب: «ألفَي جنيه؟» وأضاف: «حقًّا!»

قال الرجل العجوز: «نعم، حسنًا، ربما كان المبلغ أكثرَ أو أقلَّ بجنيهٍ أو جنيهين، ولكنهم قالوا إنه كان ألفَين. وبالطبع حُوكم مالوز وتشيدفورث، وحُكم عليهما بعامَين. أوه، نعم، نحن نتذكر تلك القضية جيدًا جدًّا في ويلشستر، أليس كذلك، يا ماريا؟»

وافقت السيدة بورسي بحرارة: «ولسبب وجيه!» وتابعت: «كان يوجد الكثير من الفقراء الذين كاد يُدمِّرهم هذان الشابان السيئان.»

أكد السيد بورسي: «فعلًا!» وأردف: «نعم ... أوه، نعم! كثيرًا ما تساءلتُ عما حدث لهما، أعني مالوز وتشيدفورث. لأنه منذ خروجهما من السجن لم نسمع عنهما شيئًا في منطقتنا. ولا كلمة! لقد اختفيا تمامًا. يقول البعض، بالطبع، إنهما أخفيا تلك الأموالَ في مكان آمن، ثم رجعا إليه ليأخذاها. أنا لا أعرف. ولكنهما ذهبا.»

قال مايلر: «أُفٍّ!» وأضاف: «تلك مسألة سهلة. رحَلا إلى أيٍّ مستعمرة من المستعمرات، بالطبع. هذا أمر شائع، يا حَمي. بيرت، يا صاحبي، ما رأيك في أن ننهض ونذهب لنلعب البلياردو في حانة «ستاج أند هنتر»؛ توجد طاولة جيدة هناك.»

تبع ستونر صديقه إلى خارج المنزل الصغير، وما إن خرجا حتى جذبه من ذراعه.

قال، وهو يكاد يرتجفُ من الإثارة المكبوتة: «دعك من البلياردو، يا ديف، يا صاحبي!» وتابع: «اسمع! أتعرف ركنًا هادئًا في حانة «ستاج» يُمكننا التشاور فيه بجدِّية لساعة؟ أتعرف؟ إذن تعالَ، وسأخبرك بأغربِ قصة سمعتَها على الإطلاق منذ وُلِدت!»

أخذه مايلر، الذي استهواه الأمر على الفور، إلى قاعة صغيرة وخالية في الجزء الخلفي من نُزُلٍ مُجاور، وطلب مرطبات، وأمر الفتاةَ التي أحضرَتها أن تتركه وصديقَه وحدهما، ودون استئذان من أحدٍ أغلق الباب على خَلْوتهما. وبعدما فعل ذلك أبدى حُسن إصغاء حتى إنه لم ينبس ببنتِ شَفة إلى أن انتهى ستونر من بسطِ كل شيءٍ أمامه بالتفصيل. وبين الفَينة والأخرى كان يومئ برأسه، وبين الفينة والأخرى كان يَفتح عينَيه الذكيتَين على اتساعهما، وبين الفينة والأخرى كان يُصفق بيدَيه. وفي النهاية ضرب ستونر على كتفه.

وصاح: «ستونر، يا صاحبي!» وتابع: «إنه أمرٌ مؤكَّد! يا إلهي، لم أسمع أبدًا شيئًا أوضحَ من هذا. تلك الخَمسمائة جنيه لك ... أجل، أنا متأكد من ذلك مثلما أنا متأكِّد من أنَّ هذا هو أنفي! هذا ما يُسمونه الاستدلال الاستقرائي. الحرفان الأولان إم وسي؛

مالوز وتشيدفورث؛ مالاليو وكوذرستون؛ الألفا جنيه؛ حقيقة أن كايتلي كان في محكمة ويلشستر عام ١٨٨١؛ وأنه أصبح مُستأجِرًا لدى كوذرستون بعد ثلاثين عامًا؛ أوه، أرى كلَّ شيء، وكذلك سيفعل القاضي وهيئةُ المحلَّفين! ستونر، أحدهما أو كلاهما قتل ذلك الرجل لإسكاته!»

«تلك هي فكرتي»، وافقه ستونر، الذي كان سعيدًا جدًّا بنفسه، وصار حينئذٍ مقتنعًا بأن إمكانياته هو، وليس مزيجًا من الظروف السعيدة الحظ، هي التي جلبَت النتيجة المرجوَّة. وأردف: «بالطبع، لقد توصلتُ إلى ذلك. والأمر الآن هو: ما هو أفضل سبيل يُمكن اتخاذُه؟ ما الذي تقترحه يا ديف؟»

استحضر مايلر كلَّ ما لديه من فِطنةٍ اكتسبها من العمل؛ للتعامل مع المشكلة الماثلة أمامه.

سأل أخيرًا، مشيرًا إلى الاسم الموجود أسفلَ منشور المكافأة: «تالينجتون هذا، أيُّ نوع من الأشخاص هو؟»

أجاب ستونر على الفور: «المحامي العامُّ الأكثر احترامًا في هاي ماركت.»

سأل مايلر: «هل سُمعته جيدة؟»

قال ستونر مؤكدًا: «كجودة الذهب.»

قال مايلر: «لو كنتُ مكانك، لكنتُ قدمتُ ملخَّصًا لما أعرفه، بعناية، على الورق، كما ينبغي أن أحصل على فرصةِ مُقابلة خاصة مع تالينجتون وأخبره ... بكل شيء. يا رجل! لقد ضمنتَ تلك الخَمسمائة جنيه! فلا يوجد شكٌّ في الأدلة يا ستونر، لا شك على الإطلاق!»

جلس ستونر في صمتٍ يُفكر مَليًّا في الأمور بعضَ الوقت. ثم رمَق صديقه بنظرةٍ ماكرة، وعصبية إلى حدٍّ ما. ومع أنه ومايلر كانا صديقَين حميمَين منذ الصغر، لم يكن ستونر متأكدًا تمامًا مما سيقوله مايلر عما كان ستونر يُفكر فيه في هذا الوقت.

فجأة قال: «انظر.» وتابع: «الأمر كما سأقول لك. كل هذا حسنٌ جدًّا، ولكن يجب على المرء أن يُفكر بنفسه، يا ديف، يا صاحبي. لا يُهمني كايتلي على الإطلاق، لا يُهمني لو كان قد تعرَّض للقتل مرتين؛ ليس لديَّ شكٌّ في أنه يستحق ذلك. لكن سيهمُّ إم وسي كثيرًا إن اكتشَفا ذلك. أستطيع الحصول على هذه الخَمسِمائة جنيه بسهولة كرَمْشةِ عين ... لكن ... هل تَفهم ما أعنيه؟ أظن أن إم وسي سيَزيدان المبلغ إلى خَمسة آلاف إذا أبقيتُ فمي مغلقًا. ما رأيك؟»

أدرك ستونر على الفور أن مايلر لا يُوافق على ذلك. صار وجه مندوب المبيعات الوَدود جادًّا، وهز رأسه بإشارة لا تُخطئها عين.

قال: «لا، يا ستونر.» وأردف: «لا شيء من هذا! العب بنَزاهة يا فتي! لا رِشوة. التزِم بالقانون، يا ستونر، التزم بالقانون! علاوة على أنه يُوجد آخرون يمكنهم اكتشافُ كل ذلك. ما أنت بحاجةٍ إلى أن تفعله هو أن تتقدَّم أولًا. اذهب لمقابلة تالينجتون بمجرد عودتك.»

قال ستونر معترفًا: «أظن أنك مُحِق.» وأضاف: «لكني ... أعرف إم وسي، وأعرف أنهما سيدفعان نصف ما يملكان، وهو كثير! لإبقاء هذا الأمر في الخفاء.»

ظلت تلك الفكرة تُراوده كلما استيقظ في الليل، وبينما كان يتجوَّل في دارلينجتون في صباح اليوم التالي، وكانت لا تزال تُراوده عندما تناول عَشاءً مبكرًا، وانطلق عائدًا في قطار الظهيرة المبكر الذي أقلَّه إلى محطة السكك الحديدية الرئيسية بهاي جيل؛ ومن هناك كان عليه أن يسير خَمسة أميال عبر الأراضي السبخة والتلال إلى هاي ماركت. وكان لا يزال مستغرقًا في التفكير فيها عندما كان ينعطف عند زاوية غابة صَنوبر صغيرة، في واحدٍ من أكثر الأجزاء التي كان يعبرها عُزلةً، وإذا به يَتقابل وجهًا لوجه مع مالاليو.

الفصل السادس عشر

الأراضي السَّبخة المنعزلة

خلال الساعات الثلاث التي انقضَت منذ مغادرته دارلينجتون، كان ستونر مستغرقًا في التفكير في الأمور. لقد قد قابل صديقه مايلر مرةً أخرى في ذلك الصباح؛ وتناولا مشروبًا أو اثنَين معًا في غرفة المرطبات بالمحطة قبل أن يُغادر قطار ستونر، وكان مايلر قد حثَّ ستونر مرةً أخرى على استخدام ما توصَّل إليه عن طريق الحظ بالطريقة الصحيحة. قال مايلر إنه لا يشكُّ في أنه يستطيع أن يُقنع مالاليو وكوذرستون أن يُعطوه رِشوة؛ لا شك في أنهما سيدفعان الآلاف بسرورٍ في حينِ أن المكافأة لم تكن سوى مئاتٍ من الجنيهات، ولكن، عندما أخذ كل شيء في الاعتبار، هل كان الأمر يَستحق؟ قال مايلر: لا! وألفَ مرةٍ لا. كانت الحقيقة المجردة أنه بما أن ستونر قد اكتشف كل هذا فذلك دليلٌ مؤكد على أن شخصًا آخر قد يكتشفُه. قال مايلر إن الشرطة اعتادت على العمل مثل حيوانات الخُلْد، تحت الأرض. كيف يمكن لستونر أن يعرف أن بعض محقِّقي نوركاستر ولندن لا يبحثون في الأمر بالفعل؟ كانوا يعرفون بالفعل أن كايتلي كان محقِّقًا سابقًا؛ وبالتأكيد سوف يُراجعون مهامَّه السابقة، في محاولةٍ لتتبُّع أي صلةٍ بين أي مهمةٍ منها ومقتله. ومن المؤكد أن قضية ويلشستر القديمة تلك ستُعاود الظهور، على الرغم من أن وقائعها جرَت منذ زمن بعيد. وعلَّق مايلر بقوة وجِدية قائلًا إنه عندما تظهر ... ستكون خيبةً على ستونر إن اكتُشِف أنه قَبِل رِشوة من رَبِّي عمله ليصمت. في الواقع — أبدى مايلر ذلك باعتباره رأيه الباتَّ، على الرغم من أنه، كما أوضح، لم يكن محاميًا — لم يكن يعرف إلا أن ستونر، في تلك الحالة، سوف يُقبَض عليه بصفته شريكًا في الجريمة بعد وقوعها.

نصحه مايلر، وهما يفترقان: «التزِم بالقانون، يا بيرت، يا صديقي!» وتابَع: «ستكون بخير حينها. التزِم بنصيحتي؛ قابل تالينجتون على الفور — اليوم بعد الظهر! — واطلب الحصول على الخَمسمائة جنيه. ستكون في أمانٍ تامٍّ بفعلك ذلك، لكن إن اخترتَ التصرُّف

الآخر ستكون المخاطرة فظيعة، يا بيرت. تصرَّفْ بحكمة! لن تحصل على نصيحة أفضل من هذه!»

عرَف ستونر أن صديقه الحصيف كان على حق، وكان مُستعدًّا لأن يَمتثل لنصيحته، بينما كان مايلر بجواره. ولكن بعدما تركِه، بدأ عقله في التذبذب. خَمسمائة جنيه! ما هذا بالمقارنة مع ما قد يحصل عليه بالقليل من اللعب بمهارةٍ بأوراقه؟ كان يعرف مالاليو، وكان يعرف كوذرستون؛ كان يعرف الكثير عنهما أكثرَ مما كانا يتصوَّران. كان يعرف أنهما ثريَّان، ثريان جدًّا. لقد كانا يَجْنيان المال لسنوات، وفي الآونة الأخيرة، زادت بعض العقود الناجحة والمربحة للغاية من ثروتهما بطريقة مُدهشة. كان كل شيء قد سار كما تمنَّيا؛ كل عقد كانا يستحوذان عليه كان يتحوَّل إلى منجم ذهب. خَمسة آلاف جنيه لن تكون شيئًا يُذكر لكلٍّ واحد منهما منفردًا، فضلًا عمَّا لو كانا مُتشاركَين. في رأي ستونر، لم يكن عليه سوى أن يطلب من أجل أن يحصل على ما يُريده. كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أنهما سيدفعان، سيدفعان على الفور، مبالغَ جيدة. وإن فعَلا، حسنًا، فسيَحرص جيدًا على ألَّا يحدث له مكروه! إذا تحصَّل على خمسة آلاف جنيه إسترليني، فسيخرج من هاي ماركت في غضون خمس ساعات، وسيكون في منتصف الطريق عبر المحيط الأطلسي في غضون خمسة أيام. لا ... كان ديف مايلر شخصًا صالحًا، ومن أفضل الناس، لكنه كان إلى حدٍّ ما متزمتًا أخلاقيًّا ومحافظًا، خاصةً منذ أن تزوَّج، ومع ذلك، لكل إنسان الحق في بذل قُصارى جهده من أجل صالحه. وهكذا، عندما قابل ستونر مالاليو وجهًا لوجه في الأرض البور المنعزلة بين هاي جيل وهاي ماركت، كان قد اتَّخذ بالفعل قراره بالابتزاز.

كان المكان الذي تقابلا فيه مُلائمًا، لغرض ستونر. كان قد عبر الأرض المرتفعة بين خط السكة الحديد والأرض السبخة دون مسار محدَّد، ولكنه كان قد سار في خطٍّ مُستقيم عبر نباتات اللِّنج والسَّرخس والخَلَنْج. كان يَحوطه من كل جانبٍ أميالٌ وأميال ممتدَّة من العزلة، لا شيء سوى أراضٍ سبخة متموجة، تقطعها كتلٌ ضخمة من الحجر الجيري ومن حينٍ لآخَر تجمُّعات وأغطية من أشجار التنوب والصنوبر؛ لا شيء سوى خطٍّ التلال الأزرق في الغرب؛ ولا شيء سوى السماء الرمادية الشمالية فوق رأسه؛ ولا شيء سوى صياح الكروان وثغاء خراف الجبل. ووسط كل هذا قابل ربَّه في العمل، عند زاوية أيْكة رفيعة امتدَّت على حافَة محجرٍ مَهجور. كان مالاليو، كما كان ستونر يَعرف جيدًا، بارعًا في التريُّض في هذه الأراضي السبخة، وكان دائمًا ما يَمشي وحيدًا. كان يتريَّض للحفاظ على وزنه؛ وها هو يأتي، مؤرجِحًا عصا مَشيِه الثقيلةَ المصنوعة من خشب البلوط،

مستغرقًا في أفكاره، وكاد هو وستونر أن يَصطدم أحدُهما بالآخَر، إذ لم يسمع أيٌّ منهما وقع خطوات الآخَر على العُشب الناعم. فوجئ ستونر واحمرَّ وجهه من هذه المفاجأة.

لكن مالاليو، الذي كان منشغلًا بأفكاره، لم يكن يُفكر في ستونر، ومن ثَمَّ لم يبدُ عليه أنه فُوجئ بمُقابلته. لقد عمل على تنمية علاقات ودِّية مع كل مَن عملوا لحسابه، وابتسم ابتسامةً عريضةً لكاتبه.

صاح بودٍّ: «مرحبًا!» وتابع: «هل تتريَّض وحدك؟ هه؟ كنتُ أظنُّ أن شابًّا مثلك سيأخذ واحدةً من الفتيات صانعاتِ قبعات الآنسة فيزرباي للتنزُّه على ضفة النهر، أليس كذلك؟»

ابتسم ستونر، ولكن ليس كمثلِ ابتسامة مالاليو. لم يكن في حالة مِزاجية تسمح بالتظاهر؛ وإذا كان قد ابتسم فذلك لأنه كان يظنُّ أن الأمور كانت تسير في مصلحته، وأنه كان يتحكَّم في خيوط اللعبة. وفجأةً اتخذ قراره.

أجاب بوقاحة: «لديَّ أمور أهمُّ من ذلك لأفعلها، يا سيد مالاليو.» واستطرد: «أنا لا أُضيع وقتي على المتدرِّبات من صانعات الملابس. لديَّ أمور أهم من ذلك لأفكر فيها، يا سيدي.»

قال مالاليو: «أوه!» وتابع: «آه! ظننتُ أنك منغمسٌ بشدة في التفكير. فيمَ تفكر؟»

كان شيءٌ ما بداخل ستونر يستحثُّه على الدخول مباشرةً في الموضوع. قال له مُرشده الداخلي أن يدخل مباشرةً في الموضوع، بلا تحوُّط، ولا كثيرِ كلام. أدخل ستونر يدَه في جيبه، وأخرج نسخةً من إعلان المكافأة. فتحَها أمام ربِّ عمله، وهو يراقب وجه مالاليو.

قال: «في ذلك.» وأضاف: «فقط في ذلك، يا سيد مالاليو.»

ألقى مالاليو نظرةً خاطفةً على المنشور، واختلجَ قليلًا، ثم نظر نظرةً حادةً بعضَ الشيء، وغاضبةً بعض الشيء، إلى كاتبه.

زمجَر، قائلًا: «وماذا عنه؟» كان مِزاجه، كما كان ستونر يعرف جيدًا، يحتدُّ بسرعة، وبدَت عليه أماراتُ الانتباه الآن. واستطرد يسأل: «لأيِّ سبب تُريني تلك الورقة؟ كن مهذبًا، أيها الشاب!»

ردَّ ستونر بهدوء: «لا أقصد الإساءة.» نظر حوله فلاحظ حاجزًا مُريحًا، قديمًا وباليًا، كان يُسيِّج المحجر، فتراجع إليه، وأسند ظهره بهدوء إلى جزئه العلوي، ووضع يدَيه في جيبَيه، ونظر إلى مالاليو نظرةً كان يهدف منها أن يُظهِر أنه يَشعر أن الغلبة ستكون له في أي مواجهة قد تحدث. وقال: «أريد أن أتحدث معك حديثًا قصيرًا، يا سيد مالاليو.»

بغضبٍ حدَّق مالاليو في ستونر، وبدَت عليه الدهشة من هذا السلوك الغريب.

صاح مندهشًا: «أنت تُريد ... أنت تتحدَّث معي ... حديثًا قصيرًا؟». وأردف يسأل: «لماذا؟ ولماذا هنا؟»

قالها ستونر، بضحكة شريرة: «المكان هنا مناسب.» وأضاف: «نحن بمُفردنا تمامًا. ولا يوجد أيُّ أحدٍ بالقرب منا. لن تودَّ أن يَسمع أحدٌ ما أريد قوله.»

حدَّق مالاليو في كاتبه في صمتٍ دقيقةً كاملة. كان مُعتادًا على أن يُمارس حيلة التحديق بصمتٍ في الناس دون تعبير على وجهه. لكنه وجد أن ستونر لن يُشيح بناظِرَيه، وفي النهاية تكلم.

قال: «سأُخبرك أمرًا يا ولدي!» واستطرد: «لا أعرف إن كنتَ ثملًا، أو إن كان لديك هوَس، لكنَّني لا أسمح لأي أحد، ولا سيَّما رجلًا أدفع له أجره، بالتحدث إليَّ بهذه اللهجة! ماذا الذي تَعنيه بقولك هذا؟»

أجاب ستونر، وهو لا يزال يُحدق في الرجل بثبات، ويحضر نفسه للمواجهة: «سأقول لك ما أعنيه يا سيد مالاليو». وأضاف: «ما أعنيه هو أنني ... أعرف مَن قتل كايتلي!»

شعر مالاليو بجسده يختلج مرةً أخرى؛ وشعر بوجهِه يتورَّد بحرارة. ولكنه تمكَّن من إظهار التماسك، واستطاع بجهدٍ جهيد أن يبتسم بسخرية.

قال، وهو يَلْوي فمَه في سخرية: «أوه.» وأردف يسأل: «هل تعرف حقًّا؟ يا إلهي! يا له من رائعٍ ذكاءُ بعض الشباب! إذن أنت تعرف مَن قتل كايتلي، أليس كذلك يا ولدي؟ آه! ومَن قتل كايتلي إذن؟ دعنا نعرف! أم أنك تفضل الاحتفاظ بهذا السرِّ الخطير لنفسك، إلى أن تتمكن من أن تَجنيَ شيئًا من ورائه؟»

أجاب ستونر، الذي كان ذكيًّا بما يكفي لكي يفهمَ تظاهر مالاليو بالسخرية: «يمكنني أن أجنيَ شيئًا من ورائه الآن.» وتابع: «عليك فقط أن تَفهم أهميةَ ما أقوله. أقول لك مرة أخرى؛ أعرف من قتل كايتلي!»

سأله مالاليو بحدَّة: «ومَن قتله إذن؟» وأردف: «أف! أنت لا تعرف شيئًا عن ذلك!»

ضحك ستونر، ونظر حوله، ثم أحنى رأسَه إلى الأمام.

قال، بسخريةٍ فاقت سخريةَ صاحب العمل في المغزى والمعنى: «لا أعرف؟» وأضاف: «لكنَّك مخطئ، فأنا أعرف! لقد قُتِلَ كايتلي إما على يدك أو على يد كوذرستون! ما رأيك في هذا، يا سيد مالاليو؟»

نظر مالاليو مرةً أخرى إلى كاتبه في صمت. أضحى الآن يعلم أن هذا الشابَّ يملك بعض المعلومات، وكان يميل بحكم طبيعته إلى أن يُراوغه. وبذَل جهدًا جهيدًا ليلمَّ شتات نفسه، ليتعامل بطريقةٍ أفضل مع كل ما قد ينتظره.

كرَّر بسخرية: «إما أنا أو السيد كوذرستون!» وأردف يسأل: «أوه! وأيٌّ منا الذي ستَميل إلى أن تُقرر أنه القاتل، يا سيد ستونر؟»

أجاب ستونر: «ربما كان أحدكما، وربما كان الآخر، وربما كان كلاكما، لا أعرف.» وأضاف: «ولكنْ كلاكما مُذنب، على أي حال! لا فائدة، يا سيد مالاليو — أعرف أنكما قتلتُماه. وأعرف لماذا!»

مرةً أخرى ساد الصمت، ومرة أخرى تبادل كلٌّ منهما التحديقَ في الآخَر. وفي النهاية ضحك مالاليو مجدَّدًا، وهو لا يزال يتكلَّف مشاعر السخرية والرِّيبة.

ثم سأله بحدة: «حقًّا؟ ولماذا قَتَلَه أحدُنا أو الآخر أو كِلانا — اختر ما شئت — هذا السيد العجوز؟» وأردف: «لماذا يا صاحب حاسة الشم القوية؟»

أجاب ستونر: «سأقول لك، وعندئذٍ ستَعرف ما أعرفه.» واستطرَد: «لأن السيد العجوز كان مُحققًا سابقًا، وكان حاضرًا عندما حُوكمتَ أنت وكوذرستون، باسمَيكما الحقيقيَّين، مالوز وتشيدفورث، بتهمة الاحتيال في محكمة ويلشستر، قبل ثلاثين عامًا، وحُكم عليكما بالسجن لمدة عامَين! لهذا السبب، يا سيد مالاليو. الرجل العجوز كان يعلم ذلك، وقد أخبركما بأنه يعلم، فقتَلتُماه لإسكاته. لأنكما لم ترغبا أن يشيع أن العمدة وأمين خِزانة هاي ماركت، المحترمَين جدًّا، والمقدَّرَين جدًّا، سجينان سابقان!»

فجأةً احتدَّ غضب مالاليو، الذي كان تحت السيطرة جيدًا حتى ذلك الحين، بينما كان ستونر يتلفَّظ بوصفِه الأخير باحتقار. كان واقفًا ويدُه اليمنى خلفه، ممسكًا بعصا البلوط الثقيلة؛ وفي هذه اللحظة، عندما استعر غضبه فجأة، أرجح يده وعصاه من خلفه، وهوى بضربةٍ وحشية على جلاده، واصطدم مقبضُ العصا بصُدغ ستونر. كانت الضربة سريعة جدًّا، والهجومُ مفاجئًا جدًّا، لدرجة أن الكاتب لم يكن لديه وقتٌ لأن يفعل أي شيء أكثر من التلويح بذراعه لأعلى. وبينما كان يرفعها، وبينما كانت الضربة الشديدة تسقط، انهار الحاجز القديم المهترئ الذي كان ستونر يتَّكئ عليه دون أيِّ مبالاة، ليسقط ستونر من خلاله عبر حافة المحجر دون أن يُصدر صوتًا. سمع مالاليو صوت اصطدام عصاه بصُدغ ضحيَّته؛ وسمع صوت طقطقة الحاجز، لكنه لم يسمع صراخًا ولا تنهُّدًا ولا أنينًا يَصدر من ستونر. سقط ستونر إلى الوراء واختفى، وبعد ذلك (بدا وكأنَّ دهرًا قد مر) أدركَت حواسُّ مالاليو الخائفة صوت الارتطام المكتوم في مكان سحيقٍ ما، في الأعماق التي

سقط فيها. ثم سرى الصمت، صمتٌ عميق وثقيل، كسَره أخيرًا صياح كروان وهو يطير عبر الأرض البور المنعزلة.

سيطرَت على مالاليو نوبةٌ من الارتجاف. وبدأ يهتز. ارتجف جسدُه الثقيل كما لو كان تحت تأثير حمَّى شديدة؛ بعُنف اهتزَّت اليدُ التي ضربت الضربة لدرجة أن العصا سقطت منها. ونظر مالاليو إلى العصا، وفي غضبٍ عارم مُفاجئ ركَلها بعيدًا عنه لتسقط من فوق حافة المحجر. رفع قبضته وهزَّها، وفجأةً أسقطها. زال الارتجاف، وتحوَّل إلى عرقٍ باردٍ نابعٍ من الخوف.

تمتم مالاليو: «رُحماك يا رب!» وأردف: «هل قُتِل؟ كان يجب ألا يُثير غضبي؛ كان يجب ألا يتحدَّاني! كان هذا أكثرَ من قدرة أيِّ بشر على الاحتمال، رحماك يا رب، ماذا أفعل؟»

كان شفق الخريف يزحف فوق الأرض السبخة. كانت الشمس قد غربَت خلف التلال الغربية البعيدة مباشرةً قبل أن يَلتقيَ مالاليو وستونر، وبينما كانا يتبادلان الحديث، كان الغسَق قد حلَّ. في ذلك الحين كانت الأراضي البور تزداد عَتمةً وغموضًا، وبدا لمالاليو أنه كلما خبا الضوء ازداد الصمت. نظر حوله، خائفًا من أن يكون أيٌّ من رُعاة المنطقة قد أتى ليُلقيَ نظرةً على قُطعانه يوم الأحد. وما إن ظنَّ أنه رأى هيئةَ شخص على مسافةٍ قصيرة عند حافة الأشجار، نظر مليًّا وأجهدَ عينَيه في النظر، واستنتج أنه لم يكن يُوجد أحد. بعد قليل أجهَد عينَيه في اتجاهٍ آخر؛ إذ تسلَّل بحذرٍ إلى حافة المحجر، ونظر فوق الحاجز المكسور، وعميقًا بالأسفل رأى ستونر مُستلقيًا على ظهره بلا حَراك على صخور الحجر الجيري.

تمكَّن مالاليو بخبرته الطويلة في الأراضي البور وفي كل زاوية وركن فيها من أن يشقَّ طريقه إلى أسفل المَحجر بالنزول، مُمسكًا بشجيرات القندول ونباتات العُلَّيق، حائلًا بينه وبين أن يسقط. زحف عبر الشجيرات إلى الموضع الذي كان فيه الجسد راقدًا، ووضع يده بخوفٍ على الجسد الهامد. كانت لمسةٌ واحدة كافيةً، ووقف يرتجف ويهتزُّ أكثر من ذي قبل.

همهمَ قائلًا: «إنه ميت ... ميت!» وتابع مُحدِّثًا نفسه: «يبدو أن رقبته كُسِرَت؛ إنها مسافة خَمسين قدمًا على الأقل إلى الأسفل هنا. يا له من حظٍّ عاثر! وماذا سأقول وماذا سأفعل حيال ذلك؟»

أتاه الإلهام سريعًا؛ بالسرعة نفسِها التي حلَّ بها الظلام على مكان الموت هذا. بذل جهدًا، واستعاد زِمام نفسه، وأصبح الآن قادرًا على التفكير واتخاذ القرار. لن يقول أو يفعل شيئًا، لا شيء على الإطلاق. لم يشهد أحدٌ اللقاءَ بينه وبين ستونر. لم يرَ أحدٌ الضربة ولم يرَ أحدٌ سقوط ستونر. من الأفضل ألا يقول شيئًا، وألَّا يفعل شيئًا؛ والأفضل من كل هذا أن يبتعد ويتركَ الأمور تأخذ مجراها. سيُعْثَر على جثة ستونر، في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، أو في أي يوم؛ وعندما يُعْثَر عليها، سيقول الناس إن ستونر كان جالسًا على ذلك الحاجز المتداعي، وانهار الحاجز، فسقط؛ وأيًّا ما كانت العلامات التي ستظهر عليه سيعزوها الناسُ إلى سقوطه على الحواف الحادة للمحجر القديم.

وهكذا، غادر مالاليو مبتعدًا من طريق آخَر، ومضى عائدًا إلى هاي ماركت في ظُلمة المساء، مختبئًا وراء الأسوار والجدران حتى وصل إلى منزله. ولم يتذكَّر فقده لعصاه إلا بعد أن استلقى آمنًا في سريره في تلك الليلة.

الفصل السابع عشر

الرأي الطبي

وأدَّى تذكُّر تلك العصا إلى استغراق مالاليو في نوبةٍ أخرى من نوبات الخوف والرجفة الشبيهة بالحمَّى. جافى النومُ عينَيه بعد ذلك؛ إذ أمضى جُلَّ الليل في التفكير والتوقُّع والتخطيط. من شبه المؤكَّد أنهم سيَعثُرون على تلك العصا، وسيعثرون عليها بالقرب من جثة ستونر. لن يتعرَّف عليها أيٌّ من المارَّة العارضين، ولن يتعرف عليها أحدُ الرعاة في الأرض السبخة. لكن شرطة هاي ماركت، التي ستُسَلَّم إليها العصا، ستَعرف على الفور أنها عصا العمدة؛ إذ كانت تلك العصا التي كان مالاليو يحملها كل يوم تقريبًا، عصًا من خشب البلوط السميك. وسترغب الشرطة في أن تعرف كيف وصلَت إلى ذلك المحجر. اللعنة! لا يوجد سوءُ حظ بهذه الدرجة! كيف وصل به الحالُ إلى درجة أن يغفل عنها؟ كاد أن ينهض في منتصف الليل وينطلق إلى الأرض السبخة، ويجدَها. لكن الليل كان بهيمًا، وبقدر ما كانت الأرض السبخة والمحجر منعزلَين لم يجرؤ على المخاطرة بأخذِ مصباح معه. لذا أجهد فِكره في محاولة التفكير في وسيلةٍ ما لتفسير وجود العصا في ذلك المكان. وأخيرًا وجد فكرة؛ تذكر فجأةً أن ستونر لم يكن يَحمل عصًا ولا مظلَّة. إن عُثِر على العصا، فسيقول إنه تركها في المكتب يوم السبت، وأنه لا بد أن الكاتب استعارها. لم يكن ذلك أمرًا مُستبعَدًا؛ كان سببًا جيدًا، ومن شأنه أن يُفسِّر سبب وجودها بالقرب من الجثة. ومن الطبيعي أن تُصدق الشرطة كلمة العمدة: في رأي مالاليو، سيكون غريبًا إذا لم يُصدِّقوه. بعد ذلك حاول أن ينام، لكنه فشل في ذلك فشلًا ذريعًا.

بينما كان مالاليو يتقلَّب ويئنُّ في فِراشه الوثير في تلك الليلة، فكَّر في أشياء كثيرة. كيف توصل ستونر إلى معلوماته؟ هل كان أيُّ شخص آخرَ يعرف ما عرَفه ستونر؟ بعد الكثير من التفكير قرَّر أنْ لا أحد كان يعرف سوى ستونر. وبمزيدٍ من تقدير الأمور توصَّل إلى نظريةٍ حول الكيفية التي عرَف بها ستونر. اتَّضح أمامه كلُّ شيء، وَفقًا

لتصوُّره. لقد سمع ستونر بالطبع المحادثةَ التي دارت بين كايتلي وكوذرستون في المكتب الخاص! هذا هو ما حدَث؛ وتساءل لماذا لم يُفكِّر في ذلك من قبل. بين غرفة الشريكَين الخاصة والمكتب الخارجي الذي كان يجلس فيه ستونر، كانت توجد نافذةٌ صغيرة في الحائط؛ صُنعت خصِّيصى حتى يُمكن تمريرُ الأوراق من غرفة إلى الأخرى. وبالطبع، في عصر ذلك اليوم، ربما كانت مفتوحةً قليلًا، كما كان يحدث في كثير من الأحيان، وسمع ستونر ما جرى من حديثٍ بين كوذرستون والمستأجِر. ولكونه شابًّا كَتومًا، فقد احتفظ ستونر بالسرِّ لنفسه حتى عُرِضَت المكافأة. كانت فِكرته بالطبع هي الابتزاز؛ لم يكن لدى مالاليو شكٌّ في ذلك. لا، بعدما أخذ كلَّ الأمور في الاعتبار، لم يعتقد أن ستونر قد أخبر أحدًا بما كان يعرفه؛ لا بد أن ستونر كان مُقتنعًا بقيمة ما كان يعرف وما كان سيُفصِح به لأي أحد. رضي مالاليو بهذا الاستنتاج، ومجددًا حاول أن ينام.

لكنَّ نومه كان سيئًا في تلك الليلة، وشعر بالتعب والإنهاك عندما ذهب كعادته مبكرًا إلى الفِناء. كان هناك قبل أن يصل كوذرستون. عندما جاء كوذرستون، لم يتبادَلا أكثرَ من إيماءة مقتضَبة. كانا لم يتبادلا أيَّ حديث باستثناء الحديث عن العمل منذ المشهد الغاضب الذي حدث بينهما قبل بضعة أيام، والآن بعد أن ألقى مالاليو نظرةً على بعض الرسائل التي كانت قد وردَت في مساء اليوم السابق، خرج إلى الفِناء. ومكث هناك مدةَ ساعة: وعندما عاد إلى المكتب، نظر متظاهرًا بالمفاجأة إلى مكتب الكاتب الخالي.

سأل باقتضاب: «ألم يأتِ ستونر؟»

باقتضابٍ مُماثل أجاب كوذرستون، الذي كان يُقلب أوراق دفتر للحسابات: «ليس بعد.»

أخذ مالاليو يتحرَّك بعصبيةٍ واضطراب بعض الوقت، وهو يُرتِّب بعض الأوراق التي كان قد أحضرها من الفِناء. وفجأةً أطلق صيحةً تنمُّ عن نفاد الصبر، ثم ذهب إلى الباب، ونادى صبيًّا كان مارًّا.

قال له: «أنت، اسمع!» وسأله: «أتعرف أين يُقيم السيد ستونر؟ في منزل السيدة باتلي. اذهب بسرعة إلى هناك، وانظر لماذا لم يأتِ إلى عمله. لقد مرَّت ساعة ونصفُ الساعة على ميعاده. ربما أصابه مكروه أو ... اركض الآن، بسرعة!»

عاود النزول إلى الفِناء بعدما أرسل هذا المرسال، ثم عاد إلى المكتب بعد عشر دقائق، في الوقت نفسِه الذي عاد فيه المرسال.

سأله: «ما الأمر؟» وهو ينظر بطرْف عينه ليتأكَّد من أن كوذرستون قريب. وعاد يسأل: «أين هو إذن؟»

أجاب الصبي: «لطفًا، يا سيدي، السيدة باتلي تقول إن السيد ستونر غادر بعد ظُهر يوم السبت، يا سيدي، ولم يعد منذ ذلك الحين. تظنُّ أنه ذهب إلى دارلينجتون، يا سيدي، في زيارة.»

استدار مالاليو ودخل المكتب، وهو يُدَمدِم.

تمتَم وهو يضع المزيد من الأوراق على مكتب ستونر: «لا بد أن القطار قد فاته.» وتابع: «تعالَ هنا ... ستتولَّى أنت هذه الأشياء ... لا بد من تسجيلها في الدفاتر.»

لم يَرُدَّ كوذرستون، وبعد قليلٍ تركه مالاليو وذهب إلى المنزل ليتناول إفطارَه. وبينما كان يسير في الطريق المؤدِّي إلى منزله، تساءل عن سبب ذَهاب ستونر إلى دارلينجتون. هل من الممكن أن يكون قد أبلغ أيًّا من أصدقائه بما كان يعرفه؟ لو كان ذلك ...

تمتم مالاليو في نفسه بغضب: «دعك من القلق وعدم اليقين!» وتابع: «ذلك يَستنزفُ حياة المرء. أنوي أن أترك كلَّ شيء وراء ظهري وأرحل! يُمكنني أن أفعل هذا بسهولة بما لديَّ من إمكانيات. الطريق مفتوحٌ أمامي، وكفاني من هذا التوتر اللعين.»

عجز عن تناول إفطاره، وأخذ يُفكر مليًّا في مدى سهولة هروبه من هاي ماركت ومن إنجلترا. نظرًا إلى كونه رجلَ أعمال ذكيًّا ذكاءً استثنائيًّا، كان مالاليو قد حرَص على ألا يضع بيضه كلَّه في سلَّة واحدة. كان لديه العديد من السِّلال؛ فلم تكن سلةُ هاي ماركت هي سلتَه الرئيسية بأيِّ حال من الأحوال. في الواقع، كان كلُّ ما يمتلكه مالاليو في هاي ماركت هو حصتَه من العمل ومنزله الخاص. بينما كان يَجني أموالَه، استثمرها في سَندات مالية من الدرجة الأولى قابلة للتحويل بسهولة، ويمكنه صرفُها في غضون ساعة في لندن، أو نيويورك، أو باريس، أو فيينا. سيكون أسهل شيء في العالم، بصفته عمدةَ هاي ماركت، أن يُغادر البلدة في عملٍ للشركة، وفي غضون سويعات قليلة سيذهب إلى حيث لا يمكن لأي شخص أن يعثر عليه؛ وخلال سويعات قليلة أخرى، سيكون خارج البلاد. في الآونة الأخيرة، كان يُفكر كثيرًا في الرحيل على الفور؛ ليستمتعَ بما تبقَّى من حياته. لقد سبق له بالفعل أن نفَّذ اختفاءً كاملًا؛ فلماذا لا يفعلها ثانيةً؟ قبل أن يعود ليمضيَ صوب البلدة في ذلك الصباح، كان قد بدأ في إيلاء اهتمامٍ جادٍّ بالفكرة.

ولكن في الوقت الحالي، كان يتعين أن ينكبَّ على عمل اليوم، وكان غياب ستونر قد ألقى بعبءٍ إضافي من العمل على الشريكَين. ثم في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، كان على مالاليو أن يذهب إلى مبنى البلدية ليترأَّس اجتماع لجنة الشئون العامة. وما إن انتهى

الاجتماع، وبينما كان مالاليو يُفكر في العودة إلى منزله لتناول طعام غَدائه، دخل رئيس الشرطة إلى غرفة اللجنة وانتحى به جانبًا.

قال هامسًا: «عندي أخبار سيئة لك، يا سيادة العمدة.» وتابع: «كاتبك ... لم يكن في العمل هذا الصباح، على ما أظن، أليس كذلك؟»

سأله مالاليو، وهو يُشجع نفسه لمواجهةِ ما شعر بأنه قادم: «ما الأمر؟» وأردف: «ماذا عنه؟»

أجاب مدير الشرطة: «لقد تعرَّض لحادثٍ سيئ.» وتابع: «في الواقع، يا سيدي، لقد مات! وجد رجلان جثتَه قبل ساعة أو نحو ذلك في محجر هوبويك، في الأرض السبخة، وقد جُلِبَت إلى المشرحة. من الأفضل أن تأتيَ معي، يا سيادة العمدة؛ السيد كوذرستون هناك الآن.»

تبعه مالاليو دون أن ينبس ببنتِ شفة. ولكن ما إن خرج من مبنى البلدية، حتى التفتَ إلى مرافقه.

سأله: «هل تبيَّن لك أيُّ شيء فيما يتعلق بهذا الحادث؟» وتابع: «لقد كان مسافرًا منذ ظُهر يوم السبت، أو هكذا تقول صاحبة النُّزُل الذي يُقيم فيه: أرسلتُ أحد موظفِيَّ للسؤال عنه عندما لم يظهر هذا الصباح. ما الذي تعرفه، إذن؟»

أجاب رئيس الشرطة: «يبدو أن حادثًا قد وقع.» وأضاف: «هذان الرجلان اللذان عثَرا عليه لاحظا حاجزًا مكسورًا أعلى المحجر. عندما نظرا إلى أسفل أبصرا جثةً. فنزلا إلى أسفل ووجدا ... ستونر. يبدو أنه كان مستنِدًا أو جالسًا على الحاجز وانهار من تحته، وبالطبع سقط رأسًا على عقبٍ في المحجر. إن عمقه خمسون قدمًا، سيدي العمدة! ذلك كل ما يُمكن للمرء أن يُفكر فيه. الدكتور روكليف معه الآن.»

بذل مالاليو مجهودا جبارًا ليبدوَ هادئًا، بينما كان يتبع دليله، وعلى وجهه أماراتُ الجدية والقلق، إلى حيث كان الطبيب، وشرطيٌّ أو اثنان، وكوذرستون حول الميت. نظر نظرةً خاطفةً على شريكه فبادله كوذرستون نظرتَه بنظرة سريعة؛ وكان في نظرة كوذرستون شيءٌ ما، جعل شعورًا مفاجئًا بالخوف والاضطراب ينتاب مالاليو: كانت نظرةً تنطوي على فطنة غريبة، وكأنها كانت تلميحًا إلى شيءٍ ما. وشعر مالاليو بشعور غامض بالرهبة وهو يلتفت إلى الطبيب.

تمتم، وهو يهزُّ رأسه وينظر بطَرْف عينه إلى الجثة: «هذا سيئ ... سيئ!» وأردف: «هل تبيَّن لك أيُّ شيء، أيها الطبيب؟ هل يُمكنك أن تُخمن كيف حدث ذلك؟»

مطَّ الدكتور روكليف شفتَيه وصارت ملامحُ وجهه غامضةً. ظل صامتًا للحظة، وعندما تحدث كان صوته صارمًا على غير العادة.

قال بصوت منخفض: «عنق الشاب مكسورٌ وعموده الفقري مهشَّم.» واستطرد: «أيٌّ من هذه الإصابات كان كافيًا للتسبُّب في الوفاة. لكن ... انظروا إلى هذه!»

أشار إلى كدمةٍ ظهرت بوضوح تام على الصُّدغ الأيسر للميت، ومطَّ شفتيه مجددًا كما لو كان يشعر بالاشمئزاز من فعلٍ ما، مُتمثِّل فقط في مخيلته.

قال بصرامةٍ أكثر من السابق: «هذه ضربة!» وأضاف: «ضربة بآلة حادَّة! كانت أيضًا ضربةً وحشية، بقوة هائلة. ربما ... أقول ربما ... ربما تكون قد قتلَت هذا المسكين على الفور؛ ربما يكون قد مات أصلًا قبل أن يسقط إلى أسفل ذلك المحجر.»

لم يستطع مالاليو أن يمنعَ نفسه من الاستِسلام لإحدى نوبات ارتعاده إلا بجهدٍ هائل من الإرادة.

قال مُقترحًا: «ولكن ... ولكن أليس من المُحتمل أن يكون قد أصيب بتلك الكدمة نتيجةَ ارتطام رأسه بالحجارة وهو يسقط؟» وتابع: «إنه مكانٌ صخري، والصخور بارزة، مثل، لذا ...»

قال الطبيب بإصرار: «لا!» وأضاف: «تلك ليست إصابةً من أي صخرة أو حجر أو نُتوء. إنها نتيجة ضربة شرسة وُجِّهَت بقوةٍ كبيرةٍ بواسطة أداةٍ حادة ... هَراوة، أو عصًا ثقيلة. لا فائدة من الجدال. هذا مؤكد!»

تَجَرَّأ كوذرستون، الذي كان قد ظلَّ صامتًا في الخلفية، وقدَّم اقتراحًا.

«هل من علاماتٍ على تعرضه للسرقة؟»

أجاب رئيس الشرطة على الفور: «لا يا سيدي.» واستطرد: «لديَّ كل ما كان معه. وهو ليس بكثير. ساعة وسلسلة، ونصف جنيه ذهبي، وبعض العملات الفِضية والنحاسية، وغليونه وتبغه، ودفتر جيب به خطابٌ أو اثنان، وما شابه ذلك ... ذلك كل شيء. لم تحدث سرقة.»

سأله كوذرستون: «أظن أنك فتشتَ المكان، أليس كذلك؟» وتابع: «هل ترى أيَّ شيء يوحي بوقوع صراع؟ أو آثار أقدام؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟»

هز رئيس الشرطة رأسه نفيًا.

أجاب: «لا شيء!» وأضاف: «نظرتُ بعناية إلى الأرض حول ذلك السور المكسور. لكن طبيعة الأرض لا تُظهِر آثار أقدام، كما تعلمون؛ فهي مُغطَّاة بهذا العشب الجبَلي القصير الخشن الذي لا يُظهِر أي شيء.»

سأل مالاليو: «ولم يُعثَر على شيء؟» وأردف: «لا أسلحة، ها؟»

مع كل ما بذله من جهدٍ ليَكبح جِماح نفسه لم يستطع مقاومة أن يسأل ذلك السؤال؛ إذ كان قلقه بشأن العصا يجتاحُه. وعندما أجاب رئيس الشرطة والشرطيَّان اللذان كانا معه في محجر هوبويك بأنهم لم يجدوا شيئًا على الإطلاق، بذل مجهودًا كبيرًا ليَكتم تنهيدةَ ارتياح. عندها، ابتعد وهو يأمُل أن تكون العصا المصنوعة من البلوط قد سقطت في شقٍّ بين الصخور أو وسط نباتات العلَّيق التي كانت تنبت منها؛ كان يوجد الكثير من الأخشاب اليابسة المتشابكة في أرجاء تلك البقعة، وكان من المحتمل جدًّا أن تكون العصا، بعدما رُكلت بعنف بعيدًا، قد سقطت إلى مكانٍ لن تُكتشف فيه أبدًا. وما زالت أمامه فرصةٌ لجعل ذلك الاكتشاف المُحتمَل مستحيلًا. أمَّا وقد عُثِر على الجثة، يمكنه زيارةُ المكان بأمان، بحُجة الفضول. يُمكنه أن يبحث في المكان؛ وإذا وجد العصا فيمكنه أن يُسقطها في شقٍّ آمن بين الصخور، أو أن يتخلص منها. كانت هذه فكرةً جيدة؛ وبدلًا من أن يعود إلى المنزل لتناول الغداء، توجَّه مالاليو إلى قمرةٍ خاصة في حانة «هاي ماركت آرمز»، وأكل شطيرة وشرب كوبًا من البيرة، وغادر مسرعًا، بمفرده، إلى الأرض السبخة.

سرى خبرُ الوفاة الغامضة الثانية في أرجاء هاي ماركت والمنطقة سريانَ النار في الهشيم. وسمع به بريريتون خلال وقتٍ ما بعد الظهر، وإذ كان لديه في البلدة بعضُ الأعمال المتعلقة بالدفاع عن هاربورو، مرَّ على مركز الشرطة ووجد مِزاج رئيس الشرطة متجهِّمًا ومكتئبًا على غير العادة.

قال هامسًا: «هذا النوع من الأشياء يفوق طاقتي، يا سيد بريريتون.» وأردف: «سواءٌ أكان الأمر أنني لست معتادًا على مثلِ هذه الأمور — حمدًا للرب! لقد عاينَّا القليل من العنف في هذا المكان في مدة عملي! — أو أيًّا ما كان، لا أعرف، ولكن لديَّ فكرة في رأسي تقول إن موت هذا الشاب المسكين مرتبطٌ بطريقةٍ ما بقضية كايتلي! لديَّ تلك الفكرة بالفعل، يا سيدي! وهي ما برحت تُؤرِّقني طوال وقتٍ ما بعد الظهر. فقد اتفق جميع الأطباء — كان يوجد العديد منهم خلال الساعتين الماضيتَين — على أن ستونر أُسقِط، يا سيدي ... أُسقِط نتيجةَ ضربةٍ عنيفة، ويقولون إنه ربما يكون قد مات قبل حتى أن يسقط من حافةِ المحجر. سيد بريريتون ... لديَّ شكوكٌ في أنها جريمة قتل أخرى!»

سأل بريريتون: «هل لديك ما تستند إليه للمضي قُدُمًا؟» وأضاف: «هل كان يوجد أيُّ دافع لدى أي شخص؟ هل توجد أي علاقة غرامية — غَيرة، كما تعلم — أي شيء من ذلك القبيل؟»

أجاب المشرف: «لا، أنا متأكدٌ من أنه لم يكن يوجد أي شيء من هذا.» واستطرد: «البلدة بأكملها والمقاطعة تتناقل الأخبار، وكان يجب أن يصل إلى سمعي شيءٌ الآن. ولم تكن سرقة، فلم يكن معه الكثير، ذلك الشاب البائس! ها هو كل ما كان معه»، تابَع حديثه، وهو يفتح الدُّرج. وقال: «يمكنك أن تُلقي نظرةً على أشيائه، إن أردت.»

عندئذٍ غادر الغرفة، وفتح بريريتون دفترَ جيب ستونر، متجاهلًا الساعةَ الرخيصة والسلسلة ومحفظة جلد الخنزير شبه الفارغة. أيضًا، لم يكن فيه الكثير؛ خطاب أو اثنان، وبعض فواتير الاستلام، ونسختان مكرمشتان من منشور المكافأة، وبعض قصاصات الصحف. انتقل من هذه الأشياء إلى دفتر الجيب نفسه، وفي آخر صفحة مكتوبة وجد مُدخلًا جعَله يَجْفُل. لأنه مجددًا كانت توجد تلك الأحرف الأولى!

«إم وسي ... احتيال ... جمعية البنَّائين ... محكمة ويلشستر ... ٨١ ... ٢٠٠٠ £ ... لم تُستعَد الأموال أبدًا ... سنتان ... كيه ... بريس.»

لم يكن كثيرًا ... لكن بريريتون نسخ ذلك المُدخَل على عجَل. وكان قد كتب للتو الكلمةَ الأخيرة عندما عاد رئيس الشرطة إلى الغرفة ومعه رجلٌ يرتدي زي هيئة السكك الحديدية.

قال رئيس الشرطة: «ادخل إلى هنا.» وتابع: «يمكنك أن تُخبرني بما لديك أمام هذا السيد. بعض الأخبار من محطة السكك الحديدية الرئيسية بهاي جيل، يا سيد بريريتون»، وتابع: «شيء عن ستونر. حسنًا، أيها الشاب، ما الأمر؟»

أجاب الزائر: «أرسلني مدير المحطة إلى هنا على دراجته.» وأردفَ: «عصر هذا اليوم نما إلى سمعنا نبأُ العثور على جثة ستونر، وأنكم تظنُّون أنه لا بد أن يكون قد سقط في المحجر في الظلام. ونعرف هناك أن ذلك مستبعَد.»

قال رئيس الشرطة: «حقًّا؟» وأضاف: «حسنًا، في واقع الأمر، أيها الشاب، لم نكن نُفكر في ذلك، لكن لا شك في أن تلك الإشاعة قد انتشرَت. والآن، قل لي، لماذا تعرفون، يا معشر رجال السكك الحديدية، أن هذا مستبعَد؟»

أجاب الرجل، الذي كان لماحًا، باديَ الذكاء: «ذلك ما جئتُ لأخبركم به.» واستطرد: «أنا مُحصِّل التذاكر هناك، كما تعرف، يا سيدي. جاء الشابُّ ستونر إلى محطة السكك الحديدية الرئيسية بعد ظهر يوم السبت وقطع تذكرةً إلى دارلينجتون، وبالطبع ذهب إلى دارلينجتون. ثم عاد بعد ظُهر أمس، الأحد، في القطار الذي يصل إلى محطتنا الرئيسية في الساعة الثالثة والنصف. وأخذت تذكرته. وبدلًا من الخروج من المحطة من الطريق المعتاد،

تجاوز السِّياج على جانب شريط السكة الحديديَّة، وقال لي إنه سيسلك طريقًا مختصرًا مباشرًا عبر الأرض السبخة إلى هاي ماركت. رأيته يَسير في اتجاه هاي ماركت بعضَ المسافة. وكان من شأنه أن يصل إلى محجر هوبويك بحلول الساعة الرابعة والنصف على أقصى تقدير؛ قبل حلول الظلام بوقتٍ طويل.»

علَّق رئيس الشرطة قائلًا: «تقريبًا وقت الغروب، في واقع الأمر.» وأردف: «غروب الشمس في نحو الساعة الرابعة وثمانية عشرة دقيقة.»

تابع مُحصل التذاكر قائلًا: «لذلك لم يكن من المُمكن أن يسقط في الظلام.» وأضاف: «لو كانت الأمور قد سارت معه على ما يُرام، لكان قد وصل إلى هنا في هاي ماركت وقت الغسَق.»

قال رئيس الشرطة: «أنا ممتنٌّ لك.» وأردف: «الأمر يستحقُّ أن تُخبرني بالطبع. أتى من دارلينجتون، أليس كذلك؟ هل كان بمفرده؟»

«بمفرده تمامًا يا سيدي.»

«ولم ترَ أي شخص آخر يمضي في ذلك الطريق عبر الأرض السبخة، أليس كذلك؟ ألم تُلاحظ أي شخص يتبعه؟»

أجاب مُحصل التذاكر بطريقة قاطعة: «لا.» وتابع: «راقبته أنا وأحد زملائي مسافةً طويلة، وأقسم على أنه لم يكن يوجد أي شخص بالقرب منه حتى توارى عن ناظرَينا. أيضًا، لم نكن نُراقبه عن عمد. فعندما غادر قطار العودة، جلست أنا ورفيقي لتدخين الغليون، ومن مكاننا كنا نستطيع أن نرى الطريق عبر الأرض السبخة في هذا الاتجاه. كنا نرى ستونر، بين الحينِ والآخر، كما تفهم، في الطريق إلى بلدة تشات بانك.»

سأله رئيس الشرطة: «ألم تُلاحظ أيَّ أشخاص مريبين يأتون إلى محطتك بعد ظهر ذلك اليوم أو في المساء؟»

ردَّ مُحصل التذاكر بأنه لم يرَ أي شيء من هذا القبيل، وبعد قليل غادر. وغادر بريريتون أيضًا، بعدما تبادل حوارًا قصيرًا غيرَ مهمٍّ مع رئيس الشرطة، وكان قد تأكد ساعتها من أن موت ستونر كان له علاقةٌ شريرة ما بمقتل كايتلي.

الفصل الثامن عشر

دفتر القصاصات

عاد بريريتون إلى منزل صديقه في حيرةٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بسبب تشابُه المُدخَلات في مفكِّرة كايتلي وفي دفتر جيب ستونر. كان بينت قد ذهب إلى نوركاستر بعد ظُهر ذلك اليوم في عمل، ولم يكن سيعود إلى البيت حتى وقتٍ متأخِّر من المساء؛ لذلك، تناول بريتون العشاء بمُفرده وكان لديه متَّسعٌ من الوقت للتفكير والتأمل. أخذ التفكيرُ والتأمُّل إلى حدٍّ كبير طابَعَ التخمين، فيما يتعلَّق بحقيقة أن بعض المصطلحات والأرقام التي كان كايتلي قد دَوَّنَها، كان ستونر هو الآخَر قد دَوَّنَها. كانت هناك الأحرف الأولى إم وسي. كان يوجد تاريخ — إن كان تاريخًا — ٨١. كان من غير المجدي تخمينُ ما الذي تَعنيه الأحرف الأولى إس بي في مفكرة كايتلي. في الواقع، كانت مفكرته غامضة مثل الكتابة الهيروغليفية. لكن مفكرة ستونر كانت أكملَ وأكثر وضوحًا. كان المُدخَل إم وسي في مُفكِّرة كايتلي قد كُتِبا كاملين في مفكرة ستونر؛ مالوز وتشيدفورث. وكلمة «احتيال» والمُدخَلات الأخرى «محكمة ويلشستر» والكلمات التكميلية، تُشير بوضوح إلى أن رجلَين يُدعَيان مالوز وتشيدفورث حُوكما في محكمة ويلشستر في العام ١٨٨١ بتهمة الاحتيال، وأنَّ مبلغًا قدره ٢٠٠٠ جنيه إسترليني كان متضمَّنًا في القضية، ولم يُستعَد قط، وأن مالوز وتشيدفورث، أيًّا كانا، قد أُدينا وحُكِم عليهما بالسَّجن لمدة عامَين. كل هذا كان في مفكرة ستونر. ولكن هل كان يُشير إلى المرجع نفسِه الذي أشار إليه كايتلي في مفكرته؟ يبدو أنه من المحتمَل جدًّا أن الأمر كان ذلك. بدا من المحتمل جدًّا أيضًا أن يكون إم وسي في مفكرة كايتلي هما مالوز وتشيدفورث المذكورين في مفكرة ستونر. والآن، تقلَّصَت المشكلة إلى نقطةٍ واحدة أكثرَ خطورةً وحسمًا؛ هل مالوز وتشيدفورث المذكوران في هذه المراجع هما مالاليو وكوذرستون من هاي ماركت.

وبينما هو يُخمِّن بشأن هذا الاحتمال، ذهب بريريتون بعد عشائِه المنفرد إلى غرفة تدخين بينت، وارتمى على كرسيٍّ أمام المدفأة، وأشعل غليونه وشرَع في التفكير بعقلانيةٍ في الأمور. كان واضحًا له تمامًا في ذلك الوقت أن كايتلي وستونر كانا يَعرفان سِرًّا: بدا مؤكَّدًا أن كِلَيهما قُتِل على يد شخص أراد إسكاتهما. لم يكن يوجد احتمال للشكِّ في مقتل كايتلي: ومما سمعه بريريتون بعد ظهر ذلك اليوم، بدا أن الشك ضئيلٌ في أن ستونر قد قُتِل هو الآخَر. كان قد سمع ما قاله الأطباء المحليُّون؛ اتفقوا جميعهم على أنه على الرغم من أن الكاتب قد أُصيب بجروح جرَّاء سقطةٍ كان من شأنها أن تُؤدِّيَ إلى موتٍ فوري تقريبًا، فقد تلقَّى ضربةً قاتلةً قبل أن يسقط. مَن الذي ضربه تلك الضربة؟ بدا أن كل شيء يُشير إلى حقيقة أن الرجل الذي ضربها هو الرجل نفسُه الذي خنق كايتلي؛ رجل يتمتَّع بقوة عضلية كبيرة.

بينما كان بريريتون يجول بناظرَيه في أرجاء الغرفة وهو جالسٌ على مقعدٍ كبير وثير، ويداه خلف رأسه، وقعت عيناه فجأةً على إرث كايتلي إلى ويندل بينت. كان الدفتر القديم غريبَ المظهر، الذي كان من السهل، بسبب غلافه من الجلد الطبيعيِّ ومشبكه النحاسي، أن يظنَّ المرء أنه كتابُ صلاة، قابعًا في المكان نفسِه الذي وضَعه فيه بينت على مكتبه عندما سلَّمه إياه كريستوفر بِيت رسميًّا؛ وبحسَب ما عرَف بريريتون لم يكن بينت قد فتحه حتى الآن مطلقًا. وبدون أيِّ دافع مُعيَّن مدَّ بريريتون يده إليه والتقطَه، وبعدما فتح المشبك بدأ بشيء من الخمول يُقلب الأوراق التي كان المحقق المسنُّ قد ألصق عليها قُصاصاتٍ من الصحف والكتب المُدخَلات بخطِّ يده الرديء. اعتقد بريريتون أنه كان يتعامل بلا اكتراث مع ما وصَفه بينت بطريقة مُضحِكة بأنه ... مجرد دفتر قصاصات. لم يخطر بباله أبدًا أنه كان يُمسك بين يدَيه بالحل الكامل تقريبًا للُّغز الذي كان يُحيره.

لا أحد يعرف كيف يأتيه الإلهام، ولم يعرف بريريتون أبدًا كيف عرَف فجأةً، في لمح البصر، وبسرعةِ خاطر، أنه عثر على ضالَّته. ربما كان للتخمين علاقةٌ بهذا. في الصفحة الأولى الفارغةِ كان كايتلي قد كتب «دفتر القصاصات». بعد ذلك، على رأس الصفحات، كان قد دوَّن تواريخَ بأرقام كبيرة، كمرجع، ١٨٧٥، ١٨٧٩، ١٨٨٧، وهكذا دوالَيك. وفجأةً رأى بريريتون وفهم وأدرك. وأصبحَت المُدخلات الخفية في مذكرات كايتلي واضحةً كأوضح كتابة. إم وسي ضد إس بي حوالي ٨١: كان يُمكن لبريريتون أن يَبْسط ذلك الآن. كان كايتلي يعرف القليل من اللاتينية، مثل كل الرجال الذين يخوضون في الجهود الأثرية،

وكان من الطبيعيِّ أن يستعرض معلوماته من حينٍ لآخَر. بالطبع كان المُدخَل بالكامل يعني إم وسي — vide (أي: انظر) دفتر القصاصات — circa (أي: حول) ١٨٨١.

بصيحة حادةٍ مليئة بالبهجة، قلَّب بريريتون صفحات سجلِّ الجريمة والتحرِّي الغريب هذا حتى وصل إلى رقم ١٨٨١ ظاهرًا بجلاء. وبعد أن قلب صفحة أو صفحتين، كان قد وجد ما يريد. ها هي ... قصاصة طويلة يبدو جَليًّا أنها من جريدةٍ محلية — مقطع امتدَّ على ورقتين أو ثلاث أوراق من الدفتر — وفي النهاية مذكرة بخط يدِ كايتلي، من الواضح أنها كُتِبَت قبل بضع سنوات. اهتمَّ محرر تلك الصحيفة المحلية بالقضية التي قصَّها كايتلي بعنايةٍ من أعمدته والتي استحقَّت ثلاثة عناوين رئيسية بأحرف كبيرة:

اختلاسات جمعية التشييد والبناء، مالوز وتشيدفورث في محكمة ويلشستر، قرار المحكمة والحكم.

جلس بريريتون ليقرأ التقرير قراءة متأنية. لم يكن به شيءٌ جدير بالملاحظة، لا شيء مُثير أو مُدهش. لم يكن في الواقع أكثرَ من سردٍ مملٍّ لجريمة مُبتذَلة. لكن كان من الضروري أن يعرف كل شيء عنها، وأن يكون قادرًا على تلخيصها؛ ولذا قرأها بعناية فائقة. كانت قصةً واضحة جدًّا؛ لم تكن تُوجد أي تعقيدات. بدا من الأدلة المقدَّمة أنه قُبيل عام ١٨٨١ كانت توجد جمعية للتشييد والبناء في ويلشستر، أعضاؤها أساسًا من صغار رجال الأعمال والعاملين من الطبقة المتوسِّطة. كان مسئولاها الرئيسيان لمدة عام أو عامين هما جون مالوز ومارك تشيدفورث، اللذان كانا، على الترتيب، أمين الخِزانة وسكرتير الجمعية. كان مالوز رئيسَ عمالٍ يعمل لدى مقاول في البلدة؛ وكان تشيدفورث كاتبًا لدى صاحب العمل نفسِه. وكانا كلاهما شابَّين. من الواضح أنهما كان يُنظَر إليهما باعتبارهما شابَّين ذكيَّين. حتى وقت اكتشاف جريمتهما، كان يُنظَر إليهما على أنهما يحملان كل الصفات الحميدة. عاش كلاهما في ويلشستر منذ الطفولة؛ وواصَلا تعليمهما في مدارس ليلية ومعاهد بعد أن وَلَّت أيام المدرسة الابتدائية المعتادة؛ ووُصِف كلاهما بالطموح والرغبة في الترقِّي في هذا العالم. كان كلٌّ منهما، عندما كان شابًّا، مرتبطًا بهيئات دينية؛ كان مالوز جامعَ هِبات في إحدى الكنائس، وكان تشيدفورث مدرسًا في مدارس الأحد في إحدى الكنائس. كان كلاهما موثوقًا به ثقةً تامةً وراسخة، وظهر من الأدلة أنه كان لديهما ما يرقى عمَليًّا إلى درجة سيطرةٍ غير خاضعة للرقابة على الموارد

المالية لجمعية التشييد والبناء. والنقطة المهمَّة حقًّا، أنه لم يكن يوجد شكٌّ على الإطلاق في أنهما استوليا على نحو ألفَي جنيهٍ من أموال زملائهم من الأعضاء.

كان كل شيء واضحًا بما فيه الكفاية؛ لم يستغرق بريريتون الكثيرَ من الوقت للاطِّلاع على هذه الحقائق. ما لم يكن واضحًا هو مكانُ وجود الأموال أو كيف تصرَّفوا فيها. من الأدلة ظهر أنه كانت توجد فكرتان متضاربتان مُنتشرتان في ويلشستر في ذلك الوقت. بدا أن بعض الناس كانوا يعتقدون أن المجرمين قد خسرا المالَ في مضاربة سرِّية وفي المقامرة: بينما كان آخرون على يقينٍ من أنهما أخفَيا المال بسرِّية في مكانٍ آمن. رفض السجينان رفضًا قاطعًا أن يُقدِّما أدنى قدر من المعلومات؛ فمنذ اعتقالهما التزَما الصمتَ التام والسلوك الاستفزازي. أُتيحَت لهما أكثرَ من مرة خلال سير المحاكمة فرصٌ لتبرئة ساحتهما مما فعلا ورفَضا انتهازها. وبعد إدانتهما، أُعيدا إلى محبسهما حتى اليوم التالي، وهو يوم النطق بالحكم؛ وكان ذلك بالطبع لمنحهما فرصةً أخرى ليُفصحا عمَّا فعلا بالمال. لكنهما التزما الصمت حتى النهاية، وحُكم عليهما بالسجن لمدة عامين مع الأشغال الشاقة، وهكذا اختفيا عن الأنظار، وبقي سرُّهما صامدًا، إن كان حقًّا يوجد سرٌّ.

كانت قصاصةُ صحيفة «ويلشستر سنتينل» تحوي كلَّ هذا القدر من المعلومات. ولكن كان يوجد المزيد مما يلزم قراءته. كانت نهاية القصاصة في النصف العلوي من صفحة في دفتر القصاصات؛ تحتها في النصف الفارغ من الصفحة كتَب كايتلي مُدخَلًا، مؤرَّخًا بعد ثلاث سنوات من المحاكمة.

«ويلشستر: ٢٨ يونيو ١٨٨٤. بالإشارة إلى الوارد أعلاه. جئتُ إلى هنا في عمل اليوم وتحدثت مع رجال الشرطة حول إم وسي والمال. لم يَسمع أحدٌ عن إم وسي منذ إطلاق سَراحِهما. كانا قد أُطلِق سَراحهما في الوقت نفسِه، وشُوهدا في البلدة بعد ذلك بساعة أو ساعتَين، وبعد ذلك اختفيا؛ قال رجلٌ تحدَّث إلى إم إن إم أخبره أنهما سيُهاجران. ويُعتَقَد أنهما ذهبا إلى الأرجنتين. وكانا لكلَيهما أقاربُ في ويلشستر، ولكن لم يعرف أيٌّ من أقاربهما شيئًا عمَّا فعل إم وسي لاحقًا، أو أنهم يلتزمون الصمت. لم يُعثَر على أيِّ أثرٍ للمال، والآراء منقسمة حول ما فعلوه به: يعتقد كثيرون في ويلشستر اعتقادًا جازمًا أنهما كانا قد أخفياه وأنهما ذهبا ليستخرجاه.»

بدَت القضية برُمتها لبريريتون الآن واضحةً وضوح الشمس. كان المُخبر المسنُّ، الذي كان بالصدفة يحطُّ رحاله في هاي ماركت، قد عرَف هُوية مالاليو وكوذرستون، التاجرين الثريَّين في تلك البلدة الصغيرة النائية، وتبيَّن له أنهما مالوز وتشيدفورث اللذين

كان قد رآهما في قفص الاتهام في ويلشستر، وكان قد كشَف عن معرفته تلك لأحدهما أو للآخَر أو لِكِلَيهما. كان ذلك مؤكدًا. ولكنَّ أشياءَ كثيرة كانت أبعدَ ما تكون عن اليقين. ماذا حدث عندما أماط كايتلي اللِّثام عن نفسه وأظهر أنه كان شاهدًا على إدانتهما في تلك الأيام الخوالي؟ كيف كشف عن نفسه؟ هل حاول ابتزازهما؟ كان هذا احتمالًا واردًا.

ولكن لا يزال يوجد المزيد مما يتعيَّن التفكير فيه. كيف نما إلى علم ستونر، الكاتب المتوفَّى، بهذا الحدث الجلَل في رَبَّي عمله؟ هل عرَف به من كايتلي؟ كان ذلك مستبعَدًا. ومع ذلك، كان ستونر قد كتب في دفتر جيبِه مُدخَلًا كان بالضبط تلخيصًا «دقيقًا» للحقائق المطلَقة. بطريقةٍ ما، وفي مكانٍ ما، كان ستونر قد صار على دراية كاملة بسرِّ مالاليو وكوذرستون. هل نتج موت ستونر عن معرفة ذلك السر؟ في ظاهر الأمور، لم يكن يُمكن أن يوجد سوى شكٍّ ضئيل في هذا. إذن مَن الذي ضرب الضربةَ التي قتلت ستونر، أو إن لم تكن قد قتلتْه بالفعل، تسبَّبت في وفاته إذ أدَّت إلى السقطة التي كسَرَت عنقه؟ هل كان مالاليو؟ أم كوذرستون؟

كان بريريتون عندئذٍ قد أصبح على يقينٍ تامٍّ من أن هذا أو ذاك، أو كِلَيهما، كانا مذنبَين بارتكاب جريمة قتل كايتلي، وربما ستونر. وعندما أدرك ذلك اليقين، شعر بأنه في ورطة لا يمكن إلا أن تكون مؤلمة. كان من واجبه، بصفتِه محاميًا لرجل بريء، أن يضغط في استفساراته إلى أقصى حدٍّ حول سلوك الرجلَين اللذين كان يَعتقد أنهما مذنبان. وفي هذا كان يُواجه وضعًا غير سارٍّ. لم يكن يكترث بشأن مالاليو على الإطلاق. إن كان مالاليو مُذنبًا، فليتحمَّل العواقب التي كان يستحقُّها كلَّ الاستحقاق على جرائمه. عرَف بريريتون، دون أن يكون غيرَ مبالٍ أو انتقاميًا أو قاسيًا، أنه لن تهتزَّ له شعرةٌ إن سمع أنه ثبتَت إدانة مالاليو وحُكِم عليه بالإعدام. لكن كوذرستون كان والد الفتاة التي من المقرَّر أن يتزوجَها ويندل بينت قريبًا؛ وكان بينت وبريريتون صديقَين حميمين منذ كانا يذهبان معًا إلى المدرسة.

لقد كان يُواجه موقفًا محزنًا وغيرَ مريح. لقد جاء في زيارة إلى بينت، وأطال تلك الزيارةَ من أجل الدفاع عن رجل كان يَعتقد اعتقادًا راسخًا أنه بريءٌ براءةَ طفل، والآن عليه أن يجلب الخزيَ والعار إلى الأسرة التي سيَرتبط معها مضيفه بأوثق الروابط. ولكن ذلك كان أفضل من أن يُعانيَ رجلٌ بريء من الويلات! وبينما كان يمشي جَيئةً وذَهابًا في غرفة التدخين في منزل بينت، وهو يُفكر مَليًّا في الأمر برمَّته، لم يكن قد عقد العزم تمامًا على أن يُخبر بينت بكل شيء عن الأمر عندما يعود.

ارتدى بريريتون قبعةً ومعطفًا وغادر المنزل. كانت الساعة حينها السابعةَ والنصف؛ وكانت أمسيةً شديدة البرودة من أمسيات شهر نوفمبر، والقمر شبهُ المكتمل يعلو في سماءٍ صافية مرصَّعة بالنجوم. أدى التغييرُ المفاجئ من دفء المنزل إلى الجو المُحمَّل بالصقيع على سفح التلَّة إلى شَحْذ قدراته العقلية؛ فأشعل غليونه وقرَّر أن يسير بسرعةٍ في الطريق المؤدي إلى هاي ماركت وأن يَشغَل نفسه بمراجعةٍ أخرى للموقف. لطالَما كان التمشي في القرية ليلًا أو نهارًا وفي عُزلة من الأمور الجذابة المحببة إلى نفس بريريتون، وقد انطلق يفعل ذلك بحماس. لكنه لم يكن قد قطع مسافةَ مائة ياردة في اتجاه الأرض السبخة حتى خرجت أفيس هاربورو من بوابة حديقة آل نورثروب والتقَت به.

قالت بهدوء: «كنت قادمةً لرؤيتك.» وأردفت: «لقد سمعتُ شيئًا ارتأيتُ أنه يجب عليك سماعه أيضًا، وفي الحال.»

أجاب بريريتون: «وما هو؟»

سحبت أفيس ظرفًا من كُمِّها وأعطته إياه.

قالت: «أحضرَ لي صبيٌّ هذا منذ نصف الساعة.» واستطردت: «إنه من سيدةٍ عجوز، السيدة هَمثويت، التي تعيش في مكانٍ منعزل للغاية على الأرض السبخة فوق محجر هوبويك. هل يمكنك قراءته في هذا الضوء؟»

أجاب بريريتون: «سأفعل»، وهو يسحب قصاصة ورق من الظرف. استطرد قائلًا، وهو يُعيدها إلى أفيس: «هاكِ، أمسكي بها، وسأُشعل عودَ ثقاب؛ فضوء القمر ليس قويًّا بما يكفي. والآن»، تابع وهو يُخرِج علبة ثقاب من جيبه ويشعل عودًا: «ثبِّتيها ... «إذا ذهبت الآنسة هاربورو لرؤية سوزان هَمثويت فسأخبركِ بشيء قد ترغبين في معرفته.» ... همم!» هتف وهو يرمي عودَ الثقاب. وسأل: «والآن، كم يَبعد كوخ هذه المرأة العجوز؟»

أجابت أفيس: «ميلين.»

فسألها: «هل يُمكنكِ الذَّهاب إلى هناك الآن؟»

فأجابت: «فكرتُ في أن أفعل ذلك.»

قال بريريتون: «تعالَي، إذن.» وتابع: «سنَذهب معًا. إن اعترَضَتْ على وجودي، فسأتركُكِ معها وأنتظرُك في الجوار. بالطبع، تُريد أن تُخبركِ بشيء متعلق بوالدكِ.»

قالت أفيس: «هل تظن ذلك؟» وأردفت: «آمُل أن يكون الأمر كذلك!»

فأجاب: «هو كذلك بالتأكيد.» وأضاف: «ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟»

علَّقَت قائلةً: «يوجد الكثير من الأمور الغريبة التي يمكن التحدث عنها الآن.» واستطردَت: «علاوةً على ذلك، إن كانت السيدة همثويت العجوز تعرف أي شيء، فلماذا لم تُخبرني به حتى الليلة؟»

قال بريريتون: «أوه، لا تفسير لذلك!» وتابع: «للنساء المسنَّات طريقتهن الخاصة في فعل الأشياء، بالمناسبة»، تابع وهما يخرجان من الطريق ويبدَآن في تسلُّق الدرب الذي كان يؤدي إلى أول حدبةٍ في الأرض السبخة خارج البلدة: «لم أرَكِ اليوم ... هل سمعتِ بقصة ستونر هذه؟»

فأجابت: «أخبرني بها السيد نورثروب بعد ظهر اليوم.» وسألتْه: «ما رأيك فيها؟»

تابع بريريتون السير قليلًا دون أن يرد. كان يسأل نفسه سؤالًا مُهمًّا. هل ينبغي أن يُخبر أفيس هاربورو بكل ما عرفه؟

الفصل التاسع عشر

رجل طويل القامة يرتدي ملابس رمادية

ظل ذلك السؤال بلا إجابة، وظل بريريتون صامتًا، حتى وصل هو وأفيس إلى قمة الدرب، وخرَجا على حافة الامتداد الواسع للأرض السبخة فوق البلدة الصغيرة. توقَّف لحظةً ونظر خلفه إلى أسطح وأسقف هاي ماركت المحدبة، وهي تتلألأ وتتألَّق في ضوء القمر؛ توقفت الفتاة أيضًا، متعجبةً من صمته. وباندفاعٍ غريب استدار فجأةً، ووضع يده على ذراعها، وضغط عليها بقوة وسرعة.

وقال «اسمعي!» وتابع: «سأثقُ بكِ. سأقول لكِ ما لم أقُلْه لأي مخلوق في تلك البلدة! ولا حتى تالينجتون، رجل القانون، ولا بينت، صديقي القديم. أريد أن أقول شيئًا لشخصٍ يمكنني الوثوقُ به. يُمكنني أن أثق بكِ!»

أجابت بهدوء: «أشكرك.» وتابعت: «أنا ... أنا أظنُّ أنني أفهم. وأنت ستفهم، أيضًا، أليس كذلك، عندما أقول ... يُمكنك ذلك!»

قال بسرور: «جيد جدًّا.» واستطرد: «بالطبع! الآن يفهم أحدنا الآخر. تعالَي، إذن، فأنتِ تعرفين الطريق؛ كوني مُرشدتي، وسأخبركِ بينما نمضي في طريقنا.»

انعطفَت أفيس إلى ما بدا أنه ليس أكثرَ من مسارٍ للأغنام عبر نباتات الخلَنْج. في غضون بضع دقائق، لم يكونا وحدهما تمامًا فحسب، وإنما صارا بعيدَين عن أنظار أيِّ بشر. بدا لبريريتون أنَّهما فجأةً دخلا إلى عالم خاصٍّ بهما وحدهما، بعيدًا تمامًا عن العالم الصغير الذي كانوا قد تركوه للتو، كبُعد أحد النجوم عن الآخر. ولكن بينما كان يُفكر في هذا، رأى من بعيد، عبر تموجات نباتات الخلنج التي كانت ترتفع وتنخفض، أضواءَ قطارٍ متحرك كان يمضي في طريقه مسرعًا صوبَ الجنوب بحذاء الخطِّ الساحلي من نوركاستر، وبعد قليل أتت صرخةُ صافرة طويلة من مُحَرِّكِهِ مع النسيم الخفيف الذي هبَّ إلى الداخل من البحر المحتجب، وأعاده ما أبصَره وما سمعه إلى حقائق الحياة القاسية.

استهل حديثه قائلًا: «أصغي، إذن، بعناية.» واستطرد: «وتذكَّري أني أضع بين يديكِ ما أعتقد أنه سلامة رجال آخرين. الأمر كما يلي ...»

استمعت أفيس هاربورو في صمتٍ تامٍّ بينما كان بريريتون يقصُّ عليها قصته المرتبة بعناية. سارا ببطء عبر الأرض السبخة بينما كان يَقصُّها؛ ومرةً ينحدران في وادٍ، وأخرى يصعدان فوق قمة تلةٍ مُنخفِضة؛ وأحيانًا يتوقَّفان تمامًا وهو يُرَسِّخ في ذهنها نقطة معينة. على ضوء القمر، كان بوُسعه أن يرى أنها كانت تستمعُ بشغفٍ واهتمام، لكنها لم تُقاطعه مطلقًا ولم تطرحْ أي سؤال. وأخيرًا، ما إن صار على مرأًى منهما ضوءٌ يتوقَّد من نافذة كوخ صغير في الأرض السبخة، قائم في غور أسفل الحيد الذي كانا يجتازانه حينها، حتى أنهى قصته واستدار إليها مُستفسرًا.

قال: «هذا هو المَوْقِف!» وأردف: «ذلك كل شيء. حاوِلي الآن أن تُفكري فيه دون تحامل ... إن استطعتِ. كيف يبدو لكِ الأمر؟»

بدلًا من أن تردَّ مباشرةً، سارت الفتاة في صمتٍ للحظة أو اثنتين، ثم التفتت فجأةً إلى بريريتون باندفاع.

هتفَت: «لقد منحتَني ثقتك وسأمنحك أنا أيضًا ثقتي!» وتابعت: «ربما كان عليَّ أن أمنحك إياها من قبل ... لك أو للسيد تالينجتون ... لكن ... لم أُرِد ذلك. لقد راودني الشكُّ بشأن مالاليو! راوَدني الشكُّ في أنه ... في أنه قتل ذلك الرجل العجوز. وتساءلت عمَّا إذا كان يُحاول إلقاء اللوم على والدي بدافع الانتقام!»

صاح بريريتون: «انتقام!» وسألها: «ماذا تعنين؟»

أجابت «لقد أهانه أبي ... منذ وقتٍ ليس ببعيد.» وتابعت: «العام الماضي — سأُخبرُك بكل شيء، وبصراحة — بدأ السيد مالاليو يأتي إلى كوخنا في أوقاتٍ متفرقة. جاء أولًا ليُقابل والدي بشأن قتل الفئران التي كانت قد دخلت إلى المباني المُلحَقة الخاصة به. ثم أصبح يختلق الأعذار للمجيء ... كان يأتي، على أيِّ حال ... في الليل. ثم بدأ يأتي عندما يكون والدي بالخارج، وكثيرًا ما كان كذلك. كان يجلس ويُدخن ويتحدَّث. لم يُعجبني هذا ... فهو لا يرُوق لي. ثم اعتاد مقابلتي في الغابة، في طريق عودتي إلى البيت من عند آل نورثروب. اشتكيتُ إلى والدي بشأن هذا، وفي إحدى الليالي جاء والدي ووجده في البيت. أبي، يا سيد بريريتون، رجلٌ غريب الأطوار وصريحٌ للغاية. أخبر السيد مالاليو أن أيًّا منَّا لا يرغب في صحبته وطالَبَه بالرحيل. وفقد السيد مالاليو صوابَه وقال أشياءَ بغضب.»

قال بريريتون: «وأبوكِ؟» وأردف: «هل فقدَ صوابه أيضًا؟»

أجابت أفيس: «لا!» وتابعت: «إنه عصبيُّ المِزاج، لكنه تحكَّم في أعصابه في تلك الليلة. لم يردَّ مطلقًا على السيد مالاليو. تركه يقول ما لديه، حتى تجاوز عتبة الباب، ثم أغلقه في وجهه. لكن ... أعرف كم كان السيد مالاليو غاضبًا.»

وقف بريريتون صامتًا يُفكر في الأمور للحظة. ثم أشار إلى الضوء في النافذة أسفلَهما، واتجه نحوه.

قال: «أنا سعيدٌ بأنكِ أخبرتِني بذلك.» واستطرد: «هذا قد يُفسر شيئًا كان يُحيِّرني كثيرًا؛ يجب أن أتدبَّر الأمر. لكن في الوقت الحالي، هل ذلك هو مصباح المرأة العجوز؟»

تقدَّمت أفيس الطريقَ إلى تجويفٍ عبر ممرٍّ ضيق أدى بهما إلى باحةٍ صغيرة مُسيَّجة بجدار حجري، حيث كانت شجرة تنوب واحدة قائمة كحارسٍ على مسكنٍ تقليدي من مساكن الأرض السبخة الأصغر حجمًا؛ منزل من طابَقٍ واحد من حجارةٍ خشنة غير معالجة، سقفُه مؤمَّن من العواصف والزوابع بجلاميدَ صخرية ضخمة مُدلَّاةٍ على حبالٍ قوية، ومَبنِي بجواره سقيفةٌ من حجارة خشنة بالقدر نفسِه لبعض الدوابِّ القليلة من أبقار وأغنام. بحكم عادته في التأمُّل في الأشياء التي يُشاهدها لأول مرة، لم يَستطع بريريتون يمنع نفسه من التساؤل عن طبيعة الحياة في هذه العزلة، وفي مثلِ هذه الصومعة المثالية، لكن تَكهُّناته قُطِعَت عندما فُتِح الباب القائم في نهاية المدخل المسقوف المطليِّ بالكِلس. ظهرَت عجوز، محنيَّة الظهر كثيرًا بحكم السِّن، ونظرت إليه وإلى أفيس، وهي تحمل مصباحًا صغيرًا بحيث سقط نوره على وجهَيهما.

قالت بتَرحاب: «تعالَي إلى الداخل، يا حُلوتي!» وأردفت: «كنتُ أتوقَّع مجيئكِ الليلة: كنت أعرف أنكِ تُريدين التحدُّث معي بأسرعِ ما يمكنكِ. تعالَي واجلسي بجوار نار المدفأة؛ فالليالي باردة، بالتأكيد، والهواء محمَّل بالصقيع.»

سألتْها أفيس وهي تخطو مع بريريتون إلى داخل المدخل المسقوف: «أيُمكن لهذا السيد، أيضًا، أن يدخل، يا سيدة همثويت؟» وأضافت: «إنه السيد المحامي الذي يُدافع عن والدي؛ هل تُمانعين في التحدُّث أمامه؟»

أجابت السيدة همثويت بضحكةٍ مكتومة: «لا أمامه ولا خلفه ولا حتى معه.» واستطردَت: «لقد تحدَّثتُ إلى محامين قبلَئذٍ، مرات كثيرة! تعالَ ادخل يا سيدي ... واجلس.»

أغلقَت الباب بحرص خلف ضيفَيها وأشارت إليهما بالجلوس بجوار نار المدفأة المتألِّقة، ثم وضعت المصباح على المنضدة، واتَّخذت جِلستها في ركنٍ اعتادت الجلوسَ فيه

منذ زمنٍ طويل، وطوَت يدَيها على مئزرها وألقت نظرةً طويلة على زائرَيها من خلال نظَّارة كبيرة الحجم بشكل غير عادي. ونظر إليها بريريتون، باهتمام حقيقي، نظرة طويلةً مماثلة؛ فرأى امرأةً طاعنةً في السنِّ جدًّا على نحوٍ واضح لكنها كانت ذاتَ وجه يوحي بالشغف والذكاء وحتى بالحيوية. وبينما كانت نظراتُ هذا الوجه العجوز الغريب تَنتقِل بينهما، خفَّت حِدَّة تجاعيده متحولةً إلى ابتسامة.

قالت السيدة همثويت، وهي تلتفتُ ناحية أفيس: «لعلَّكِ تتساءلين عمَّا أريد قوله، يا حبيبتي.» وتابعت: «ولا شك في أنكِ تُريدين أن تعرفي لماذا لم أرسل في طلبكِ قبل الآن. لكن كما ترَين، منذ أن ألَمَّ ببيتكِ ذلك الخَطْب، كنتُ مسافرةً. أجل، لقد ذهبت لرؤية ابنتي، فهي تعيش على الساحل. ولم أعُد إلى البيت إلا اليوم. وليس لديَّ في كتابة الرسائل. ولكن ها نحن الآن هنا، وأن يحدث أمرٌ آجلًا خيرٌ من ألَّا يحدث أبدًا، ولا شكَّ في أن هذا السيد المحاميَ سيكون سعيدًا بسماع ما سأقوله لكِ وله.»

أجاب بريتون: «سعيدٌ جدًّا حقًّا!» وسألها: «ما الأمر؟»

التفتَت العجوز إلى صندوقٍ موضوع في تجويفٍ في الحائط في زاوية المدفأة وأخذَت منه صحيفة مطوية.

وقالت: «قرأتُ أنا وابنتي وزوجها هذه الرواية المكتوبة هنا عمَّا حدث في القضية المرفوعة ضد هاربورو عندما أُحيلَت إلى قضاة التحقيق.» وتابعت: «لقد درَسناها. الآن أنت تريد أن تعرف أين كان هاربورو في الليلة التي قُتِل فيها ذلك الرجل العجوز. ذلك ما تريده، يا سيدي، صحيح؟»

أجاب بريريتون: «ذلك ما أريده بالفعل»، وهو يضغط بذراعه على أفيس، التي كانت جالسةً بجواره. وأردف: «أجل، بالفعل! وأنتِ ...»

ردَّت السيدة همثويت، بابتسامةٍ لا تخلو من مكر: «أستطيع أن أخبرك أين كان هاربورو بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة في تلك الليلة.» وأردفَت: «أنا أعرف، إن لم يكن أيُّ أحد آخر يعرف!»

سألها بريتون بإلحاح: «أين إذن؟»

مالت العجوز نحو موقد المدفأة.

وهمست: «هنا في الأرض السبخة!» واستطردت: «على بُعد أقل عن خمس دقائق سيرًا على الأقدام من هنا. في مكان — تعرفه هذه الآنسة — يُسمى «جود فوكس ليفت». أرض مرتفعة قليلًا حيث اعتادت الجنيات أن ترقص، كما تعلم، سيدي.»

سألها بريريتون: «هل رأيتِه؟»

ضحكت السيدة همثويت: «رأيته.» وأردفت: «ولو لم أكن أعرفه، فابنتُه نفسها لا تعرفه!»

قال بريريتون: «من الأفضل أن تُخبرينا بكل شيء عن ذلك.»

نظرت إليه السيدة همثويت نظرةً حادةً. وقالت: «لقد أدليتُ بشهادتي أمام رجال القانون قبلئذٍ.» وسألته: «أتُريد، مثلًا، أن تعرف ما يمكنني أن أقول أمام القاضي؟»

أجاب بريريتون: «بالطبع.»

تابعت: «حسنًا، إذن ...» واستطردَت: «كما ترى، يا سيدي، منذ وفاة زوجي، عِشت بمفردي هنا. لديَّ القليل من الدخل ... ليس بالكثير، ولكنه كافٍ. على الرغم من ذلك، إن كان بإمكاني التوفيرُ قليلًا عن طريق صيد أرنبٍ بري، أو طائر أو طائرَين بين الحين والآخر، من الأرض السبخة، فسأفعل هذا! نحن جميعًا نفعل ذلك؛ لأننا نعيش في الأرض السبخة: بعض الناس يُسمُّون ذلك صيدًا جائرًا، لكننا نُسميه أخذ ما لنا. حسنًا، في تلك الليلة التي نتحدث عنها، ذهبت إلى «جود فوكس ليفت» لإلقاء نظرة على بعض الفخاخ التي كنتُ قد وضعتُها في وقتٍ مبكر من ذلك اليوم. توجد شجيرات كثيرة في أرجاء ذلك المكان؛ كنتُ وسط الشجيرات عندما سمعت وقع أقدام، وأطللتُ برأسي فرأيت رجلًا طويلًا يرتدي ملابسَ رمادية يقترب مني. كيف عرَفت أنه كان يرتدي ملابسَ رمادية؟ عجبًا، لأنه توقف بالقرب مني ليُشعل غليونه! لكنه كان يوليني ظهره، لذا لم أرَ وجهه بالكامل، فقط جانبًا منه. كان رجلًا ذا لحية رفيعة رمادية. حسنًا، بينما كان يمشي مارًّا بذلك المكان، ولم يذهب بعيدًا، سمعت وقع خطوات أخرى. ثم سمعت صوت والدكِ، يا آنسة، ورأيت الاثنين يلتقيان. وقَفا، وتهامسا، لمدة دقيقة أو نحو ذلك، ثم عادا أدراجَهما مرورًا بي، وانطلقا عبر الأرض السبخة باتجاه هِكسنديل. وسرعان ما غابا عن الأنظار، وعندما انتهيتُ مما جئت من أجله عدت إلى البيت. ذلك كل شيء يا سيدي؛ ولكن إذا كان ذلك الرجل العجوز قد قُتِل في غابة تلَّة هاي ماركت شول بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة في تلك الليلة، فإن جاك هاربورو لم يقتله؛ لأن جاك كان هنا بعد التاسعة بقليل، وهو والرجل الطويل غادرا في الاتجاه المعاكس!»

سألها بريتون بقلق: «هل أنتِ متأكدة من الوقت؟»

أجابت السيدة همثويت مؤكدةً: «بالتأكيد، يا سيدي! لقد كان الوقت قبل التاسعة بعشرِ دقائق عندما خرجتُ، وقرب العاشرة عندما عدت. ساعتي دائمًا مضبوطة؛ أضبطها على التقويم وعلى شروق الشمس وغروبها كل يوم، وهي تعمل على أفضل وجه.»

ألحَّ بريريتون، قائلًا: «هل أنتِ متأكِّدة بالقَدْر نفسِه من أن الرجل الثانيَ هو هاربورو؟» أردف: «ألا يُمكن أن تكوني مخطئة؟»

قالت السيدة همثويت: «مخطئة؟ لا! يا سيد، أنا أعرف صوت هاربورو، وهيئته، وخطوته، مثلما أعرف ركن مدفأتي.» وتابعت: «بالطبع أعرف أنه كان هاربورو، لا شك في ذلك!»

سألها بريريتون: «كيف تكونين متأكِّدة من أن هذا كان مساء جريمة القتل؟» واستطرد: «هل يمكنكِ إثبات ذلك؟»

قالت السيدة همثويت: «بسهولة!» وتابعت: «في صباح اليوم التالي سافرتُ لرؤية ابنتي المقيمة على الساحل. سمعت عن مقتل الرجل العجوز عند مُلتقى طرق هاي جيل. لكنني لم أسمع حينها أن هاربورو كان مشتبهًا به؛ لم أسمع بذلك حتى لاحقًا، عندما قرأنا هذا في الصحف.»

«والرجل الآخر — الرجل الطويل ذو الثياب الرمادية واللحية الرمادية قليلًا — ألم تتعرَّفي عليه؟»

تغيَّرت ملامح وجه السيدة همثويت وبدا عليها ما يوحي بعدم التيقُّن.

أجابت: «حسنًا، سأخبرك.» واستطردت: «أعتقد أنه رجلٌ رأيته هنا في هذه المنطقة مرتين أو ثلاث مرات خلال الثمانية عشر شهرًا الماضيةِ أو نحو ذلك. إن كنتَ تُريد حقًّا أن تعرف، فأنا أستطيع التعامل جيدًا في الأرض السبخة في الليل؛ صحيحٌ أنني عجوز، ولكني نشيطةٌ جدًّا، وأتنقل هنا وهناك كثيرًا، ولم لا؟ وكنت أرى رجلًا في هذه الأنحاء بين الحين والآخر — كانت شهور تَفصل بين كل مرة والأخرى، عادةً — لا يمكنني تفسير ذلك — وأعتقد أنه هو الرجل الذي كان مع هاربورو.»

قال بريريتون: «وتقولين إنهما ذهبا في اتجاه هكسنديل؟» وأردف يسألها: «أين هكسنديل؟»

أشارت العجوز ناحية الغرب.

وأجابت: «في المناطق الداخلية.» وتابعت: «هناك. هذه الآنسة تعرف هكسنديل جيدًا جدًّا.»

قالت أفيس: «هكسنديل وادي، به قرية تَحمل الاسم نفسَه، ويقع على بُعد نحو خمسة أميال على الجانب الآخر من الأرض السبخة.» وتابعَت: «يوجد خطٌّ آخر للسكك الحديدية هناك؛ هذا الرجل الذي تتحدث عنه السيدة همثويت يُمكن أن يأتيَ ويذهب بواسطته.»

بعد هُنيهة علَّق بريريتون قائلًا: «حسنًا، نحن ممتنَّان جدًّا لكِ، يا سيدتي، وأنا متأكد من أنكِ لن تعترضي على الإدلاء بكل هذا مرةً أخرى في الوقت والمكان المناسبَين، أليس كذلك؟»

أجابت السيدة همثويت: «إيه، فليُبارِكَ الرب، بلى!» وأردفت: «سأدلي به أينما تريد، أيها السيد؛ أمام المحامي تالينجتون، أو القضاة، أو الملك، أو أي أحد! لكن دعني أخبرك شيئًا، إن كنت ستأخُذ نصيحة صغيرة من عجوز؛ أنت شابٌّ بادي الذكاء، وسأخبرك ماذا كنتُ سأفعل لو كنتُ في مكانك!»

سألها بريتون، بمرح: «حسنًا، ماذا؟»

أطبقت السيدة همثويت بيدها على كتفه وهي تفتح الباب لزائريها.

قالت: «اعثُر على ذلك الرجل الطويل ذي الملابس الرمادية!» «أمسك به! إنه الرجل الذي تريده!»

مضى بريريتون في صمت، متأملًا في كلمات العجوز الأخيرة.

هتف فجأةً: «ولكن أين نجده؟» واستطرد: «من هو؟»

قال أفيس: «لا أظن أن هذا يُحيرني.» وأردفت: «إنه الرجل الذي أرسل التِّسعَمائة جنيه.»

ضرب بريريتون عصاه على الخلنج عند أقدامهما.

صاح: «بحق الرب! لم أفكِّر في ذلك قط!» وأضاف: «لا عجب! لا عجب على الإطلاق. مرحى! نحن نقترب أكثر فأكثر من شيءٍ ما.»

لكنه كان يعلم أنه ما زال مُقبلًا على خطوةٍ أخرى، خطوة غير سارة ومؤلمة؛ عندما عاد إلى منزل بينت، بعد ساعة، قال له بينت إن ليتي اقتنعتْ بتحديد يوم الزفاف، وإن المراسم ستجري بأقصى قدرٍ من الخصوصية خلال أسبوع من اليوم.

الفصل العشرون

محاصر في زاوية

بجهدٍ هائل نابع من الإرادة منَع بريريتون نفسَه من أن يُطلق صيحة تعجُّب وأن يتراجَع مذهولًا. لكنه في الآونةِ الأخيرة كان قد اعتاد على توقُّع كل أنواع الأحداث غير المتوقَّعة؛ ولذا تمكن من ألَّا يُظهِر إلا القليل من الدهشة الطبيعية.

قال: «ماذا! بهذه السرعة!» وأردف: «عجبًا، يا صديقي! لم أتصوَّر أن يحدث هذا قبل عيد الميلاد المجيد.»

أجاب بينت: «كوذرستون مصرٌّ على ذلك.» وأضاف: «يبدو أنه يتحوَّل إلى شخصٍ مُصاب بوسواس المرض. آمُل ألا يكون حقًّا مصابًا بمرض خطير. ولكن على أيِّ حال، الزفاف بعد أسبوع. وبالطبع، ستكون أنت إشبيني.»

وافق بريريتون، قائلًا: «آه، بالتأكيد!» وسأله: «وبعد ذلك، هل ستُسافران؟»

قال بينت: «أجل، ولكن ليس لمدة طويلة بقدر ما كنَّا ننوي.» وتابع: «سنذهب سريعًا إلى الريفييرا بضعة أسابيع؛ لقد أجريتُ كل ترتيباتي اليوم. حسنًا، هل توجد أيُّ أخبار جديدة حول هذا الحادث المفجِع الأخير؟ لقد استاء كوذرستون بالطبع استياءً رهيبًا من واقعة ستونر هذه. متى سينتهي كلُّ هذا الغموض يا بريريتون؟ ثَمة شيء واحد مؤكَّد تمامًا، وهو أن هاربورو ليس مُذنبًا في هذه القضية. هذا، إن كان ستونر قد قُتل حقًّا جرَّاء الضربة التي يتحدثون عنها.»

لكن بريريتون رفَض مناقشة هذه الأمور تلك الليلة. تذرَّع بالإرهاق، وبأنه كان طَوال اليوم مُنكبًّا على هذا الموضوع، وأن عقله مشوَّش ومتعَب، ويحتاج إلى الراحة. وبعد قليلٍ مضى إلى غرفته، وعندما دخل إلى هناك أطلق أنينَ جزع. وذلك لأن أمرًا واحدًا كان لا مفرَّ منه، وهو أن زفاف بينت يجب ألَّا يجريَ بينما تُوجد أدني فرصة لتوجيه اتِّهام رهيب ومفاجئ لكوذرستون.

استيقظ في الصباح وقد حسَم أمره. لم يكن هناك سِوى مسار واحد يجب اتخاذُه، ويجب اتخاذه على الفور. يجب أن يتحدث أحدٌ ما مع كوذرستون؛ يجب أن يُخبر أحدٌ ما كوذرستون بما يعرفه بعض الناس على أيِّ حال عنه وعن سوابقه. فليَحصل على فرصةٍ لتوضيح موقفه. في نهاية الأمر، قد يكون لديه تفسيرٌ ما. ولكن — وهنا أصبح إصرار بريريتون ثابتًا وأكيدًا — يجب الإصرار على أنه يتعيَّن أن يُخبر بينت بكل شيء.

كان بينت دائمًا ما يخرج في الصباح الباكر لمتابعة أعماله، وعادةً ما كان يُفطر في مكتبه. كان ذلك هو أحدَ الأيام التي لم يَعُد فيها إلى المنزل في الصباح؛ ولذلك تناول بريريتون طعام إفطاره بمفرده، ولم يكن قد رأى مضيفه عندما انطلق هو الآخَر إلى البلدة. كان قد قرَّر بالفعل ما يتعيَّن عليه فعلُه؛ سيُخبر تالينجتون بكل شيء. كان تالينجتون رجلًا في منتصف العمر يتمتَّع بسمعة جيدة جدًّا فيما يتعلَّق برجاحة عقله واستقامته؛ وبصفته مواطنًا من سكَّان البلدة، وقد سكن فيها طوال حياته، كان يَعرف كوذرستون جيدًا، ويمكنه أن يُقدم نصائحَ سديدة حول الأساليب التي يمكن اتباعُها في التعامل معه. وهكذا ذهب بريريتون إلى تالينجتون، ووصل بينما كان المُحامي قد انتهى للتو من قراءة خطاباته الصباحية، وتلا عليه القصةَ كلَّها التي كان قد عرَفها من دفتر قصاصات المحقق السابق، ومن المذكرة التي سجَّلها ستونر في دفتر جيبه.

استمع تالينجتون بانتباهٍ بالغ، وأخذ وجهُه يزداد جِدِّيةً بينما كان بريريتون يحشدُ الحقائق ويُشدد على دليلٍ تِلو الآخَر. كان مُستمعًا جيدًا، مستمعًا هادئًا ويقظًا؛ لاحظ بريريتون أنه لم يكن يُفكر في كل واقعة ويضع ملاحظاته على كلِّ نقطة فحسب، بل كان يُقَدِّر أيضًا ثِقَل الشهادة. وعندما وصلت القصة إلى نهايتها تكلَّم بطريقة قاطعة، وتكلم أيضًا تمامًا كما توقَّع بريريتون، دون إبداء أيِّ تعليق، ودون تقديم أيِّ رأي، وإنما مضى مباشرةً إلى الأمر الملحِّ بالفعل.

قال تالينجتون: «ثمة أمران فقط يجب إنجازُهما.» وتابع: «إنهما الأمران الوحيدان اللذان يمكن فعلهما. يجب أن نُرسل في طلب بينت، ونُخبرَه. ثم يجب أن نُحضر كوذرستون إلى هنا، ونخبره. لا يوجد سبيلٌ آخر، لا يوجد!»

سأله بريريتون: «بينت أولًا؟»

قال تالينجتون: «بالتأكيد! بينت أولًا، لا محالة. هذا من حقِّه. علاوةً على أنه ...» تابع بابتسامة قاتمة: «سيكون أمرًا غير سارٍّ بالتأكيد أن يُجبَر كوذرستون على أن يُطلِع بينت على الأمر، أو أن نُخبر بينت في حضور كوذرستون. ومن الأفضل أن نَشرع في العمل على الفور، يا بريريتون! وإلا ... فإن هذا الأمر سيَشيع بطريقة أخرى.»

قال بريتون: «تقصد ... من خلال الشرطة؟»

أجاب تالينجتون: «بالتأكيد!» واستطرد: «لا يُمكن أن يبقى هذا سرًّا. لأن أيَّ شيء نعلمه يمكن أن يكون شخصٌ ما منهمكًا فيه، ويعمل على كشفه، الآن وفي هذه اللحظة. هل تظن أن الفتى سيئَ الحظِّ ستونر احتفظ بما كان يَعرفُه لنفسه؟ أنا لا أظن ذلك! هيا ... على الفور! مكتب بينت على بُعد دقيقة واحدة فقط؛ سأرسل أحد موظفيَّ ليأتيَ به. الأمر مؤلم للغاية ... لكنه ضروري.»

كان أول ما صادفَته عينا بينت، عندما دخل غرفة تالينجتون الخاصة بعد عشر دقائق، دفترَ القصاصات المغلَّف باللون الأسود، ذا المشبك النحاسي، الذي كان بريريتون قد حمله معه وجاء به ووضعه على مكتب المحامي. أجفَل من مَرْآه، وبسرعة حوَّل ناظرَيه من أحد الرجلين إلى الآخر.

وسأل: «ما الذي يفعله هذا هنا؟» وسأل: «هل ... هل اكتشفتُما شيئًا؟ ما الذي أنا مطلوبٌ لأجله؟»

مرةً أخرى، كان على بريريتون أن يَسرد القصة. لكن مستمعه الجديد لم يستقبلها بالطريقة الهادئة التي استقبلتها بها أذنُ رجل القانون. كان بينت في البداية رافضًا للتصديق تمامًا؛ ثم صار ساخطًا: أخذ يقاطع، ويطرح أسئلة من الواضح أنه اعتقد أنه يَصعب الإجابةُ عنها؛ كان يُقاتل، وكان كِلا رفيقَيه، اللَّذَين تعاطَفا معه بشدة، يعرفان السبب. لكنهم لم يُخفِّفا من موقفهما مطلقًا، وفي النهاية أخذ بينت ينظر من واحدٍ إلى آخرَ بملامح بدا عليها الانكسار، وبدأ الشك فيها يتحوَّل إلى يقين.

سألهما فجأةً: «هل أنتما مُقتنعان ... بكل هذا؟» وأردف: «كِلاكما؟ هل هذه قناعتكما؟»

أجاب تالينجتون بهدوء: «نعم، إنها قناعتي.»

قال بريريتون: «كنت سأفعل من أجلك الكثير، يا بينت، لو لم تكن هذه قناعتي.» وأضاف: «لكنها ... قناعتي. أنا ... متأكد!»

وثَب بينت من كرسيِّه.

وصاح: «أيُّهما إذن؟» وتابع: «يا إلهي! أنتما لا تَقصدان أن تقولا إن كوذرستون ... قاتل! يا إلهي! ... فكِّرا فيما يعنيه ذلك لـ... لـ...»

نهض تالينجتون ووضع يده على ذراع بينت.

وقال: «لن نقول أو نُفكر في أيِّ شيء حتى نسمعَ ما لدى كوذرستون.» وأضاف: «سأنزل إلى الشارع وآتي به بنفسي. أعلم أنه سيكون بمفرده الآن؛ لأنني رأيتُ مالاليو

يدلف إلى مبنى البلدية قبل عشرِ دقائق؛ سيُعقَد اجتماعٌ هام للَّجنة هذا الصباح وسيترأَّس هذا الاجتماع. تمالك نفسك يا بينت؛ فقد يكون لدى كوذرستون تفسيرٌ ما لكل شيء.»

كان مكتب مالاليو وكوذرستون على بُعد بِضع ياردات فقط في الشارع؛ وعاد تالينجتون منه مع كوذرستون في غضون خمس دقائق. وكان بريريتون، وهو ينظر بتفحُّص إلى كوذرستون عندما دخل ورأى مَن كانا ينتظرانه، على يقينٍ من أن كوذرستون مستعدٌّ لأيِّ شيء. ظهرَت ومضةُ فَهم مفاجئةٌ في عينَيه الحادَّتين؛ كما لو أنه قال في نفسه ها هي لحظة، موقف، أزمة، كان قد توقَّعها، و... كان مُستعدًّا لها. كان كوذرستون هادئًا ظاهريًّا، وبنظرةٍ سريعة إلى الرجال الثلاثة، وإلى الباب المغلق، جلس على الكرسيِّ الذي أعطاه إياه تالينجتون، والتفتَ مواجهًا المحاميَ العام وقال كلمة واحدة:

«ما الأمر؟»

قال تالينجتون: «كما أخبرتُك ونحن في الطريق إلى هنا، نريد التحدُّث إليك على انفرادٍ حول بعض المعلومات التي تحصَّلنا عليها؛ وأقصد بالطبع أنا والسيد بريريتون. ورأينا أنه من الأفضل إطلاعُ السيد بينت عليها. وكل هذا فيما بيننا، يا سيد كوذرستون؛ لذا عامِلْنا بالصراحة نفسِها التي سنُعاملك بها. يمكنني أن أُلخِّص لك كل شيء في بضع كلمات. إنها مؤلمة. هل أنت وشريكُك، السيد مالاليو، نفس الشخصَين تشيدفورث ومالوز اللذَين حُوكما بتهمة الاحتيال في محكمة ويلشستر في عام ١٨٨١ وحُكِم عليهما بالسجن لمدة عامين؟»

لم يجفل كوذرستون ولم يتراجَع. لم تبدُ عليه أي علامة ضعف أو تردُّد. وإنما، بدا أنه استعاد فجأةً كلَّ الفِطنة والحيوية اللتين كان رجلان من الرجال الثلاثة الذين كانوا يُراقبونه يَعتبران أنه يتَّسم بهما دائمًا، مهما يكن من أمر. جلس منتصبًا متيقظًا على كرسيِّه، وصار صوته واضحًا وقويًّا.

قال: «قبل أن أُجيب عن ذلك السؤال، يا سيد تالينجتون، سأوجِّه إلى السيد بينت سؤالًا. هل ستُعاني ابنتي جرَّاء أيِّ شيء قد يَتكشَّف عن والدها؟ دعني أعرف ذلك! ... إن كنتم تريدون مني أن أُفصح عن أي شيء.»

احمرَّ وجه بينت غضبًا.

وصاح: «كان يجبُ عليك أن تَعرف ما هي إجابتي!» وأردف: «إنها لا!»

قال كوذرستون: «ذلك يكفي!» وتابع: «أنا أعرفُك؛ أنت رجل يَلتزم بكلمته.» والتفتَ إلى تالينجتون. وتابع قائلًا: «الآن سأُجيبك.» واستطرد: «إجابتي بكلمة واحدة أيضًا: نعم!»

فتح تالينجتون دفتر قصاصات كايتلي على الرواية المتعلِّقة بالمحاكمة في ويلشستر، ووضعه أمام كوذرستون، وأشار إلى سطور معيَّنة بسنِّ قلم رصاص.

سأله بهدوء: «أنت تشيدفورث المذكور هنا؟». وتابع: «وشريكك هو مالوز؟»

أجاب كوذرستون بصلابة شديدة جعلَت الثلاثة جميعَهم ينظرون إليه في ذهول: «ذلك صحيح.» وأردف: «ذلك صحيحٌ تمامًا، يا سيد تالينجتون.»

سأل تالينجتون، وهو يجرُّ سنَّ القلم الرصاص فوق الصحيفة: «وهذه رواية دقيقة لما حدث؟». وتابع: «أعني، بقدرِ ما تستطيع أن ترى بنظرة سريعة؟»

قال كوذرستون: «أوه، أظنُّ أنها كذلك.» وأردف: «كانت تلك أفضلَ جريدة في المدينة؛ يمكنني أن أقول إنها صحيحة. يبدو كذلك، على أي حال.»

قال تالينجتون، الذي كان، مثل بريريتون، قد بدأ يندهش من هدوء كوذرستون: «هل تعلم أن كايتلي كان حاضرًا في تلك المحاكمة؟»

أجاب كوذرستون وهو يهزُّ رأسه: «حسنًا، أنا الآن أعرف. لكنَّني لم أعرف مطلقًا حتى عصر ذلك اليوم الذي قُتِل فيه الرجل العجوز. وإن كنتَ تُريد الحقيقة، فقد جاء إلى مكتبنا عصرَ ذلك اليوم ليدفع لي الإيجار، وأخبَرَني ساعتها. وإن كنتَ تُريد المزيد من الحقيقة، فقد حاول ابتزازي. كان سيأتي في اليوم التالي، في الساعة الرابعة، ليَسمعَ ما كنَّا سنعرضه عليه أنا ومالاليو من النقود مقابل أن نَشتريَ صمته.»

سأل تالينجتون: «إذن أخبرتَ مالاليو؟»

أجاب كوذرستون: «بالطبع أخبرتُه!» وتابع: «أخبرته بمجرد رحيل كايتلي. لقد كان هذه بمثابة صدمة لكلَينا؛ أن يتعرَّف أحدٌ ما علينا، وأن يُواجهنا بكل ذلك، بعد ثلاثين عامًا من العمل المخلِص!»

نظر المستمعون الثلاثة بعضهم إلى بعضٍ بصمت. مرَّت لحظة من الإثارة. ثم طرح تالينجتون السؤالَ الذي كان الثلاثةُ يتحرَّقون شوقًا لسماع الإجابة عليه.

«سيد كوذرستون! هل تعرف مَن قتل كايتلي؟»

أجاب كوذرستون: «لا!» وأضاف: «ولكني أعرف من أظنُّ أنه قتله!»

سأله تالينجتون: «مَن إذن؟»

قال كوذرستون بحزم: «الرجل الذي قتل بيرت ستونر.» وأردف: «وللسبب نفسِه.»

«وهذا الرجل هو ...»

ترك تالينجتون السؤالَ غير مُكتمِل. وذلك لأن وجه كوذرستون المنتبه اتخذ تعبيرًا جديدًا وحازمًا، وارتفع نفسه قليلًا على كرسيِّه وأنزل يده المرفوعة بقوة على المنضدة الموجودة بجانبه.

وصاح: «مالاليو!» واستطرد: «مالاليو! أعتقد أنه قتل كايتلي. تشكَّكتُ في ذلك منذ البداية، وتأكَّدت منه ليلة الأحد. لماذا؟ لأنني رأيت مالاليو يُسقِط ستونر!»

ساد صمتٌ تام في الغرفة دقيقةً مُؤلِمة وطويلة. قطعه تالينجتون أخيرًا بتَكرار كلمات كوذرستون الأخيرة.

«رأيتَ مالاليو يُسقِطَ ستونر؟ بنفسك؟»

صاح كوذرستون: «بعينَيَّ هاتين! انظر هنا!» مرةً أخرى أنزل يده بقوة على المنضدة. وأضاف: «ذهبتُ إلى المنطقة المحيطة بمحجر هوبويك عصرَ يوم الأحد ... لأفكِّر قليلًا. عندما وصلتُ إلى تلك الأيكة على حافة المحجر، رأيت مالاليو وكاتبنا. كانا يَتشاجران ويتجادلان؛ كان بوُسعي سَماعهما ورؤيتهما. وتسلَّلت وراء شجيرة كبيرة وانتظرتُ وراقبتهما. كان بوُسعي أن أرى وأسمع، حتى على بُعد ثلاثين ياردة، أن ستونر كان يُثير جنون مالاليو، على الرغم من أنني لم أستطع بالطبع تمييزَ الكلمات بالتحديد. وفجأةً، فقد مالاليو أعصابه، ورفع عصا البلوط الثقيلةَ ووجَّه للفتى ضربةً على جبهته تمامًا ... وفجأةً تراجع ستونر للخلف وتحطم الحاجز القديم و... هوى لأسفل. ذلك ما رأيته ... ورأيت مالاليو يركلُ تلك العصا في المحجر في فورة انفعاله، و... لقد حصلت عليها!»

قال تالينجتون: «حصلتَ عليها؟»

كرَّر كوذرستون: «لقد حصلتُ عليها!» وتابع: «راقبت مالاليو، بعدما انتهى هذا. لوهلة ظننتُ أنه رآني، لكنه كان من الواضح أنه حَتَّم أنه وحده. نزل إلى المحجر بينما كان يحلُّ الغسَق، وظلَّ هناك بعضَ الوقت. ثم أخيرًا مضى مبتعدًا من الجانب الآخر. ونزلتُ بعدما اختفى تمامًا وذهبت مباشرةً إلى حيث كانت العصا. وكما قلت، حصلت عليها.»

نظر تالينجتون إلى بريريتون، وتحدَّث بريريتون لأول مرة.

وقال: «من المؤكَّد أن السيد كوذرستون يرى أنه يجب إبلاغ الشرطة بكل هذا.»

أجاب كوذرستون: «انتظِر قليلًا.» واستطرد: «لم أنتهِ من سرد حكاياتي هنا بعد. وبما أنني أتحدَّث الآن، فسوف أُكمل حديثي! بينت!» هكذا تابع، مُلتفتًا إلى صِهره المستقبلي. أضاف: «ما سأقوله الآن لمصلحتك. لكنَّ هذين المحاميَين ينبغي أن يسمعا.

لقد نُبِشَت قصة ويلشستر القديمة هذه، كيف، لا أعرف. الآن، ينبغي أن تعرفوا جميعًا الحقيقة حول ذلك الموضوع! لقد سُجنتُ عامَين — من أجل ماذا؟ لأنني كنتُ مخلبَ قطٍّ لمالاليو!»

فجأةً بدأ تالينجتون ينقر بأصابعه على النشافة التي كانت موضوعةً أمامه. عند هذه النقطة نظر إلى كوذرستون وقد علا وجهَه تعبيرٌ يدلُّ على اهتمام متَّسم بالفضول لم يَخْفَ على بريريتون.

عَلَّق بهدوء: «آه!» وتابع: «كنتَ مخلبَ قطٍّ استخدمه مالاليو، أو مالوز، لتحقيقِ أغراضه؟ أي إنه كان هو الجانيَ الحقيقي في قضية ويلشستر، فهل لديك بيانٌ تُبرِّر به هذا القول؟»

أجاب كوذرستون، وهو يضع يده على دفتر القصاصات: «أليس مذكورًا هنا أنه كان أمينَ خِزانة؟» وتابع: «كان كذلك بالفعل؛ كان يُسيطر سيطرةً كاملةً على المال. لقد استدرجَني إلى الأمر، استدرجني إليه ببراعةٍ حتى إنه عندما أتت الضربةُ الكبرى لم أستطع أن أتراجَع. كنت مجبرًا على المضيِّ قُدمًا في الأمر. ولم أعرف مطلقًا حتى ... حتى انقضت السنتان ... أن مالاليو كان قد خبَّأ المال في مكانٍ آمن.»

علَّق تالينجتون قائلًا: «ولكنك ... عرَفت ذلك، في نهاية المطاف.» واستطرد: «كما أنك، حسَبما أفترض، وافقتَ على الانتفاع به، أليس كذلك؟»

مجددًا ضرب كوذرستون على الطاولة بيده ضربةً قوية.

وقال ببعض الانفعال: «أجل.» واستطرد: «ولا تُطلِق العِنان لعقلك أن يتصوَّر أفكارًا مغلوطة، يا سيد تالينجتون. بينت! لقد سدَّدتُ ذلك المال، سدَّدته بنفسي. كل بنس منه ... ألفا جنيه، مع فائدة أربعة بالمائة لمدة ثلاثين عامًا! لقد فعلتُ هذا؛ مالاليو لا يعرف شيئًا عنه. وها هو الإيصال. فافعَلوا ما شئتم!»

سأله تالينجتون، بينما كان بينت، مُكرَهًا، يأخذ الورقة التي أخرجها كوذرستون من دفتر جيبه ويُناولها له: «متى دفعته، يا سيد كوذرستون؟» وأضاف: «منذ بعض الوقت، أم مؤخرًا؟»

أجاب كوذرستون سريعًا: «سأخبرك إن كنتَ تريد أن تعرف؛ كان هذا في اليوم نفسِه الذي قُتِل فيه العجوز كايتلي. أرسلتُه عن طريق صديقٍ لي ما زال يعيش في ويلشستر. أردتُ أن أنتهيَ من هذا الأمر؛ لم أرغب في أن أُتَّهَم بأن أحدًا خسر أي شيء بسبب زلتي. لذا ... سدَّدته.»

قال تالينجتون: «ولكن — أنا فقط أطرح الأمر — كان يُمكنك أن تُسدده قبل ذلك بوقتٍ طويل، أليس كذلك؟» واستطرد: «كلما طالت مدةُ انتظارك، زاد ما تعيَّن عليك تسديدُه. ألفا جنيه، مع فائدةٍ لمدة ثلاثين سنة، بنسبة أربعة بالمائة؛ يا إلهي، ذلك مجموعه أربعةُ آلاف وأربعمائة جنيه كاملة!»

قال بينت: «ذلك ما دفعه.» وأضاف: «ها هو الإيصال.»

علَّق تالينجتون، وهو يُلقي نظرةً سريعة على الإيصال ويُمرره إلى بريريتون: «السيد كوذرستون يُخبرنا، سرًّا فيما بيننا، بكل شيء.» وتابع: «وآمُل أن يُخبرنا، سرًّا فيما بيننا، كما قلتُ، لماذا دفع ذلك المبلغ في اليوم التالي لمقتل كايتلي. لماذا، يا سيد كوذرستون؟»

احمرَّ غضبًا وجهُ كوذرستون، الذي كان مُستعدًّا جدًّا حتى تلك اللحظة أن يُجيب ويتكلَّم، وهز رأسَه استنكارًا. ولكنه كان على وشك أن يتكلم عندما أتى صوت نقر خفيف على باب تالينجتون، وقبل أن يتمكَّن المحامي العامُّ من أن يُبديَ أيَّ رد، فُتِح الباب من الخارج، ودخل رئيس الشرطة، وبصحبته رجلان عرَّفهما بريريتون بصفتهما محقِّقين من نوركاستر.

قال رئيس الشرطة: «أعتذر عن المقاطعة، ولكني سمعت أن السيد كوذرستون هنا. سيد كوذرستون! يتعين عليَّ أن أطلب منك أن تأتيَ معي إلى المكتب. أيُمكنك أن تأتي الآن؟ سيكون هذا أفضل.»

أجاب كوذرستون بإصرار: «ليس قبل أن أعرف ما أنا مطلوبٌ لأجله.» سأل: «ما الأمر؟»

تنهَّد رئيس الشرطة وهزَّ رأسه أسفًا.

وأجاب: «حسنًا، لا ذنبَ ولا جريرةَ لي في ذلك.» وتابع: «واقع الأمر أننا نُريدكما أنتما الاثنان، أنت والسيد مالاليو، بخصوص واقعة ستونر هذه. تلك هي الحقيقة المجرَّدة! صدَر أمرا الضبط والإحضار منذ ساعة، والسيد مالاليو بحوزتنا بالفعل. هيا، يا سيد كوذرستون! لا خيار آخر.»

الفصل الحادي والعشرون

محاولة الهروب الفاشلة

بعد أربعٍ وعشرين ساعةً من رؤيته ستونر يَهْوي رأسًا على عقب في محجر هوبويك، اتخذ مالاليو قراره بالهرب. وما إن وصل إلى لحظة القرار الحاسم، شرَع في الترتيب لاختفائه بكل المهارة والبراعة اللتَين كان متمكنًا منهما في الماضي. كان سيرحل، إلى الأبد، وبما أنه كان سيرحل، فسيرحل بطريقة لا تُمَكِّن أيَّ أحدٍ من تتبُّعه.

بعدما تناول شطيرةً وشرب البيرة في حانة هاي ماركت آرمز، ذهب مالاليو إلى محجر هوبويك وألقى نظرةً فاحصةً حوله. وكما كان يتوقَّع بالضبط، وجد شرطيًّا أو اثنين وقليلًا من سكان البلدة المذهولين. لم يُخفِ فضوله؛ قال إنه جاء ليرى ما يمكن رؤيته في المكان الذي لقي فيه كاتبُه هذه النهايةَ المحزنة. جعل أحد رجال الشرطة يصعد به إلى الحاجز المكسور على حافة المحجر؛ وأجرَيا معًا فحصًا دقيقًا للأرض.

علَّق مالاليو بينما كانا ينظران حولهما: «يقول رئيس الشرطة إنه لا توجد آثارُ أقدام في الجوار.» وتابع: «ألم ترَ أي شيء من هذا القبيل؟!»

أجاب الشرطي: «لا، يا صاحب السيادة؛ فتَّشنا عن ذلك أولَ ما أتينا.» وأضاف: «كما ترى، هذا العُشب قصيرٌ ومشدود حتى إنه من المرونة بحيث لا يترك آثارًا. لا، لا توجد أي آثار، في أي مكانٍ في الجوار؛ لقد أجرينا بحثًا لا بأس به في الناحيتَين.»

اقترب مالاليو من حافة المحجر ونظر إلى الأسفل. كانت عيناه حادَّتا النظر المنقِّبتان تُفتشان في كل مكانٍ عن عصاه. جهةَ اليمين قليلًا من موضعه كان تدرُّج انحدار جانب المحجر أقلَّ حدةً من المكان الذي كان ستونر قد سقط منه؛ على المنحدر المُتدرِّج هناك، احتشدت كتلةٌ ضخمة من العُلَّيق والجولق، والسرخس وشجيرات المكنسة: حَدَّق بشدةٍ فيها، وهو يُفكِّر في أن العصا ربما تكون قد استقرَّت في تشابكاتها. كان سيُصبِح سهلًا أن يرى تلك العصا في ضوء النهار؛ كانت ذاتَ لون أصفر برَّاق، وكان سيغدو من الميسور

تمييزُها وسط النباتات التي يغلب عليها اللونان الأخضر والبنيُّ هناك. لكنه لم يَعثر لها على أثر، وأعاد عقلُه تخيُّلَ أحداث الليلة السابقة، وبدأت تُراوده أفكارٌ مشوَّشة بشأن صوت اصطدام العصا بكُتل الحجر الكلسي عند قاع المحجر.

قال بتفكير: «حقًّا!» واستطرد: «يا له من مكان سيِّئ لتسقط فيه، ويا له من حظٍّ تعس ... حظ تعس حقًّا! ذلك الحاجز»، تابع مشيرًا إلى الحاجز المكسور: «عجبًا، إنه متهالك من أوله إلى آخره! لو أن رجلًا وضع ثقله عليه، فسينهار بالتأكيد. لا بد أن الشاب البائس جلس عليه ليستريح قليلًا، على الحاجز العُلوي، وبالطبع، انهار وسقط.»

أجابه الشرطيُّ مُوافقًا: «ذلك ما كان من المحتَّم أنني كنتُ سأقوله، يا صاحب السيادة، ولكنَّ بعضًا من الذين كانوا هنا بالأعلى يبدو عليهم أنهم يظنون أنه قد دُفِع على الحاجز، رغم أن ذلك قد يبدو عنيفًا. إنهم يظنون أنه طُرِح أرضًا؛ استنتاجًا من أثر اللطمة الذي وجدوه.»

قال مالاليو: «حقًّا، هكذا إذن، ولكنه يُمكن أن يتلقَّى الكثيرَ من اللطمات في جسده وهو يسقط على تلك الصخور. انظر بنفسك! لا توجد حوافُّ صخرية صُلبة هناك بالأسفل فحسب، وإنما أيضًا جذوع وجذور ناتئة من الأشجار الهرمة التي يُمكن أن يصطدم بها أثناء سقوطه. إنها حادثة، يا صديقي! ذلك ما حدث؛ مجرد حادثةٍ محضة.»

لم يُوافق الشرطيُّ العمدةَ ولم يُعارضْه، وبعد قليل نزَلا إلى قاع المحجر مجددًا، حيث سار مالاليو في سائر أنحاء المكان، بحجة إلقاء نظرةٍ شاملة مدقَّقة على كل شيء. لم يعثر على العصا، وكان متأكدًا بدرجةٍ كبيرة من أنه لم يعثر عليها أحدٌ آخَر. وأخيرًا غادر مبتعدًا، وهو مقتنعٌ بأنها مستقرة في ركن منزوٍ أو شقٍّ في المنحدر المتدرج الذي كان قد ركلها فيه في فورة غضبه الفجائية. وعلى الأرجح ستظلُّ هناك إلى الأبد، لأنه لن يخطر على بال الشرطة أن أيًّا كان من استخدم السلاح الذي ضُرِبَت به الضربة لن يأخذه معه. لا شك في ذلك؛ بدأ مالاليو يشعر بالارتياح والثقة فيما يتعلق بمسألة العصا.

وازداد ارتياحًا وثقةً حول الأمر كلِّه أثناء وقتِ ما بعد العصر. مضى يتجوَّل في البلدة، ودخل مبنى البلدية وخرج منه، وظل يزور مركز الشرطة زيارات خاطفة، وقُرب حلول المساء صار متأكدًا من أنه لا توجد شكوك متعلِّقة به، حتى ذلك الحين. ولكن ... فقط حتى ذلك الحين. كان يعرف أنَّ شيئًا ما سيظهر على السطح. كان السؤال المهمُّ الذي راوده وهو يمضي عائدًا إلى البيت في المساء: هل هو في أمانٍ حتى عصر اليوم التالي؟ بينما كان يأكل ويشرب وحيدًا في غرفة طعامه، قرَّر أنه كان كذلك؛ عندما كان قد انتهى من

تدخين سيجارٍ بعد العشاء كان قد توطَّد لديه العزمُ على أنه بحلول الليلة التالية سوف يكون بمأمنٍ بعيدًا عن هاي ماركت.

لكن كانت توجد أمورٌ كان يتعيَّن عليه إنجازها في تلك الليلة. أمضى ساعةً في تصفحِ دليلٍ للقطارات وخريطة. بينما كان يُحصي القطارات وينظر إلى المسافات والمواقع كان عقلُه مشغولًا بمخطَّطات أخرى؛ لأنه طوال حياته كان رجلًا يُمكنه أن يُفكر في أكثر من شيء واحد في الوقت نفسِه. وفي نهاية الساعة كان قد استقرَّ على خطة عمل.

كان لمالاليو غايتان رئيسيتان من المنظور العاجل. كان يريد أن يرحل من بلدة هاي ماركت علانيةً دون إثارة الرِّيبة: تلك كانت الغايةَ الأولى. وكان يريد أن يشيع بين الناس أنه رحل إلى مكانٍ محدَّد، وفي مهمةٍ محدَّدة: وتلك كانت الغايةَ الثانية. وبينما كان يُقَدِّر فُرصه رأى أن الحظَّ كان حليفَه. في ذلك الوقت تحديدًا كان مجلسُ بلدية هاي ماركت مهتمًّا ومنشغلًا للغاية بشأن مسألة إمدادات مياهٍ جديدة. كان يجري حاليًّا مشروعٌ بالاشتراك مع بلدة أخرى، على بُعد بضعة أميال، لإقامة نظام جديد وبناء مستودعٍ جديد على التلال المتاخمة، وفي صباح ذلك اليوم التالي كان مالاليو سيَترأسُ لجنة كانت ستنعقد خِصِّيصى لذلك الغرض، وكانت ستُناقش أمورًا معينةً متعلقةً بهذه الخطة. رأى الكيفية التي يمكنه بها أن يستغلَّ ذلك الموعد. سيعلن أنه غير راضٍ رضاءً تامًّا عن بعض بنود الدمج المقترح، وسيُصرح في اجتماعٍ مفتوح أنه ينوي الذَّهاب بنفسه إلى البلدة الأخرى في الليلة ذاتِها ليُقابل مسئوليها ويُناقشهم بشأن النقاط التي لم يكن راضيًا عنها. لن يرى أحدٌ أي مَدْعاة للشك في ذَهابه في شأنٍ عامٍّ متعلِّق بالمجلس البلدي. كانت خُطةً ممتازة ومناسبة لغرضه؛ وذلك لأنه من أجل أن يبلغ البلدة الأخرى سيكون من الضروري أن يمرَّ عبر نوركاستر، حيث سيتعيَّن عليه أن يُغير القطار الذي يُقلُّه. ونوركاستر مدينة كبيرة جدًّا، ومكتظَّة بالسكان، وكان بها بعض الأماكن الخفيَّة التي كان مالاليو على معرفة جيدة جدًّا بها، وفي نوركاستر سيكون بوُسعه أن يبدأ المرحلة المهمة الأولى من هروبه.

وهكذا، بعد أن عقد العزم، أجرى مالاليو استعداداته النهائية. كانت كلُّها متصلةً بالمال. وعلى الرغم من أنه شعر بغُصَّة من فكرة أنه سيتخلَّى عن ممتلكاته في هاي ماركت عند رحيله، فقد هدَّأ من تلك الغُصَّة أخذُه في الاعتبار أن تلك الممتلكات لم تكن، في نهاية المطاف، تُمثل سوى الثمن الذي سيدفعه من أجل سلامته الشخصية، بل لعلها تُمثل الثمن الذي سيدفعه من أجل حياته (وإن لم يكن يحبُّ التفكير في ذلك). علاوةً على ذلك، قد يُحالفه الحظ ويظهر من مجريات الأحداث أنه ربما يكون من المُمكن أن يستعيد حيازةَ

تلك الممتلكات؛ كان هذا أمرًا محتملًا. وسواءٌ أتَحقَّق ذلك الاحتمال أم لم يتحقَّق، لم يكن يجرؤ على أخذه في الاعتبار عندئذٍ. كان الاعتبارُ الأول والحيوي لديه أن ينجوَ بنفسه إلى برِّ الأمان. ولم تكن ممتلكاتُ مالاليو وحصته في المشروع التِّجاري في هاي ماركت تُمثل إلا جزءًا من ثروته. كان يُمكنه أن يتدبَّر أمره بدون كل ما تخلى عنه؛ تنهَّد بأسًى وهو يُفكر في أن ما سيتركه كان ثروةً كبيرة، ولكنه كان سيظل رجلًا ثريًّا جدًّا إن لم يتحصَّل على بنس واحد منها مجددًا.

من اللحظة التي كان مالاليو قد اكتشف فيها أن كايتلي كان يعرف سرَّ واقعة ويلشستر كان قد استعدَّ لكل الاحتمالات، ولم تُحدِث وفاةُ كايتلي فارقًا في خُططه. علَّل ذلك بأنه إن كان بوُسع رجل واحد أن يكتشف كلَّ ذلك، فمن المُحتمل أن يكتشفَه عشرة رجال آخَرين. كان مقتل المحقق السابق قد عزَّز بالفعل إصرارَه على أن يكون مُستعدًّا. توقَّع أن الشكوك قد تُحيط بكوذرستون؛ واتَّضح له بعد تفكيرٍ أعمق أنه إن صار كوذرستون موضعَ شبهة، فلن يهرب. ولذلك كان قد جهَّز نفسه وصار على أهْبةِ الاستعداد. كان قد جمع سَنداته المالية الثمينة؛ كانت كلُّها موضوعةً في مغلَّف قوي وُضِع في جيب داخلي لصدرية كانت فيما مضى قد صُنِعَت خِصِّيصى من أجله: بِزةً مجهزةً ببراعة، يمكن للرجل أن يحمل فيها ثروةً كبيرة ... على هيئة أوراق. كانت كل تلك السندات موجودةً في ذلك الجيب؛ سندات حكومية، وسندات سكك حديدية، وأسهم اسمية، وأسهم متداولة، وكلُّها يسهل صرفها، في أي مكانٍ في العالم يُمكن فيه للناس أن يشتروا ويبيعوا أفضلَ السندات المالية المأمونة. وفي جيبٍ آخَر وضع مالاليو رزمة من الأوراق النقدية التي كان قد تحصَّل عليها خلال الأسبوع الماضي من بنكٍ في لندن كان لدَيه حسابٌ فيه، وفي جيبٍ آخر أيضًا، جيب مُعَد ببراعة، مدعَّم بجلد شمواه، ومؤمَّن بقَلَّاب قوي، ومُلحَق بحزام ومغلق بمشبك، كان يحمل الذهب.

احتفظ مالاليو بهذه الصدرية وما تَحويه من أشياءَ ثمينة تحت وسادته في تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي، تأنَّق باعتناءٍ خاص، وفي جيب بنطاله وضع مسدَّسًا كان قد اشتراه مؤخرًا، وللمرة الأولى منذ أسبوعين تناول إفطارَه المحبَّب. وبعد أن انتهى من إفطاره ارتدى معطفَه الأمتن وخرج مُولِّيًا وجهه صوبَ البلدة ... ولو كان أيُّ أحد يُراقب مالاليو لكان سيُلاحظ أنه لم يَستدِر مطلقًا ليُلقي نظرةً على المنزل الذي كان قد بناه، وربما كان راحلًا منه إلى الأبد.

كل شيء فعَله مالاليو في ذلك الصباح كان يفعله بطريقةٍ ممنهَجة. أمضى في مكتبه وباحته وما حولهما ساعةً أو ساعتَين، يُمارس عمله بطريقته المعتادة. رأى كوذرستون

ولم يُخاطبه إلا للأمور الضرورية للغاية. لم يتَبادلا كلمةً واحدة فيما يتعلق بموت ستونر. ولكن في نحو الساعة العاشرة عبَر مالاليو الطريق إلى مركز الشرطة ودخل إلى مكتب رئيس الشرطة، واقتنع بأنه لم تتكشَّف أيُّ أشياء أخرى، ولم يُدلِ بمعلومات جديدة. كان ضابطُ تحقيقات الوفَيَات موجودًا مع الشرطة، وناقش مالاليو معه ومع رجال الشرطة بعض الترتيبات بشأن التحقيق. مع كل لحظة كانت تمضي كان يقينُ مالاليو في أنه في أمانٍ كان يَزداد، وفي الساعة الحاديةَ عشْرة دلف إلى مبنى البلديَّة من أجل اجتماع لجنته.

لو كانت الفرصة قد سنحت لمالاليو ونظر خلفه نحوَ باب مركز الشرطة بينما كان يدخل من الباب العتيق لمبنى البلدية؛ كان سيرى ثلاثة رجال يَصِلون إلى هناك في سيارة كانت قد أتت من نوركاستر؛ أحد هؤلاء الرجال كان مايلر، والرجلان الآخران كانا محقِّقَين من نوركاستر. إلا أن مالاليو لم ينظر خلفه. دخل إلى غرفة اللجنة واستغرق في الشئون الخاصة بالاجتماع. لاحقًا قال زملاء مالاليو من أعضاء اللجنة إنهم لا يتذكَّرون أنهم رأَوا العمدة من قبل بهذا القدر من الانخراط في العمل. شرح مالاليو اعتراضاته على الخطة التي كانوا بصدد التفكير فيها؛ أوضح كذا وحثَّ على كذا، وأخيرًا قال إن رِضاءه عن المشروع كان قليلًا جدًّا، حتى إنه سيذهب بنفسه ليُقابل عمدة المدينة المُجاورة ذلك المساء، ويُناقش معه الأمر بكل تفاصيله.

خرج مالاليو من غرفة اللجنة ليجد رئيس الشرطة في انتظاره في المَمر. كان رئيس الشرطة شاحبًا ومُرتعشًا، وعندما تلاقت عيناه بعينَي مالاليو كانتا تَشِيان بتعبير استنكارٍ غريب. قبل أن يتمكَّن من الكلام، ظهر رجلان غريبان من المدخل واقتربا. واستبدَّ بمالاليو شعورٌ مفاجئ كريهٌ بالخطر، وعجز لسانه عن النطق.

تلعثَم رئيس الشرطة وهو يقول: «سيادة العمدة!» واستطرد: «أنا ... أنا ليس بيديَّ شيء! هؤلاء الضباط من نوركاستر، يا سيدي؛ يوجد أمرُ ضبط وإحضار بحقِّك. الأمر ... الأمر مُتعلِّق بقضية ستونر!»

الفصل الثاني والعشرون

اليد التي تعمل في الظلام

كانت ساعات هاي ماركت تدقُّ مُعلنةً وقت الظهيرة عندما قُبِض على مالاليو. ظلَّ محتجَزًا ثلاث ساعات، في غرفةٍ في مبنى البلدية، وكان معظمَ ذلك الوقت وحده. أُحضِر له غَداؤه؛ وأُبدِيَت له كلُّ صور المراعاة. أراد رجال الشرطة أن يُرسِلوا في طلب مُحاميه الخاصِّ من نوركاستر؛ فطلب منهم مالاليو أن يَهتمُّوا بشئونهم وألا يتدخَّلوا فيما لا يَعنيهم. صَمَّ أذنَيه عن مناشدات رئيس الشرطة بأن يُقابل أيَّ صديق له؛ فقال له مالاليو أن يهتمَّ بشئونه وألا يتدخَّل فيما لا يعنيه، هو الآخر. هو نفسه لن يفعل شيئًا حتى يرى أن ثمة حاجةً إلى فعل شيء. فليسمع ما يمكن أن يُوجَّه إليه من اتهام، وسيُوجد ما يكفي من الوقت للكلام والفعل عندئذٍ. تناول طعام غدائه، ودَخَّن سيجارًا؛ وخرج من الغرفة والتحدي بادٍ في عينيه ورأسه مرفوعٌ عندما جاءوا ليأخُذُوه للمثول أمام منصَّة عليها عددٌ من رفاقه من قضاة التحقيق الذين استُدعوا بصفةٍ خاصة. ولم يلتقِ هو وكوذرستون إلا حين أُدخِلَ إلى قفص الاتهام، على مرأًى من قاعة محكمة مُمتلئةٍ عن آخرها بالحاضرين المُحتشِدين، ووسط انفعالٍ واضطراب.

انتشر خبر القبض على الشريكَين في البلدة الصغيرة كالنار في الهشيم. لم تكن توجد حاجةٌ إلى إبقاء الأمر سرًّا؛ ولم يكن يوجد سببٌ لإبقائه سرًّا. كان من اللازم أن يُجلَب المُتَّهَمان أمام قُضاة التحقيق بأسرع ما يُمكن، ووَلَّت أيام التحقيقات الخاصة منذ زمن بعيد. قبل أن يتمكَّن أهل بلدة هاي ماركت من ازدراد عَشائهم جيدًا، كان كلُّ شارع في البلدة، وكل متجَر، ومكتب، وقاعة حانة، ومكان عام وخاص يرتجُّ بالخبر؛ لقد قُبِض على مالاليو وكوذرستون، العمدة وأمين الخِزانة، بتهمة قتل الكاتب لديهما، وسيَمثُلان أمام قُضاة التحقيق في الساعة الثالثة. تلاشت أهمية قضية كايتلي، عدا فيما بين قلة قليلة

من الأشخاص الأذكياء والفطِنين، الذين بدَءوا على الفور يَتساءلون إن كان لجريمة قتل محجر هوبويك علاقةٌ بجريمة القتل على تلة شول.

لو كان قد تسنَّى لمالاليو وكوذرستون النظر من نوافذ المحكمة في دار البلدية، لكانوا قد رأَوا ساحةَ ماركت سكوير مليئة بحشدٍ هائج ومُضطرب من سكان البلدة، الذين كانت أصواتهم كلهم تعلو مُطالبةً بأي أخبار يُمكن أن تتسرب من القاعة المزدحمة التي كانت قلةٌ قليلة من الناس قد تمكنَت من أن تشق طريقها لدخولها بجهدٍ جهيد. لكنَّ الغريب في الأمر أن السجينَين بدَوَا غير مباليَين بما حولهما. لاحظ أولئك الذين راقبوهما عن كثب — مثلما فعل بريريتون وتالينجتون — أن أيًّا منهما لم يُولِ أيَّ انتباه إلى الآخر. وُضع كوذرستون في قفص الاتهام أولًا. عندما أُحضِر مالاليو إلى هناك، بعد لحظة، تبادل الاثنان نظرةً سريعةً ولا شيء أكثرَ من ذلك، تحرك كوذرستون على الفور مُبتعدًا إلى الركن الأيسر البعيد، وظل مالاليو في الركن المقابل، ووضع يدَيه في جيبَي معطفه، وشدَّ كتفيه وانتصب بجسده الضخم وألقى نظرةً هادئة وبادية الاحتقار فيمن حوله.

راقب بريريتون هذَين الرجلَين بعنايةٍ وباهتمام كبير من أول لحظة إلى آخرِ لحظة، بينما كان جالسًا على زاوية من طاولة المحامي العام، دون أن يكون لديه ما يفعله سوى لعب دور المُشاهد. سرعان ما أدرك المشاعر المختلفة اختلافًا شاسعًا التي كانا يُتابعان بها الإجراءات. كان كوذرستون مُتلهفًا ومُضطربًا، ولم يستطع أن يظلَّ ساكنًا، وغيَّر مكانه، وبدا كما لو كان على وشك أن يَنبريَ في خطبةٍ غاضبة أو توضيحية بين الحين والآخر، إلا أنه، في واقع الأمر، كبَح أيَّ غريزة كانت لدَيه في ذلك التوجُّه. أما مالاليو فلم يتحرَّك البتَّة، ولم يُغير مسلكه أبدًا. لم يتخلَّ مُطلقًا عن تعبير الترقُّب المتَّسم بالازدراء والاحتقار، بعد اللحظات الأولى وانتهاء الشكليات، أبقى عينَيه مسلَّطتَين على منصة الشهود وعلى الأشخاص الذين دخَلوها. منذ لقائه الأول مع مالاليو كان بريريتون يقول لنفسه كثيرًا إن عمدة هاي ماركت كان يتمتَّع بأمكرِ عينَين رآهما على الإطلاق، لكنه اضطُرَّ إلى الاعتراف الآن أنه، مهما كانت عيون مالاليو ماكرةً، فيُمكن، في بعض الأحيان، أن تكون ثابتةً ثباتًا غير عادي.

كانت حقيقة الأمر هي أنَّ مالاليو كان يتظاهَر. لقد أوضح ذلك، دون وعيٍ منه، عندما قال لرئيس الشرطة إنه سيكون أمامه ما يكفي من الوقت لفعلِ شيء عندما يَعرف ما يُمكن أن يوجَّه إليه من اتهام. والآن كان كل اهتمامه منصبًّا على الشاهدَين أو الثلاثة شهود الذين ارتأى الادِّعاءُ أن من الضروري استدعاءَهم. أراد أن يعرف مَن هم. كبَح نفاد

صبره أثناء تقديم الأدلة الرسمية للاعتقال، لكنه أرخى أذنَيه قليلًا عندما سمع أحد شهود الشرطة يتحدَّث عن أمر الضبط والإحضار الذي أُصدِر بناءً على المعلومات التي تلقَّتها الجهات المسئولة. قال في نفسه: «أي معلومات؟ وتُلُقِّيَت ممَّن؟» والتفت قليلًا عندما نادى صوت حادٌّ بلهجة رسمية على اسم الشاهد المهم الأول.

«ديفيد مايلر!»

حدَّق مالاليو في ديفيد مايلر كما لو كان سيَخترقُ عقله بنظرة مدقِّقة ويستخرج منه السرَّ الذي لديه، أيًّا كان ذلك السر. من هو ديفيد مايلر؟ ليس من سكان هاي ماركت؛ كان ذلك مؤكَّدًا. فمَن هو إذن؟ وما الذي يعرفه؟ أهو محقِّقٌ كان يَسبُر أغوار هذه القضية في سريَّة؟ على أي حال، كان يبدو رجلًا هادئًا ساكنًا باديَ العزم. عليه اللعنة! ما علاقته بهذه القضية؟

سرعان ما أُجيب عن تلك الأسئلة التي طرحها مالاليو في ذهنه. ظلَّ على وضعيته الساكنة، وعلى تعبيرات وجهه الجامدة، بينما كان مايلر يروي حكاية زيارة ستونر لدارلينجتون، وما أدَّت إليه من افتضاح الأمر. وأفضل ما برهنَ على سيطرته الفائقة على انفعالاته ومشاعره كان حقيقة أنه بينما كان مايلر يسرد أمرًا لعينًا تلو الآخر، لم يُظهِر مطلقًا أدنى قلق أو انزعاج.

ولكن في أعماق مالاليو كان صدرُه يختلجُ بمشاعر كثيرة. عرَف الآن أنه كان مخطئًا حين تصوَّر أن ستونر احتفظ بما كان يَعرف لنفسه. وعرَف أيضًا المسار الذي يسلكه ممثِّل الادعاء. كان يسعى إلى أن يُبين أن ستونر قُتِل على يد كوذرستون ويده، أو على يد أحدهما أو الآخر، منفصلَين أو متواطئَين، حتى يُمكن إسكاته. لكنه عرَف أكثر من ذلك. كانت تجربة مالاليو الطويلةُ واستعداده الطبيعي جدًّا قد علَّماه فنَّ التفكير الاستباقي، وكان بوسعه أن يتوقع بنفس براعة أيِّ رجل بمثل درايته. توقَّع اتجاه مُجريات الأحداث في هذه المسألة. كان هذا مجردَ تمهيد. كان ممثِّل الادِّعاء يتَّهمه اليوم هو وكوذرستون بقتل ستونر، وغدًا سيتَّهمُهما بقتل كايتلي.

أحدثَت شهادة مايلر مشاعرَ عميقة في قاعة المحكمة، ولكن المشاعر والإثارة تصاعدَت أكثر عندما جاء حَمو مايلر عَقِبَه في منصة الشهود. ساد صمتٌ تامٌّ واحتبست الأنفاس حرفيًّا بينما كان الرجل المسنُّ يروي قصة الجريمة التي وقعَت منذ ثلاثين عامًا؛ كانت لحظةً دراميةً مؤثرةً عندما صرَّح بأنه على الرغم من الوقت الطويل الذي كان قد انقضى فقد تعرف على مالاليو وكوذرستون، وتبيَّن أنهما مالوز وتشيدفورث اللذان عرَفهما في ويلشستر.

حتى حينئذٍ لم يَجفل مالاليو. تورد وجهُ كوذرستون، وازداد توتُّرُه، ورفع رأسه قليلًا، وبدا كأنه يرغب في أن يُوضِّح الأمور. لكن مالاليو ظل يُحدق بثباتٍ عبر قاعة المحكمة. لم يهتمَّ على الإطلاق بأن الأمر قد افتُضِح أخيرًا. فالآن بعد أن افتُضِح، على رءوس الأشهاد، لم يكن يُهمُّه ولو بمقدار حبة خردل لو عرَف كلُّ رجل وامرأة في هاي ماركت أنه كان سجينًا سابقًا. كان ذلك أمرًا وَلَّى وصار من الماضي؛ ما كان يُهمه هو الحاضر والمستقبل. وأنبأه ذكاؤه الحادُّ أنه إن كانت شهادتا مايلر والعجوز بيرسي هما كل ما يستطيع ممثِّل الادعاء أن يأتيَ به بحقه، فهو في أمان. لم تكن مسألةُ أنه كان يوجد سر، وأن ستونر اكتشفه، إثباتًا على أنه هو وكوذرستون، أو أيًّا منهما، قد قتل ستونر. لا ... إن كان ذلك هو كل شيء ...

ولكن في لحظة أخرى عرَف مالاليو أن ذلك لم يكن كلَّ شيء. حتى تلك اللحظة كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أنه قد أفلتَ من محجر هوبويك دون أن يُلاحظه أحد. وقد كان مخطئًا في هذا. كان قد عرَف الآن أن شابًّا من نوركاستر كان قد أتى إلى هاي ماركت عصر يوم الأحد ذاك ليزورَ حبيبته؛ وأنَّ هذين الحبيبين كانا قد ذهبا إلى الأرض السبخة؛ وأنهما كانا في الجهة المقابلة من محجر هوبويك عندما نزل فيه بعد سقوط ستونر؛ وأنَّهما كانا قد شاهَداه يتحرك في أنحاء المكان وأخيرًا مضى مبتعدًا؛ والأكثر من ذلك، أنهما كانا قد شاهدا كوذرستون ينزل إلى المحجر ويَستخرج العصا، وكان كوذرستون قد مرَّ بجوارهما بينما كانا يقفان متواريَين بين الشجيرات، وأبصَرا العصا في يده.

عندما سمع مالاليو بكل هذا ورأى عصاه تُعرَض ويُتعَرَّف عليها، توقَّف عن إيلاء أي اهتمام آخَر بتلك المرحلة من وقائع سَير الدَّعوى. عرَف الآن أسوأَ ما في الأمر، وبدأ يُفكر في خُططه وتدابيره. وفجأةً، بعدما انتهى الإدلاء بكل الشهادات في الوقت الحالي، وبينما كان قُضاة التحقيق والمسئولون في خضمِّ مُداولات هامسة حول التأجيل، تكلم مالاليو للمرة الأولى.

قال بصوت مُرتفع: «سوف أردُّ على كل هذه المسائل في الوقت المناسب والمكان المناسب.» وتابع: «يُمكن لشريكي أن يفعل ما يحلو له. كل ما أملك قوله إنني أطلب الإفراج عنِّي بكفالة. يُمكنكم أن تُحددوها بأيِّ مقدار تشاءون. أنتم جميعًا تعرفونني.»

نظر قضاة التحقيق والمسئولون عبر الجزء المنخفض من القاعة في اندهاش، وهزَّ رئيس الجلسة، الذي كان سيدًا مُسنًّا قليلًا بدا عليه بجِلاء الانزعاجُ الشديد مما جاهر به السجين، رأسه باستهجان.

احتجَّ قائلًا: «مُستحيل!» وأضاف: «مستحيل تمامًا! لا نملك سلطةَ أن ...»

ردَّ مالاليو بسرعة، وبتسلُّط وإصرار كحاله دومًا: «أنت مُخطئ!» واستطرد: «لديكم السلطة! أتظن أنني كنت قاضيَ صلحٍ طيلة اثنتَي عشرة سنة ولا أعرف القانون؟ لديكم سلطة الموافقة على الكفالة في كل التهم الجنائية، حسَب تقديركم، فافعلوا ذلك إذن!»

نظر قاضي التحقيق إلى كاتبه، فابتسمَ الكاتب.

قال بهدوء: «ما يقوله السيد مالاليو صحيحٌ من الناحية النظرية.» وأردف: «ولكنَّ قاضيَ التحقيق ليس ملزمًا بالموافقة على الكفالة في الجرائم الجنائية والجُنَح، ومن الناحية العمَلية لا يُسمَح مُطلقًا بالكفالة في الحالات التي تكون فيها التهمة — مثل هذه الحالة — متعلِّقةً بجريمة قتل. مثل هذا الإجراء لم يسبق له مثيل.»

قال مالاليو بتهكُّم: «اجعلوها سابقة، إذن!» وتابع: «اسمعوا! يُمكنكم أن تأخذوا عشرين ألفَ جنيه على سبيل الضمانة، إن شئتم.»

ولكن هذا العرض لم يلقَ ردًّا، وبعد مُضيِّ خمس دقائق أخرى سمع مالاليو القرارَ بتأجيل القضية لمدة أسبوع وبإيداعه هو وكوذرستون في سجن نوركاستر خلال تلك المدة. دون أن ينظر إلى رفيقه السجين استدار وخرج من قفص الاتهام، واقْتِيد عائدًا إلى الغرفة الخاصة في مبنى البلدية التي كان قد أُحضِر منها.

قال في ثورةٍ، مخاطبًا رئيسَ الشرطة، الذي كان قد رافقه: «اللعنة على تلك الطُّغْمة من الحمقى!» وأضاف: «أيظنُّون أنني سأهرب؟ أمرٌ محتمل ... في حالة تهمة ملفقة كهذه. اسمع! متى ستُريدون التحرك إلى ذلك المكان؟»

نظر رئيس الشرطة — الذي كان فيما مضى يُكِنُّ احترامًا كبيرًا لمالاليو، وكان منزعجًا مُغتمًّا بشدةٍ لهذا التحوُّل المفاجئ في أقدار العمدة — إلى سجينه وهزَّ رأسه بأسًى.

أجاب: «توجد سيارتان أُمِر بأن تكونا مستعدَّتَين في خلال نصف الساعة، يا سيد مالاليو.» وأضاف: «واحدة لك، وواحدة للسيد كوذرستون.»

قال مالاليو بتهكُّم: «مع مرافقين مُسلَّحين في السيارتين، على ما أظن!» وتابع: «حسنًا، انظر ... لديك متَّسَع من الوقت لتُحضر لي فنجانًا من الشاي. اخرج خِلسة واطلب من أحد رجالك أن يذهب بسرعة إلى الحانة ويُحضرَه؛ فنجان من الشاي الجيد القوي، وشريحة أو شريحتان من الخبز بالزبد. أحتاج إلى ذلك.»

ألقى بنصف جنيه ذهب على الطاولة، وخرج رئيسُ الشرطة من الغرفة دون احتياطاتٍ سوى أنه أدار المفتاح في قُفل الباب ما إن خرج منه، دون أن يظنَّ سوءًا،

وراغبًا في أن يَصنع جميلًا في رجل كان دومًا وَدودًا ولطيفًا معه. لم يَدُر بخلَده أن السجين يمكن أن يحاول أن يلوذ بالفرار، ولم يَخطر على باله أنه كان أمام مالاليو أيُّ فرصة للهرب. مضى مبتعدًا عبر الممر ليجد واحدًا من رجاله يمكنه أن يُرسله إلى حانة هاي ماركت آرمز.

ولكن في اللحظة التي تُرِك فيها مالاليو بمفرده بدأ يُباشر العمل. بحكم كونه عمدةَ هاي ماركت طيلة عامَين، وعضوًا في مجلس بلديتها قرابةَ عشرين عامًا، كان يعرف مداخل ومخارج مبنى البلدية. وبمجرَّد أن تركه رئيس الشرطة بمفرده أخرَج من جيبه مفتاحًا وعبَر الغرفة إلى بابٍ كان في ركنٍ من الغرفة خلف ستار، ففتَحه برفق، ومرَّ منه إلى رِواق بالخارج، وعاد وأوصد الباب خلفه، وبعد لحظةٍ أخرى كان ينزل مُتسللًا بهدوء على سلالم خاصة كانت تؤدي إلى مدخلٍ يقود إلى حديقة قديمة أنيقة في مؤخِّرة المبنى. بعد لحظة أخرى، من الترقبِ والنظر حوله، كان قد خرج بأمان إلى تلك الحديقة وصار خلف شجيراتٍ كثيفة امتدَّت بطول أحد جُدرانها العالية. وبعد لحظة أخرى صار خارج الحديقة، في بستانٍ عتيق الطراز كثيفِ الأشجار كان يمتدُّ إلى الأجمات الواقعة عند سفح تلةِ شول. ما إن أصبح في ذلك البستان، مستترًا بفروعه الكبيرة التي كانت متشابكة الأغصان وممتدة على مستوًى مُنخفِض، ولكنها كانت خاليةً من الأوراق في ذلك الوقت من السنة، حتى توقَّف ليلتقطَ أنفاسه، ويتهلَّل بنجاحه في تدبيره. فكَّر في نفسه قائلًا إنه كان من التساهل ومن الخير له أنهم لم يُفتشوه عندما قبَضوا عليه! وكذلك أنهم كانوا قد أجَّلوا ذلك الإجراء المهمَّ إلى حين ترحيله! كان يعرف أنهم كانوا قد تغاضَوا عمدًا عن هذا التقصير، ونتيجةً لذلك ظلَّ محتفظًا بصدريته الثمينة، ومسدَّسه، والمفتاح الذي فتَح به باب محبسه.

كان الغسَق قد أسدل أستاره على هاي مارك قبل أن تَنتهيَ جلسة الاستماع، وكان الظلام قد حلَّ حينئذٍ. كان مالاليو يَعرف أنه لم يكن أمامه وقت ليُضيعه، لكنه كان يعرف أيضًا أن مُطارديه سيُلاقون صعوبة بالغةً في القبض عليه. كان قد وضع خُططه بينما كان آخرُ شاهدَين على منصة الشهود: كانت معرفته التفصيلية بالبلدة والمنطقة المُتاخمةِ لها ذاتَ نفع كبير له. علاوةً على ذلك، كان الموقع الجغرافي لمبنى البلدية عونًا عظيمًا. لم يكن يتعيَّن عليه سوى أن يَتسلَّل خارجًا من البستان إلى الأجمات، ويَمضيَ في طريقه بحذرٍ عبرها إلى الغابة الأبعد التي كانت تحفُّ بتلة شول، ويمر عبرها إلى قمة التلَّة، ويصلَ إلى الأرض السبخة. وبمجرد أن يصل إلى الأرض السبخة سيَمضي حثيثًا في

طرقٍ مُلتوية إلى نوركاستر؛ كان يعرف مكانًا آمنًا في وسط المدينة يمكنه أن يظلَّ مختبئًا فيه مدة شهر، أو ثلاثة أو ستة شهور، دون خوفٍ من العثور عليه، ومن هناك يُمكنه أن يهرب على متن سفينة.

كان السكون يسودُ كلَّ ما حوله وهو يمرُّ عبر فُرجة في سياج البستان ويتسلَّل إلى الأجمات. تابع المضيَّ في طريقه بخِلسة، ولكن بسرعة، عبر أشجار الصنَوبر والتنوب حتى وصل إلى الغابة التي كانت تُغطِّي الجزء العلوي من تلة شول. كانت الأشجار أكثرَ كثافةً هناك، وكذلك كانت الأجمات والشجيرات، وكان الظلمةُ أشد. كان مُضطرًّا إلى أن يتحرك بوتيرةٍ أبطأ، وفجأةً سمع أصواتَ رجال على المنحدَرات السُّفلى تحته. توقف ليلتقط أنفاسه ويُصغِي. بعد ذلك، بَغتةً مثلما فُوجئ بالأصوات التي كان قد سمعها، شعر بيدٍ قوية ثابتة مُتوترة تُمسك برسغه وتُطبِق عليه.

الفصل الثالث والعشرون

أَسْرٌ مُريح

إطباقُ تلك القبضة المتوتِّرة على رُسغ مالاليو أجفلَه حتى إنه بذَل جهدًا عظيمًا من أجل أن يمنع نفسه من أن يُطلق صيحةً وينخرطَ في واحدةٍ من نوبات ارتعادِه المعتادة. كان هذا التوقيف المفاجئ أكثرَ تكديرًا لاتزانه الذهني؛ لأنه، في تلك اللحظة، لم يستطع أن يرى مَن هو صاحب تلك اليد. لكن عندما استدار رأى جسدًا طويلًا نحيلًا يقف ملاصقًا له؛ وفي اللحظة التالية تسلل صوتٌ هامس إلى أذنه.

قال الصوت: «هش! احذر! يوجد رجالٌ بالأسفل هناك على الدرب! إنهم على الأرجح يُلاحقونك.» وأردف: «انتظر هنا دقيقة!»

سأله مالاليو بخشونة: «مَن أنت؟» كان يحاول أن يُحرِّر رسغه، لكن الأصابع الفولاذية أطبقَت عليه. قال: «دع يدي!» واستطرد: «أتسمع؟ دعها!»

قال الصوت: «انتظر!» وتابع: «هذا لمصلحتك. إنه أنا، الآنسة بِيت. رأيتك ... قُبالة بقعة الضوء تلك بين الأشجار هناك ... عرَفتُك من جسدك الضخم. لقد هربتَ، بالطبع. في الواقع، لن تمضيَ أبعدَ من ذلك إذا لم تثق بي. انتظر حتى نَسمع في أي طريق سيمضي هؤلاء الرجال.»

حرَّر مالاليو نفسه. عندما صارت عيناه أكثرَ اعتيادًا على عتمة الغابة، تبيَّن أن الآنسة بِيت كانت تقف وسط فُرجة بين الأشجار؛ وبعد قليل، عندما صارت الأصوات تحتهما أَخفتَ، جذبَتْه إلى داخل تلك الفُرجة.

همسَت: «من هذا الطريق!» وتابعت: «تعالَ ورائي وابقَ على مَقربة منِّي؛ المنزل قريب.»

اعترض مالاليو بغضبٍ: «لا!» وأضاف: «لن أدخل أيًّا من مَنازلكم! اسمعي، أريد أن أكون في الأرض السبخة. ماذا تُريدين ... من أجل أن تُطبِقي فمَكِ؟»

توقفَت الآنسة بِيت واقتربت بجسدها النحيل من جسد مالاليو الضخم.

قالت: «لن تكون المسألة أن أُطبِقَ فمي إن خرجت إلى هذه الغابة.» وتابعت: «أول مكان سيبحثون فيه هو هذه الأراضي السَّبخة. لا تكن أحمقَ! سيكون الأمر قد شاع الآن في سائر أنحاء البلدة! تعالَ معي وسأضعك في مكانٍ لا يستطيع كلُّ رجال الشرطة في البلاد أن يعثروا عليك فيه. ولكن بالطبع، افعل ما شئتَ؛ أنا فقط أحذرك. لن يكون لديك أيُّ فرصة للهرب إن وَطِئتَ بقدمك تلك السَّبْخة. اذهب في حفظ الرب، يا رجل! ألا يعرفون أنه لا يوجد سوى مكانَين يمكنك أن تهرب إليهما؛ نوركاستر وهِكسنديل؟ أيوجد أيُّ سبيل إلى أيٍّ منهما إلا عبر الأراضي السَّبْخة؟ بِرَبِّك، تَعَقَّلْ.»

قال مالاليو، مُزمجرًا: «هيا، إذن!» كان يتساءل في نفسه؛ لكونه بالغَ التشكُّك بطبيعته، عن السبب الذي يجعل لدى «أنثى التنين» هذه — كما أعتاد أن يُطلِق عليها — أيَّ رغبة في أن تُخَبِّئه. ارتاب بالفعل في أنها تنوي شيئًا ما، خدعةً ما، فأطبق بيده في الظلمة على جيب بنطاله الخلفي حيث كان يضع مسدسه. كان ذلك باعثًا على الأمن بما يكفي، ومجددًا شكَر حظَّه السعيد أن رجال الشرطة لم يُفتشوه. ولكن مهما كان مسلحًا، كان في الوقت الحالي تحت رحمة الآنسة بِيت؛ كان يعرف تمامَ المعرفة أنه إن حاول أن ينسلَّ هاربًا، فلن تحتاج الآنسة بِيت إلا إلى أن تُطلق صرخةً حادة واحدة لتجذب الانتباه. ولذا، بقدر ما كان يرغب في حرية الانطلاق في الأراضي السَّبخة، رضي بأن يؤخَذ أسيرًا على يد سَجَّانته التي وعدَته بالحرية بعد حين.

انتظرت الآنسة بِيت بين الأشجار الكثيفة حتى صارت الأصوات الآتية من سفح تلَّة شول خافتةً وبعيدة؛ كانت تعرف تمام المعرفة أنها لم تكن أصواتَ رجال يبحثون عن مالاليو، وإنما أصوات قرويِّين كانوا قد قَدِموا إلى البلدة وكانوا حينئذٍ يسلكون الدَّرْب السفلي في الغابة عائدين إلى ديارهم. ولكن كان يُلائم غرضَها أن تُشْعِر العمدة بوجود خطر داهم؛ ولذا أبقتْه هناك، ويدُها مُستقرةٌ على ذراعه، حتى اختفى آخر صوت. وبينما كانت تُمسك به هكذا، تساءل مالاليو، الذي كان كثيرًا ما يُلاحظ الآنسة بِيت أثناء تجوالها في السوق، وكان معتادًا على التحدُّث عنها واصفًا إياها بأنها «لفَّة خيط»، أو «الآنسة جلد على عظم»؛ بسبب نُحول جسدها الذي لا مثيلَ له، كيف يُمكن لامرأةٍ بهذا الوهن غير العادي أن تَمتلك أصابعَ بهذا القدر من القوة؛ إذ كانت قبضتها على رُسغه مثل قبضة مِنْجَلة. وبطريقةٍ ما، على نحوٍ لم يستطع أن يجدَ له تفسيرًا، وخاصة في الحالة المضطربة والمتوترة التي كان عليها عقلُه، أدرك أن هذه المرأة الغريبة كانت تمتلك قوةً

عقلية تفوق قوته وتُسيطر عليها، وللحظةٍ شعر بالرغبة في أن يتخلَّص من إطباق تلك الأصابع الفولاذية وينطلقَ هاربًا نحو الأراضي السَّبْخة.

ولكن بعد هُنيهة تقدَّمت الآنسة بِيت، ممسكةً بمالاليو مثلما تُمسك مربيةٌ بطفلٍ مُكْرَه. اقتاده بحذرٍ عبر الأشجار، التي صارت أكثرَ كثافةً في ذلك الموضع، وأرشدته بحرص نزولًا على درب، وإلى شُجيرات مزروعة، جذبَته عبر فجوة في سياج من الشجيرات، وأدرك مالاليو أنهما كانا حينئذٍ في حديقة مطبخ مؤخِّرة كوخ العجوز كايتلي. بهدوءٍ وخِلسة، وكأنما كانت تلبس في قدمَيها حذاءً مِخمليًّا، شقَّت الآنسة بِيت طريقَها إلى الباب مصطحبةً أسيرَها؛ سمع مالاليو صوتَ احتكاك مِفتاح في قُفل، ورَفْع مِزلاج؛ ثم دفعته برفقٍ ولكن بحزم إلى العتمة. وأُغلِق الباب خلفه، وعاد لسان القُفلِ إلى موضعه.

همسَت الآنسة بِيت: «من هنا!» جذبَته خلفها عبر ما شعر أنه ممرٌّ، وأدارته يسارًا عبر مدخل آخر، ثم لأول مرة منذ فرَضَت سيطرتها عليه، حرَّرَت رُسغه. قالت: «انتظر!» وتابعت: «سيكون لدينا ضوء بعد هُنيهة.»

وقف مالاليو حيث وضعَته، وهو يُحسُّ بنفادِ صبر من كل شيء، ولكنه كان يشعر بأنه عاجزٌ عن الحركة. سمع الآنسة بِيت تتحرَّك هنا وهناك؛ وسمع صوتَ جذب درفتَي نافذةٍ وإغلاقهما، وصوت حفيف ستائر وهي تُسحَب لتُسدَل؛ ثم صوتَ احتكاك عود ثقابٍ واشتعاله، وعلى ضوئه الواهن رأى وجه الآنسة بِيت الغريب، الذي تتَّخذ ملامحُه هيئةً عجيبة، ورأسَها ذا الغطاء العتيقِ الطراز ينحني نحو مصباح. وعلى ضوء ذلك المصباح الآخذِ في الازدياد نظر مالاليو حوله في قلق.

كان في غرفة صغيرة نصفُها غرفة جلوس والنصف الآخر غرفة نوم. كان يوجد سرير مُخَيَّم في ركن؛ وطاولة كتابة بأدراج على الجانبَين تحت نافذة أُسدِلَت عليها ستائر كبيرة؛ وكرسيَّان وثيران على جانبَي موقد المدفأة. كانت توجد كتب وأوراق على رف؛ وصور ورسوم كاريكاتورية على الجدران. ألقى مالاليو نظرةً سريعة على تلك الصور التي كانت تُزين الجدران وأبغضَها؛ كانت صورًا لقُضاة مشاهير يلبسون رداء القضاء، ولمحامِي دفاعٍ في قضايا جنائية يضَعون باروكاتهم، وفوق رفِّ المدفأة لوحُ ورق من القطع الكبير، مطبوع عليه كلمات بأحرف كبيرة غريبة الشكل؛ وبنظرةٍ خاطفة لمح مالاليو العنوان التاليَ مكتوبًا: «خُطبة الموت للقاتل الشهير واعترافه.»

عَلَّقَت الآنسةُ بِيت بهدوء، وهي تُشعل ضوء المصباح إلى أقصى حدٍّ: «كان هذا ركنَ الراحة الخاصَّ بكايتلي.» واستطردَت: «كان ينام على ذلك السرير، ويُجري دراساته على

تلك الطاولة، ويُدخن غليونه على ذلك الكرسي. كان يُطلِق عليه باللاتينية قدس الأقداس أو شيئًا من هذا القبيل؛ لا أعرف اللاتينية. ولكنها غرفةٌ لطيفة، وهي مريحة، أو ستكون كذلك عندما أشعل النار في ذلك الموقد، وستؤدِّي الغرضَ منها على نحوٍ جيد جدًّا لك إلى أن يكون بوُسعك أن تتحرَّك. اجلس، أترغبُ في قليلٍ من الويسكي الجيد، الآن؟

جلس مالاليو وحدَّق بأشدِّ ما في وُسعه في الآنسة بِيت. كان يشعر بأنه أصبح أكثرَ تشوُّشًا وتحيرًا من أي وقتٍ مضى.

قال فجأةً: «اسمعي، يا آنسة!» واستطرَد: «دعينا نُوضِّحْ بعض الأمور. تقولين إن بوُسعك أن تُبقيني في أمانٍ هنا إلى أن أستطيع الهروب. كيف لكِ أن تعرفي أنني سأكون في أمان؟»

أجابت الآنسة بِيت: «لأنني سأحرص جيدًا على أن تكون كذلك.» وأردفَت: «لا يُمكن لأحد أن يدخل هذا المنزل دون إذني، وقبل أن أسمح لأي أحد أن يدخل، أيًّا كان ما يحمله من أمر تفتيش أو أي شيء من هذا القبيل، سأتأكَّد من أنك غادرتَ قبل أن يتخطى عتبة الباب. يمكنني أن أقول لك، يا سيد مالاليو إنني لستُ حمقاء، وإن كنت تثق بي ...»

علق مالاليو، بتجهُّم: «يبدو أنه ليس لديَّ خيارٌ آخر.» وأضاف: «أنا بحوزتك! والآن، ما مقدار المال الذي تُريدين أن تحصلي عليه مني في تقديرِكِ ... كم؟»

قالت الآنسة بِيت: «لا أجر بلا عمل!» وتابعَت: «انتظر حتى أدبِّر الأمور من أجلك. أعرف كيف يمكنني أن أُخرجك بأمان من هنا ... دع لي هذا الأمر، وسأجعلك تصل إلى أيِّ مكان تريد في نوركاستر، دون علم أيِّ أحد. وإن أردتَ أن تعطيَني هبةً صغيرة فذلك ...»

سألها مالاليو، وهو لا يزال مرتابًا، ولكنه كان راضيًا بأيِّ بارقة أمل: «هل أنتِ متأكدة؟» واستطرد: «أتَعرفين ما تتحدَّثين عنه؟»

ردَّت الآنسة بِيت بسرعة: «أنا لا أتكلم بكلام فارغ أبدًا.» وأردفت: «أقول لك ما أعرفه.»

قال مالاليو: «حسنًا، إذن.» وأضاف: «قومي بدورِكِ، وسأقوم بدوري عندما يحينُ وقتُ ذلك؛ ستجدينني كريمًا، يا آنسة. وسأشرب ذلك القليلَ من الويسكي الذي تحدثتِ عنه.»

ذهبَت الآنسة بِيت، تاركةً مالاليو يُحدق فيما حوله ويتأمَّل في هذا التغيُّر الغريب في حظوظه. في الواقع، كان أفضلَ له، في نهاية الأمر، أن يتمتعَ بالأمان والمأوى في كنف هذه العجوزِ من أن يُحبَس في سجن نوركاستر، أو أن يُصبحَ مُطارَدًا في الأراضي السَّبخة

الموحشة، وربما يُعْوِزه الطعامُ أو الشراب. وبدأت أفكارُه تتَّخذ طبيعةً أكثرَ انشراحًا عندما أحضرَت له الآنسة بِيت كوبًا من شرابٍ كحولي غير مخفَّف من نوعية جيدة بكل تأكيد، ومضَت تُشعل نار مِدفأة محبسِه؛ بل إنه صار أكثرَ لينًا لدرجة أنه وجَّه إليها بعض عبارات الشكر.

قال، مُحاولًا إبداءَ بعض اللطف: «من المؤكد أنني مدينٌ لكِ، يا آنسة.» وأضاف: «لن أنساكِ عندما يأتي وقتُ تسوية الأمور. ولكن سيرتاح بالي أكثرَ إن عرَفتُ أمرَين. الأول: تعرفين، بالطبع، أنني هربتُ من تلك الطُّغمة في البلدة، وإلا ما كنت وصلتُ إلى حيث وجدتِني. ولكنهم سيُطاردونني بلا هوادة، يا آنسة! الآن، بافتراض أنهم أتوا إلى هنا، فما العمل؟»

رفعَت الآنسة بِيت وجهَها من أمام الموقد، حيث كانت تنفخ في أعواد الحطب لتَضْطرِمَ فيها النار.

علَّقت قائلةً: «كل الاحتمالات قائمة.» وأردفَت: «بدايةً، ما مقدار احتمال أن يُفكِّروا في المجيء إلى هنا؟ منعدمٌ تقريبًا! لن يشكُّوا مطلقًا في أنني أؤويك عندي. يوجد احتمال أنه عندما يُفتِّشون هذه الغابات، وهو ما سيفعلونه، سيسألون إن كنتُ رأيتك؛ حسنًا، يمكنك أن تترك لي أمر الرد عليهم.»

قال مالاليو: «ربما يرغبون في أن يُجْروا تفتيشًا.»

أجابت الآنسة بِيت: «أمر مُستبعَد!» وتابعت: «ولكن حتى إن فعَلوا، فسأتكفل بألا يَجِدوك!»

سألها مالاليو: «حسنًا ... وماذا عن مسألة تهريبي؟» وأضاف: «كيف يمكن فعل ذلك؟»

أجابت الآنسة بِيت: «سأخبرك غدًا.» واستطردَت: «هَوِّن عليك؛ سأتولى أمر الاعتناء بك. والآن سأذهب لأطهوَ لك لحم ضلع جيدًا، فأنت بلا شك تحتاج إلى شيء لتأكلَه بعد كلِّ ما سمعتَه في قاعة المحكمة.»

سألها مالاليو: «أكنتِ هناك؟» وأضاف: «كثيرٌ من التلفيق والهراء! امرأة عاقلة مثلكِ ...»

أجابت الآنسة بِيت: «امرأة عاقلة مثلي لن تُصدق إلا ما يمكنها إثباتُه.»

غادرت وأغلقَت الباب، وبعد أن أصبح مالاليو بمفرده، أخذ جرعةً أخرى من كوبه ليَشدُدَ بها عزمه وعاد إلى مواصلة تفقُّد مأواه. كانت نار المدفأة مشتعلة؛ كانت الغرفة

دافئة ومريحة؛ من المؤكد أنه سعيد الحظ. ولكنه تأكدَ من أن درفتي النافذة كانتا مُحكمَتَي الإغلاق، وأن النافذة كانت موصَدة، ومغطاةً بالكامل بالستائر السميكة، ووقف بجوارها لحظةً يُصغي السمع لأي صوت حركة في الخارج. لم يأتِ أي صوت، ولا حتى صوت ريح قوية نوعًا ما، كان يعرف أنها تهبُّ عبر أشجار الصنوبر، واستنتج أن الجدران الحجرية القديمة تكاد أن تكون مانعةً للصوت وأنه إن تبادل الحديث مع الآنسة بِيت بنبرة عادية فلن يستطيع أيُّ مسترقٍ للسمع أن يسمعهما. وبعد قليل التقطت أذُناه صوتًا بداخل الكوخ، صوت لحم الضلع وهو يئزُّ على شوَّاية، وأتت معه الرائحة المبهجة والجميلة لطهي اللحم، وقرر مالاليو أنه جائع.

لرجل محصور كما كان مالاليو في ذلك الوقت لم يكن المساء الذي أعقبَ ذلك سيئًا على الإطلاق. قدَّمَت له الآنسة بِيت عشاءً خفيفًا بجودة العشاء الذي كانت ستُقدمه له مدبِّرة منزله؛ ولاحقًا تفضَّلت عليه بصُحبتها. تحدَّثا عن أي شيء عدا أحداث ذلك اليوم، وبدأ مالاليو يظنُّ أن تلك المرأة الغريبةَ الشكل كانت فَطِنة وذكية على نحوٍ لافت. لم تكن توجد سوى نقيصةٍ واحدة في أسره؛ لم تكن الآنسة بِيت تسمح له بالتدخين. قالت إنه قد تُشَمُّ رائحة دُخان السيجار خارج الكوخ، ولن يُصَدِّق أحدٌ أنها تُنفق مالها على رفاهيات السادة تلك.

قالت، في نهاية محادثةٍ مشوِّقة تناولا فيها موضوعاتٍ متنوعة: «ولو كنتُ مكانك، لحاولتُ أن أنال قسطًا من الراحة بالنوم. سأمزج لك كأسًا من مشروب التودي الساخن الجيد مثل الذي كان الراحل كايتلي يدَعُني أمزجُه له ليشربَه قبل النوم، وبعد ذلك سأتركُك. لقد قمتُ بتهوية الفراش، وتوجد أغطيةٌ وفيرة عليه؛ كل شيء على ما يُرام، ويمكنك أن تنام قريرَ العين كما لو كنت رضيعًا في مهده؛ لأنني أنام دومًا مثل الكلب، بعين وأذن مفتوحتَين، وسأحرص على ألا يُزعجك أيُّ شيء، وأتحدَّاك!»

شرب مالاليو كأسَ مزيج المشروب الروحي الساخن، والماءَ الذي أحضرته له الآنسة بِيت بعد قليل، وأخذ بنصيحتها بشأن الخلود إلى النوم. دون أن يدريَ غلَبه النُّعاس ونام نومًا عميقًا لم يعرفه في حياته من قبل. كان عميقًا حقًّا لدرجة أنه لم يسمع الآنسة بِيت وهي تتسلَّل إلى غرفته، ولم يكن واعيًا إلى أنها سحبت صدريته الثمينة التي كانت قد رأته، عبر ثقبٍ ملائم في الجدار، وهو يودِعُها تحت بقية ملابسه على الكرسي إلى جواره، ولم يعرف مطلقًا أنها أخذتْها غرفةَ المعيشة على الجانب الآخر من الكوخ. وذلك لأن مذاق الليمون القوي وحلاوة السكر اللذَين كانت الآنسة بِيت قد وضعتهما في شراب التودي

الساخن كانا قد أخفيا تمامًا الطعمَ الخفيف جدًّا لشيء آخر كانت قد وضعتْه، شيء كان أقوى كثيرًا من جرعة الويسكي السخية، وكان مرادًا به أن يجعل مالاليو يَستغرق في غيبوبة لم يكن يمكن حتى لزلزال أن يجعله يُفيق منها.

فتَّشت الآنسة بِيت الصدرية على مهل. واندسَّت أصابعها الرفيعة عبر كل جيب وكل ورقة، وعبر الأوراق النقدية، والصكوك، والأسهم، والسندات المالية. أعادت كل شيء إلى مكانه، بعدما حسبَت وقدَّرَت بدقةٍ المبلغ كلَّه. وكان مالاليو مُستغرقًا في غيبوبةٍ عميقة لم يسبق له أن استغرق فيها عندما عادت إلى غرفته وهي تحمل مِصباحها المُظلل وتمشي بخفَّة كالقطِّ وأعادت وضع الملابس كما وجدتها بالضبط، وخرجَت وأغلقت الباب بنعومةِ فراشة تُرفرف بأجنحتها.

كانت الساعة حينئذٍ الحاديةَ عشرة ليلًا، وبدلًا من أن تأوي الآنسة بِيت إلى فراشها، جلسَت بجوار مدفأة غرفة المعيشة وانتظرت. كانت قد استبدلت بغطاء الرأس المسطَّح عمامتَها الملونة، وتحت لونَيها الذهبي والقرمزي كان وجهها الغريب العظمي يلمع مثل عاجٍ قديم وهي جالسة هناك ووهجُ نار المدفأة يتراقص أمام وجهها. وكانت ساكنةً جدًّا، وهي جالسة وذراعاها النحيلتان القويتان تستقران مطويَّتَين فوق مئزرها الحريري، حتى إن الناظر لو رآها لحسبها تمثالًا وليس امرأةً على قيد الحياة.

ولكن عندما كانت عقاربُ الساعة التي على رف المدفأة تقترب من منتصف الليل، تحرَّكت الآنسة بِيت فجأةً. التقطت أذناها الحادَّتا السمع صوتَ خربشة على الدرفة خارج النافذة. ودون جلَبة تحركَت في الممر، ودون جلبةٍ فتحت رتاج الباب الأمامي، ودون جلبةٍ كذلك أغلقته خلف الرجل الذي انسلَّ إلى الداخل؛ كريستوفر، ابن أخيها.

الفصل الرابع والعشرون

خطوط عمل صارمة

دخل كريستوفر بِيت على أطراف أصابعه إلى غرفة المعيشة، بعدما حذرَته عمَّته برفع سبَّابتها إلى فمها، وبعد أن وضع حقيبة سفرِه الصغيرةَ على الطاولة شرع في خلع معطفه السميك، ووشاح تدفئة، وزوجَي قفَّازات صوفيَّين، وقبعةً حريرية. وأغلقت الآنسة بِيت البابَين الخارجيَّ والداخلي، ثم اقتربت منه ونظرت إليه بتساؤل.

سألته: «من أيِّ طريق جئت؟»

أجاب كريستوفر: «هاي جيل.» واستطرد: «ركبت قطارَ ما بعد الظهيرة السريع الذي توقف هناك. كان البرد قارسًا وأنا أعبر تلك الأراضيَ السَّبخة، أقول لكِ: قارسٌ حقًّا! أحتاج إلى جرعة شراب. اسمعي، هل يوجد أي شيء يحدث في الجوار؟ أي شيء يجري؟»

سألتْه الآنسة بِيت، وهي تُخرج الويسكي وحبات الليمون: «لماذا؟» واستطردَت: «وما الذي تقصده؟»

سحب كريستوفر كرسيًّا وثيرًا إلى جوار المدفأة ومدَّ يدَيه إلى اللهب.

أجاب: «هناك، في الأرض السبخة.» وتابع: «يوجد رجال يَمضون هنا وهناك بأضواء ... مصابيح، على ما أظن. لم أشاهدها عن قرب ... كان العديد منها يقطع المنطقةَ هناك، مثل اليراعات، كما لو كان الشبَّان الذين يحملونها يبحثون عن شيءٍ ما.»

وضعَت الآنسة بِيت الدورقَ ومكونات تحضير شراب التودي على الطاولة التي بجانب ابن أخيها، وأخذَت طبقًا مغطًّى من الصِّوان الذي في الركن.

قالت: «هذه شطائر لحم مُعَلَّب.» وأضافت: «ستجدُها شهيةً جدًّا؛ لم أُعِدَّ الكثير، لأنني كنت أعرف أنك ستتناول عَشاءك في القطار. أجل، في الواقع، ثَمة شيء يجري؛ إنهم يُجرون عملية بحث. ولكن، ليس عن شيء ما، وإنما عن شخصٍ ما. مالاليو!»

بينما كان فمُ كريستوفر ممتلئًا بالشطائر، ويده موضوعة على الدورق، رفع وجهًا مفعمًا باهتمام مستجِدٍّ وانتباه.

هتَف بذهول، قائلًا: «العمدة!»

صَدَّقَت الآنسة بِيت على قوله، قائلةً: «بالضبط.» وأردفت: «أنطوني مالاليو، المبجَّل، عمدة هاي ماركت. يريدون الإمساك به، أعني الشرطة؛ أمر سيِّئ!»

كان كريستوفر لا يزال مذهولًا. كان الدورق مائلًا بالفعل في يده، ولكنه لم يُمِله أكثر؛ وظل خدُّه منتفخًا بالشطيرة.

قال: «يا إلهيَ الرحيم!» وأضاف: «ليس من أجل ...» وتوقَّف عن الكلام، وهو يُشير برأسه نحو مقدمة الكوخ حيث كان الحطب موضوعًا، «... ليس من أجل ... ذلك؟ أيرتابون ... في ... أنه مَن فعلها؟»

أجابت الآنسة بِيت: «لا، وإنما لقتل كاتبه، الذي اكتشف شيئًا.» واستطردَت: «قُتِل الكاتب يوم الأحد، وقبَضوا على مالاليو وشريكِه اليوم، وحاكَموهما، وأفلت مالاليو من الشرطة بطريقةٍ ما، بعد تأجيل القضية، وهرب. و... هو هنا!»

كان كريستوفر قد بدأ في صب الويسكي في كأسه. ومن شدة ذهوله اصطدم الدورق بحافة الكأس محدثًا صوتَ صلصلة.

هتف بذهول: «ماذا!» وأردف: «هنا؟ في هذا الكوخ؟»

أجابت الآنسة بِيت: «بالداخل هناك.» وتابعت: «في غرفة كايتلي. سليمًا ومُعافًى. لا يوجد خطر. لن يستيقظ. مزجتُ له كأسًا من التودي قبل أن يأويَ إلى سريره، ولن توقظه الزلازلُ ولا صفارات إنذار الحريق قبل الساعة التاسعة من صباح الغد.»

قال كريستوفر: «يا للعجب!» وأضاف: «ممم! هذه لعبة خَطِرة؛ إنه إيواءٌ لمتهَم هارب، كما تعرفين. على أي حال، سيَشتبهون في أنه سيأتي إلى هنا. ما الذي جعله يأتي إلى هنا؟»

أجابت الآنسة بِيت: «أنا أتيتُ به إلى هنا.» وتابعَت: «لمحتُه في الغابة بالخارج هناك، بينما كنتُ عائدةً من مبنى البلدية؛ لذا أتيتُ به إلى هنا. سأجني الكثير من ذلك، يا كريس.»

كان السيد بِيت يرفع كأسه إلى شفتَيه، فأوقفه في منتصف الطريق إليها، وغمَز من فوق حافته إلى عمته، وابتسم بفِطنة.

علَّق بإعجاب، قائلًا: «يجب أن أُقر بأنكِ بارعةٌ في أمور العمل، أيتها السيدة العجوز!» واستطرد: «بالطبع، بالطبع، إن كنتِ ستَخرُجين بصفقة جيدة من هذا ...»

قالت الآنسة بِيت، وهي تجلس أمام الطاولة وتنظر إلى حقيبة ابن أخيها: «سيَحينُ وقتُ ذلك غدًا.» وأضافت: «سنَعتني بشأننا الليلة. حسنًا، كيف كان ما أنجزتَه من عمل؟»

أخذ كريستوفر يمضغ طعامه ويشرب دقيقةً أو دقيقتَين. ثم أومأ برأسه، بطريقةٍ توحي بقدرٍ كبير من الرضا.

أجاب: «جيدًا جدًّا.» وأضاف: «حصلت على ما أعتبره سعرًا جيدًا جدًّا. بعتُ قطعة الأرض كلها لمالك عقارات في بريكستون، وقبضت الثمن، وأحضرت لكِ النقود. كلها؛ لم أقتطع حتى أتعابي، مصاريفي، وعمولتي منها ... بعد.»

سألته الآنسة بِيت: «بكم بِعتَها؟»

سحب كريستوفر حقيبته إلى جانبه وأخرج منها حزمةَ وثائق ملفوفة بشريط أحمر.

قال، وهو يهزُّ رأسه بعتاب لعمَّته: «يجب أن تعتبري نفسَكِ محظوظة جدًّا.» واستطرد: «إنني أعرف الكثير عن حالة سوق العقارات، ويمكنني أن أؤكدَ لكِ أنني أبليتُ بلاءً حسنًا بدرجة غير عادية من أجلِكِ. ما كنت سأحصل على ما حصلت عليه لو أنها كانت قد بِيعت بالمزاد. ولكن الرجل الذي بعتُها له كان حريصًا بعض الشيء على امتلاكها؛ لأنه يَمتلك عقارًا مُلاصقًا لها، ودفع أكثرَ بكثير مما كان سيدفع في ظروف أخرى. حصلت على ...» وتابع، وهو يُراجع الورقة الموضوعة فوق بقية أوراقه: «حصلتُ، تقريبًا، على ثلاثة آلافٍ وأربَعِمائة ... بالضبط، ثلاثة آلاف وأربعمائة وسبعةَ عشر جنيهًا، وخمسة شلنات، وأحدَ عشَر بنسًا.»

سألته الآنسة بِيت: «أين النقود؟»

أجاب كريستوفر: «معي هنا»، وهو يُربت على صدره. وأضاف: «في محفظتي. أوراق نقدية، كبيرة وصغيرة، حتى يُمكننا تسوية الحساب.»

مدَّت الآنسة بِيت يدها.

وقالت: «أعطني إياها!»

نظر كريستوفر إلى عمَّته شزَرًا.

قال، مقترحًا: «أليس من الأفضل أن نحسب مصاريفي وعمولتي أولًا؟» وتابع: «ها هو بيانٌ بالمصاريف؛ وبالطبع، سنتَّفق أنا وأنتِ على العمولة.»

قالت الآنسة بِيت: «سنتفق على كل شيء بعدما تُعطيني النقود.» وأضافت: «لم أعدَّها بعد.»

كان ثَمة بعضُ الإحجام في طريقة كريستوفر بِيت وهو يُخرِج ببطء محفظةً متينة ويأخذ منها رزمةً سميكة من الأوراق النقدية. أعطاها لعمَّته، وعليها كومةٌ صغيرة من العملات المعدنية الفضية والنحاسية.

قال بقليلٍ من الشك: «حسنًا، أنا أثق بكِ، كما تعرفين.» واستطرد: «لا تنسَي أنني أبليتُ بلاءً حسنًا من أجلِكِ.»

لم تُجِب الآنسة بِيت. كانت قد أخرجت عوينات من جيبها، وبعدما وضعتها على أنفها الحادِّ شرعَت في عدِّ الأوراق النقدية، بينما كان ابنُ أخيها يتناوب ارتشاف مشروب التودي وتمسيدَ ذقنه، وفي الوقت نفسه يُراقب ما تفعله قريبته بنظراتٍ توحي نوعًا ما بالندم.

قالت الآنسة بِيت بهدوء: «ثلاثة آلاف، وأربعمائة وسبعة عشر جنيهًا، وخمسة شلنات، وأحد عشر بنسًا.» وتابعت: «ومصاريفك، وأتعابك ... كم تبلغ، يا كريس؟»

أجاب كريستوفر، وهو يُمرر إحدى أوراقه عبر الطاولة بسرعة ولهفة: «واحد وستون جنيهًا، وشلنان، وتسعة بنسات.» وأردف: «ستجدين هذا معقولًا جدًّا؛ فعلتُ ذلك بأقلِّ تكلفة ممكنة من أجلكِ.»

وضعت الآنسة بِيت مرفقها على كومة أوراقها النقدية بينما كانت تُدقِّق في البيان. وبعد أن انتهت من ذلك، نظرت من فوق عويناتها إلى كريستوفر المترقِّب.

قالت: «حسنًا، بخصوص العمولة.» وتابعت: «بالطبع، أنت تعرف، يا كريس، أنك يجب ألا تتقاضى مني ما كنتَ ستتقاضاه من الآخرين. يجب أن يكون ما تتقاضاه مني معقولًا. ما المبلغ الذي كان يدور بخلَدك؟»

علَّق كريستوفر بتفكير: «لقد حصلت على أعلى سعر.» واستطرَد: «حصلتُ لكِ على ما يربو على أربعمائة جنيه أكثرَ من سعر السوق. ما ... ما رأيكِ في خمسةٍ بالمائة؟»

قذفَت الآنسة بِيت العمامة الملونة باستغراب.

قالت باقتضاب: «خمسةٌ بالمائة!» وتابعت: «كريستوفر بِيت! ما هذا الذي تقوله؟ عجبًا، هذا سيُساوي مائة وسبعين جنيهًا! يا إلهي! لا ... لا شيء من هذا القبيل؛ هذه ستكون سرقة. أنا مندهشةٌ منك.»

قال كريستوفر، مزمجرًا: «حسنًا، كم، إذن؟» وأردف: «بحق الجحيم! لا تكوني بخيلةً مع ابن أخيكِ.»

قالت الآنسة بِيت، بحزم: «سأُعطيك مائة جنيه، شاملةً المصاريف.» وأضافت: «لن أُعطيك بنسًا أكثر، ولكن»، وأضافت، وهي تميل إلى الأمام وتُشير برأسها نحو ذلك الشطر من الكوخ الذي كان مالاليو نائمًا فيه في سُبات عميق، «سأعطيك شيئًا تغنمُه، فرصة أن تستغلَّه لتحصل على ثروة ... منه!»

تهلَّل قليلًا وجهُ كريستوفر، الذي كان مُكفهرًّا، عندما سمع هذا، وألقى هو الآخرُ نظرةً سريعةً على الباب.

سألها بتشكُّك: «هل سيَستحقُّ الأمرُ العناء؟» وتابع: «ما الذي يُمكن استخراجه من منه إن كان هاربًا من العدالة؟ سيكون خاليَ الوفاض، ولا حتى يستطيع أن يتحصَّل على أي شيء مما يملك.»

أطلقت الآنسة بِيت ضحكة مكتومة غريبة؛ دائمًا ما كان صوتُ ضحكتها يجعل ابن أخيها يفكر في صوت طقطقة آلة يُعوِزُها التزييت بشدة.

همسَت: «إنَّ معه كومةً من المال!» واستطردت: «بعدما غلبه النعاس سريعًا الليلة فتَّشتُ جيوبه. لا يتعيَّن علينا سوى أن نُضيِّق عليه الخناق بشدة لنحصل منه على ما نشاء! لذا ... ضع المائة جنيه خاصتَك في جيبك، وسنتباحث في المسألة الأخرى غدًا.»

قال كريستوفر: «أوه، لا بأس، بالطبع، في تلك الحالة!» والتقط الورقة النقدية التي دفعتها عمتُه نحوه ودسَّها في محفظته. وعَقَّب، قائلًا: «يجب علينا أن نستغلَّ مخاوفه قليلًا، كما تعرفين.»

أجابت الآنسة بِيت بفتور: «أظن أننا — أنا وأنت — نِدٌّ لذلك.» وتابعَت: «هؤلاء الرجال الضخام المترهلون يسهل إخافتهم.»

كان مالاليو مرتعبًا بالتأكيد عندما استيقظ فجأةً في الصباح التالي ليجدَ الآنسة بِيت واقفةً بجوار سريره. حدَّق فيها بسخط للحظة سيطرَ عليه فيها الجزعُ وأجفل معتدلًا على وسائده. وضعت الآنسة بِيت إحدى يدَيها التي تُشبه المخالب على كتفه.

قالت: «لا تجزع، يا سيد.» وأضافت: «كل شيء آمن، وها هو شيء سيُفيدك، كوبٌ من القهوة الساخنة الجيدة، بنٌّ يمَني حقيقي، كان الراحل كايتلي مولعًا به، مع جرعة من شراب الرَّم. اشربْه، وستتناولُ إفطارك بعد نصف الساعة. الوقت تجاوز الساعة التاسعة.»

قال مالاليو، وهو يتبع أوامر سجانته: «لا بد أنني نِمتُ نومًا عميقًا.» وتابع: «أتقولين إن كل شيء آمن؟ ألم تسمَعي أو ترَي شيئًا؟»

أجابت الآنسة بِيت: «كل شيء آمن، كل شيء هادئ.» وأردفت: «والحظ حليفك؛ لأنَّ ابن أخي وصل من لندن؛ ليُعاونني في تسوية أموري ونقلِ أغراضي ومنقولاتي من هذا المكان، وهو مُحامٍ وسيُسديك نصائحَ جيدة.»

زمجرَ مالاليو بسخط قليلًا. كان قد رأى السيد كريستوفر وكان يَميل إلى التشكُّك فيه.

تمتم: «هل هو جديرٌ بالثقة؟» وأضاف: «أتوقع أنه سيتعيَّن أن يكون مستقيمًا، أيضًا!»

أجابت الآنسة بِيت: «ليس على نحو غير معقول.» وتابعت: «لسنا أُناسًا غيرَ عقلانيين، أعني عائلتنا. إنه شاب متَّزن جدًّا، أعني كريستوفر. كان الراحل كايتلي يُحسن الظن جدًّا بقدراته.»

لم يشكَّ مالاليو في قدرات كريستوفر بِيت في ناحيةٍ معينة بعدما تبادلَ بضعة أسئلة وإجابات مع ذلك السيد الشاب. إذ كان كريستوفر فطنًا، وأريبًا، وعمَليًّا، وحصيفًا.

بينما كان هو والسجين يجلسان متقاربَين في غرفة النوم والمعيشة التي لم تزَل درفتا نافذتها مغلقتَين وستائرها مُسْدَلة، قال: «ذلك التصرف الذي أقدمتَ عليه، يا سيد مالاليو بالغُ الخطورة، وسامحني على صراحتي في الظروف الراهنة، يا سيدي، عندما أقول إنه شديدُ الحمق.» وأردف: «مجرَّد حقيقة أنك هرَبت، سيعتبرها البعضُ إثباتًا للجُرم؛ إنها كذلك بالفعل! وبالطبع عمَّتي، وأنا على نطاقي الصغير، نتعرَّض لمخاطر كبيرة، يا سيد مالاليو، حقًّا، مخاطر كبيرة!»

قال مالاليو: «اسمعني جيدًا، لن تخسَر وأنت بجانبي.» وتابع: «أنا لستُ شخصًا ضعيفًا أو لا وزن له.»

أجاب كريستوفر: «كل ذلك ممتاز، ولكن لو كنتَ مليونيرًا وعوَّضتَنا بما يمكن أن أُسمِّيَه تعويضَ الأمراء — لا يعني هذا أننا نتوقع ذلك، يا سيد مالاليو — فإن مِن شأن المخاطر أن تكون استثنائية ... إحِم! أعني ستكون استثنائية. لأنه كما ترى، يا سيد مالاليو، يوجد أمران أو ثلاثةُ أمور مؤكَّدة. بادئ بَدْءٍ، يا سيدي، من المستحيل تمامًا عليك أن تهرب من هنا بنفسك؛ لا يمكن فعلُ ذلك!»

زمجر مالاليو: «ولِمَ لا؟» وأضاف: «يمكنني أن أهرب في جُنح الظلام.»

قال كريستوفر، مؤكدًا بقوة: «لا، يا سيدي.» واستطرد: «لقد رأيتُ الوضع في الأراضي السَّبخة الليلة الماضية. توجد دورياتٌ تجوب المنطقة بلا توقُّف، يا سيد مالاليو، بلا توقف!

ويُجريها رجالٌ يحملون مصابيح. تلك الدوريات، يا سيدي، سوف تستمرُّ ليالِيَ كثيرة. ضع في اعتبارك، يا سيد مالاليو، أنك إن خطوت خطوةً واحدةً خارج هذا المنزل، ستصبح بداخل سجن نوركاستر بعد مضيِّ ساعتين!»

سأله مالاليو: «ما الذي تَنصح به، إذن؟» وأضاف: «اسمع! أنا واقعٌ في محنة كبيرة؛ لذا سأخبرك بما كنتُ أنوي فعله. إن استطعتُ أن أصل إلى مكان معيَّن في نوركاستر، سأكون في أمان. يمكنني أن أهرب إلى أوروبا من هناك.»

أجاب كريستوفر: «إذن، يا سيدي، يتعين وضعُ خُطة يمكن بها إيصالُك إلى نوركاستر دون إثارة الريبة. سيتعيَّن أن أتولى أنا وعمتي تدبيرَ ذلك فيما بيننا؛ من الآن سنواجه المخاطر من أجلك.»

عَقَّب مالاليو قائلًا: «عمتك قالت إن لديها خُطة.»

قال كريستوفر: «ليسَت مكتملةً تمامًا، يا سيدي.» وتابع: «تستلزم القليلَ من التدبُّر والتشذيب، إن جاز التعبير. والآن ما أنصح به، يا سيد مالاليو، هو الآتي: ابقَ مرتاحًا مُنَعَّمًا هنا، في حراسة عمتي؛ إنها تؤكد لي أنه، حتى لو أتى رجال الشرطة ... لا تجزع، يا سيدي! ... حتى لو أتى رجال الشرطة إلى هنا، يمكنها أن تُخبئك بأمانٍ تام قبل أن تفتح لهم الباب. ومن ناحيتي، سأذهب، بطريقة عَفْوية، إلى البلدة، وبهدوء سأسمع وأرى ما يدورُ حولي. وسأتمكن من تبيُّن الوضع، يا سيدي، وعندما أعود سأُبلغك بكل شيء، وسنتشاور ثلاثتنا فيما يتعيَّن فعلُه.»

بعدما ترك كريستوفر الأسيرَ في عُهدة الآنسة بِيت، وفرشَ قبعته الحريرية ومعطفه وارتدى زوجَين من القفازات الجلدية السوداء، تجوَّل بوقار في هاي ماركت. كان قلةٌ من الناس يعرفونه هناك، وحرَص على أن يُخبر من الْتقى بهم من معارفه بأنه قد جاء ليتولَّى تنظيم شئون عمته، وليُساعد في نقل الأغراض المنزلية التي كان الراحل كايتلي قد وَرَّثَها لها في وصيته. ولإثبات هذا، ذهب إلى محلِّ نقل الأثاث، ليحصل على تقديرٍ لتكلفة نقل الأثاث إلى مرفأ نوركاستر، وقال كريستوفر إنه من هناك يُمكن نقل الأثاث بحرًا إلى لندن، حيث تعتزمُ الآنسة بِيت أن تُقيم مستقبلًا. استقى كريستوفر قدرًا كبيرًا من المعلومات من محلِّ نقل الأثاث، ومن المتاجر الأخرى التي زارها، ومن حانة «هاي ماركت آرمز» التي مكَث فيها ساعةً أو نحوَ ذلك، يُثرثر مع مرتادي الحانة، ويحتسي كأسًا أو اثنتَين من مشروب الشيري الجاف. وعند الظهيرة عاد إلى الكوخ، بعدما عرَف أن الشرطة وجميعَ الناس في هاي ماركت يعتقدون يقينًا أن مالاليو قد لاذ بالفرار دون أثر في الليلة السابقة،

وأن مطاردته قد صارت بالفعل بلا طائل. كانت نظرية الشرطة أنه كان ثمَّة تواطؤًا، وأنه فور هروبه، نقله شخصٌ لم تُعْرَف هُويَّتُه بعد.

ولكن كريستوفر بِيت روى قصةً مختلفةً تمامًا لمالاليو. إذ قال له إن دوريات بحثٍ تجوب منطقة الأرض السَّبخة ليلًا ونهارًا، وإنه يُعتقَد أن الهارب يختبئُ في أحد المحاجر القديمة. وأخبره أن كل طُرُق نوركاستر ومداخلها ومداخل جميع البلدات والمحطات المجاورة تخضعُ للمراقبة والحراسة. ومن ثَمَّ لا يوجد أملٌ لمالاليو سوى لطفِ وطيبة قلب الآنسة بِيت وابن أخيها، وأدرك مالاليو أن وجوده معهما كان أمرًا لا مفرَّ منه، واضطُرَّ إلى الخضوع لرحمتهما وحنوهما.

الفصل الخامس والعشرون

لا شهادات أخرى

بينما كان مالاليو محتجزًا في معقل الآنسة بِيت الحصين، كان كوذرستون يُعاني من نوع مختلف تمامًا من الاحتجاز في زنزانات الحجز بسجن نوركاستر. لو كان كوذرستون يعرف مكان وجود شريكه، وتحت أيِّ ظروف نجا مالاليو من الاحتجاز خلف قضبان السجون الرسمية، فلربما كان سيهزأ به ويسخر من حماقته. في الواقع، كان كوذرستون يدعو مالاليو بالأحمق منذ الليلة السابقة، عندما أخبره رجال الشرطة، وهم يَنقلونه إلى نوركاستر، بهروب العمدة من مبنى البلدية. لا يمكن لأحد سوى شخص أحمقَ تمامًا، هكذا ظن كوذرستون، أن يفعل شيئًا كهذا. كان كوذرستون يرى أنه لن يلوذَ بالفرار سوى مَن كان لديه سببٌ لذلك، وفي اعتقاده أن تسعةً وتسعين شخصًا من كلِّ مائة شخص في هاي ماركت كانوا سيُشاركونه هذا الرأي. الآن كان مالاليو سيُعتبر مذنبًا، وسيقولون إنه لم يجرؤ على مواجهة الأمور، وإنه كان يعلم أنه هالكٌ لا محالة، وإن هروبه كان تصرفًا يائسًا من مجرم يعي جريمتَه. يا له من أبله! — هكذا قال كوذرستون، بقدرٍ من البهجة الشامتة: يجب ألا يكون لدى أيٍّ منهم سببٌ ليقول أشياءَ كهذه عنه. لن يُقْدِم على أي محاولة للفرار؛ لن يفعل، حتى لو تركوا بوابة سجن نوركاستر مفتوحة على مصراعَيها أمامه! لا بد أن يكون شغله الشاغل أن يُبرَّأ بصورة قانونية، ويجب أن تكون تبرئته علنيةً تمامًا كالإجراءات القضائية التي كانت قد جرَت للتو. خرج من قفص الاتهام وهو عاقد العزم على ذلك؛ ووضع هذه الفكرة نصب عينيه وهو في الطريق إلى زنزانته في نوركاستر؛ وعندما استيقظ في الصباح، كانت أقوى من ذي قبل. قرر كوذرستون أنه، بدلًا من أن يُولِّيَ الأدبار، سيُقاتل، سيقاتل بنفسه.

بصفته مجردَ سجين رهنَ الاحتجاز، كان كوذرستون يتمتَّع بامتيازاتٍ حرَصَ على الاستفادة منها. كان يرغب في رؤية أربعة أشخاص، ولا بد أن يراهم على الفور، في يومه

الأول في السجن، وأفصح عن رغبته في الحال. كان أولهم — وأهمُّهم — محاميًا بعينه في نوركاستر، كان يتمتع بسمعة طيبة باعتباره داهيةً في تلك الأمور. وثانيهم — وهو على نفس القدر من الأهمية تقريبًا — كان محاميًا يقيم في نوركاستر، وعُرِفَ عنه على مدار جيل كامل أنه نجح في إعادة دمج عدد من المجرمين في المجتمَع أكثرَ من أي شخص في مهنته في ذلك الوقت. والاثنان الآخران هما ابنته وويندل بينت. لا بدَّ أن يراهما، ولكن لا بد أن يرى رجلَي القانون أولًا.

عندما جاء المحاميان، تحدث كوذرستون إليهما كما لم يتحدَّث أبدًا مع أي شخص في حياته. سرعان ما أوضح لهما أنه أرسل في طلبهما لأمرَين محدَّدين؛ الأول هو أن يُخبرهما بوضوح ألَّا يضَعا أيَّ اعتبار للمال فيما يخص مسألةَ الدفاع عنه، والثاني أنهما جاءا ليَسمعا ما سيُمْليه عليهما بشأنِ ما عليهما أن يفعَلاه. أنصَتا إلى كوذرستون وهو يتحدث، وعندما انتهى من سردِ كل شيء لهما، شعر كوذرستون بالرضا إذ رأى انبهارًا تامًّا في أعينهما وهما يُغادران. عاد إلى زنزانته من الغرفة التي أجريت فيها هذه المقابلة مهنِّئًا نفسه على براعته.

طمأنَ نفسه قائلًا: «سأخرج من هذا المأزق، وسينتهي كلُّ شيء، بعد أسبوع من اليوم!» وأردف: «سنرى أين سيكون ذلك الأحمقُ مالاليو بحلول ذلك الوقت! لن يبتعد كثيرًا، ولن يختبئ ثلاثين سنةً أخرى هذه المرة.»

انتظر بشيء من القلق رؤيةَ ابنته، ليس لأنه لا بد أن يراها داخل جدران سجن، ولكن لأنه كان يعلم أنه بحلول ذلك الوقت ستكون قد عرَفَت أسرارَ ذلك الماضي الذي كان قد أخفاه عنها بحرص. مع أنها كانت ابنتَه الوحيدة، كان يشعر أن ليتي كانت مختلفةً عنه تمامًا؛ كان قد لاحظ كثيرًا أنها كانت ذاتَ عقلية مختلفة عن عقليته، وأيضًا أنها كانت، في بعض النواحي، غامضةً على فهمه إلى حدٍّ ما. كيف ستتلقَّى كل هذا؟ ماذا ستقول؟ وماذا سيكون تأثيرُه عليها؟ فكر كوذرستون في هذه كل الأسئلة بقلق بينما كان ينتظر زيارتها.

ولكن لو كان كوذرستون يعلم ما خفي عنه، ما كان سيقلق بشأن ليتي بالمرة. كان قد وقع على عاتق بينت أن يُطلِعَها على الأخبار المحزنة بعد ظهر اليوم السابق، وتوسَّل إلى بريريتون أن يُرافقه إلى المنزل. كان بينت منزعجًا؛ أما بريريتون فقد كرهَ هذه المهمة، ومع ذلك فقد شارك فيها طوعًا. ولكنهما، هما أيضًا، لم يكونا بحاجةٍ إلى القلق. فقد استمعَت ليتي بهدوء وصبر حتى انتهيا من قصتهما، ولم تُظهر أيَّ ذعر أو سخط أو

انفعال؛ وكانت رِباطةُ جأشها مدهشةً حتى لبينت، الذي كان يظن بعد سنةٍ من خِطبتهما أنه يعرفها جيدًا.

«إنني أفهم تمامًا»، هكذا قالت ليتي، عندما تبادلا إطلاعها على كل شيء، مع التركيز بخاصةٍ على رواية والدها للأمور. وتابعت: «بالطبع، كل هذا مزعج جدًّا، ولكن الأمر بسيطٌ للغاية، أليس كذلك؟ بالطبع، كان السيد مالاليو هو المذنبَ طَوال الوقت، وقد استدرج والدي المسكين إلى هذا الأمر. ولكن بعد كل ما أخبرتُماني به، ألَا يجب أن يُعرَض هذا كله على — مَن المعنيُّون بذلك؟ — قُضاة التحقيق؟ القُضاة؟ وبعد ذلك بالطبع سيُبرِّئون أبي تمامًا، وسيُشنَق السيد مالاليو. ويندل، سيتوجَّب علينا تأجيل الزفاف طبعًا، أليس كذلك؟»

وافقَها بينت قائلًا: «أجل، بالتأكيد!». وأردف: «لا يُمكننا إقامة الزفاف حتى ينتهيَ هذا الأمر برمَّته.»

قالت ليتي: «سيكون ذلك أفضلَ بكثير.» وتابعت: «فقد كان التعجُّل يُشكل ضغطًا مُريعًا.»

نظر بريريتون إلى بينت عندما غادَرا المنزل.

وقال: «أهنِّئك على خطيبتك راجحةِ العقل، يا صديقي!» وأردف: «كان ذلك مبعثَ ... راحة!»

أجاب بينت: «أوه، ليتي فتاةٌ تتمتَّع بطبع فريدٍ من نوعه، يَمتزج فيه الهدوء والاتِّزان.» واستطرد: «إنها لا تَنزعجُ بسهولة، وهي بارعةٌ في تقييم الأمور. وأرى، يا بريريتون، أنني يجب أن أفعلَ كل ما بوُسعي من أجل كوذرستون، كما تعلَم. ماذا عن دفاعه؟»

قال بريريتون: «أتصوَّر أن كوذرستون بالفعل يُرتِّب دفاعه بنفسه.» وأضاف: «لقد أدهشني أثناءَ حديثنا هذا الصباح في مكتب تالينجتون بقُدرته على الاعتناء بنفسه، يا بينت، وأظن أنك ستجدُ عندما تزورُه أنه قد رتَّب أموره بالفعل. لعلك لن تفهمَ السبب لما سأقوله، ولن أشرحَ لك الآن، ولكن هذا الفرار الأحمق لمالاليو، الذي من المؤكَّد أنه سيُقبَض عليه، في مصلحة كوذرستون جدًّا. سأُدهَش كثيرًا إن لم تجد كوذرستون في حالة معنوية جيدة للغاية، وإن لم تحدُث تطوُّرات في هذا الشأن خلال يوم أو اثنَين ستُدهَش البلدة بأكملها.»

في اليوم التالي، عندما زار بينت السجين بصُحبة ليتي، وجد تنبؤات بريريتون صحيحة. فعندما سمع كوذرستون من ابنتِه وجهة نظرها في المسألة، واطمأنَّ أن كل شيء

كان على ما يُرام بينها وبين بينت، لم يُصبِح واثقًا فحسب، بل مُتباهيًا بابتهاج. سينال حُريته، وسَتُبرَّأ ساحته بعد أسبوع من ذلك اليوم، وقال إنه ليس آسِفًا على أن كل هذا قد انكشَف أخيرًا؛ لأنه الآن سيكون قادرًا على التخلُّص من كابوسٍ كان قد أثقلَ كاهلَه طيلة حياته.

علَّق بينت، قائلًا: «إنك شديدُ الثقة كما تعلم.»

أكَّد كوذرستون بإصرار: «ليس في حدود المعقول.» واستطرد: «انتظِر حتى الغد!»

سأله بينت: «ما الذي سيحدث غدًا؟»

أجاب كوذرستون: «غدًا سيُعقَد التحقيق حول مقتل ستونر.» وأضاف: «احرِص على حضوره وشاهِد واسمع ما سيحدث.»

حضر كلُّ سكان هاي ماركت الذين تمكَّنوا من الاحتشاد في محكمة التحقيق في الوفَيات في اليوم التالي عندما عُقِد التحقيق المؤجَّل حول وفاة الكاتب. لم يكن لدى بينت ولا بريريتون ولا تالينجتون أيُّ فكرة عن المسار الذي سيتَّبِعه كوذرستون ومستشاروه، ولكن تالينجتون وبريريتون تبادلا النظرات عندما أُحضِرَ كوذرستون في عُهدة سجَّانَين من نوركاستر، وعندما قدَّم المحاميان من نوركاستر نفسيهما بعد ذلك بوقت قصير.

همس تالينجتون: «لقد بدأتُ أتوقَّع ما نحن بصدده.» وأضاف: «يا له من ذكاء! ذكاء شيطاني!»

وافقه بريريتون، بإيماءة جانبية أشار بها إلى المقاعد القريبة المزدحمة: «بالضبط.» وتابع: «ويوجد شخص ما مهتمٌّ لأنه سيكون ذا ذكاءٍ شيطاني؛ ذلك المدعو، بِيت!»

كان كريستوفر بِيت حاضرًا في كامل حُلَّته، مرتديًا قبعتَه الحريرية وزوجَيْ قفازاته الجلدية السوداء، ولم يخشَ من إظهار فضوله المهني. كان الفضول هو السِّمَة السائدة في ذلك اليوم؛ فقد أراد كلُّ من كان حاضرًا، أيًّا كانت درجةُ ذكائه وقوةُ ملاحظته، أن يعرف المغزى من وجود كوذرستون، أحدِ الرجلَين المتهمَين بقتل ستونر. لكن كان أمام الحاضرين قليلٌ من الوقت قبل أن يُشبع أيٌّ منهم فضوله. فنظرًا إلى كونه تحقيقًا مؤجَّلًا، كان لا بد من أخذِ معظم الشهادات المتاحة، وبما أن مجال استدعاء الشهود أمام محقِّق الوفَيَات كان واسعًا، فقد قُدِّمت أمامه هو وهيئة محلَّفيه شهاداتٌ أكثرُ من تلك التي قُدِّمت أمام قضاة التحقيق. بالطبع، كان مايلر وبيرسي العجوز حاضرَين، وكذا الحبيبان: وكان يوجد شهودٌ آخَرون، من العاملين بالسكك الحديدية، والأطباء المخضرمين، ومن سكان البلدة الذين تمكَّنوا من الإسهام في الشهادات بحصة صغيرة. ولكن كل هذه الشهادات

صارت طيَّ النسيان عندما أخيرًا دخل كوذرستون بعزمٍ منصةَ الشهود — بعدما حذَّره محقق الوفَيات على نحوٍ وافٍ قائلًا له إن لم يكن بحاجةٍ إلى أن يُدلي بأي شهادة على الإطلاق — وأقسمَ قسمًا غليظًا على أنه كان شاهدًا على جُرْم شريكه.

لم يَنجح أيُّ شيء في زعزعة شهادة كوذرستون. فقد روى قصةً واضحة ومباشرة من البداية إلى النهاية. لم يكن يَعلم أي شيء على الإطلاق عن اكتشاف ستونر لسرِّ قضية ويلشستر. ولم يكن يعلم أي شيء عن ذَهاب ستونر إلى دارلينجتون. في يوم الأحد كان كوذرستون قد ذهب إلى الأرضِ السبخة في نزهةٍ هادئة. عند الأيكة المُطلَّة على محجر هوبويك رأى مالاليو وستونر، ولاحظ على الفور أنهما كانا يتَشاجران. رأى مالاليو يضرب ستونر بقوةٍ بعَصا البلوط، ورأى مالاليو، في فورة انفعالٍ مُفاجئة، يَركل العصا لتسقطَ من فوق حافة المحجر، وشاهده وهو ينزل إلى المحجر ويُغادره في النهاية. وروى أنه ذهب بنفسه بحثًا عن العصا، وأنه وجدها وأخذها إلى البيت، وأخيرًا أخبر الشرطةَ بمكانها. لم يتحدَّث أبدًا إلى مالاليو في ذلك اليوم، ولم يرَه سوى في الواقعة التي حَكاها بالتفصيل.

لم يُزعج المحامي الماهر الذي مثل كوذرستون القاضيَ وهيئة المحلفين كثيرًا بطرح أسئلة على مختلِف الشهود. ولكنه استخلص بهدوءٍ من جميع الأطباء رأيًا قاطعًا بأن الوفاة نجمَت عن ضربة. وعندما انتهت شهادةُ كوذرستون، أصرَّ المحامي على استدعاء الحبيبَين، وحصل على معلومات من كلٍّ منهما على حدةٍ (إذ كان أحدهما يُصطحَب إلى خارج قاعة المحكمة بينما يُقدِّم الآخرُ الأدلة) تُفيد بأنهما لم يُشاهدا مالاليو وكوذرستون معًا، وأن مالاليو كان قد غادر المحجر قبل أن يُشاهدا كوذرستون ببعض الوقت، وأنه عندما مرَّ مالاليو أمامهما بدا ثائرًا وكان يُتمتم في نفسه، بينما لم يُلاحظا أي شيء جدير بالملاحظة في تصرفات كوذرستون.

رأى بريريتون، وهو يُراقب الوجوه الجادةَ والقلقة لأعضاء هيئة المحلَّفين وجميع تجَّار البلدة، التأثير الذي كان تُحدثه شهادة كوذرستون والشهادتين الأخريَين اللتين قدَّمَهما الحبيبان. ومع تجمُّع غسَق وقت العصر، لم يُفاجَأ بريريتون ولا تالينجتون — ولا السيد كريستوفر بِيت بكل تأكيد — عندما انتهى التحقيق إلى إصدار حكم بالقتل العمد على أنطوني مالاليو.

قال تالينجتون لمحامي نوركاستر، معلقًا، عندما التقيا في غرفة الانتظار: «موكلك يُبلي بلاءً حسنًا.»

أجاب الآخر بفظاظة: «موكلي سيُبلي بلاءً أفضلَ من ذلك عندما يَمثُل أمامك مجددًا.» وأردف: «سترى!»

قال تالينجتون بهدوء «إذن ذلك هو المسار الذي تسلكُه؟» وأردف: «مسار جيد ... له.»

أجاب المحامي قائلًا: «كل امرئ مسئولٌ عن نفسه.» وتابع: «مالاليو لا يَعنينا؛ ما يعنينا هو أنفسنا. أراك عندما يَمثُل كوذرستون أمام سيادتك يوم الثلاثاء المقبل. وبيني وبينك! لن يَستغرقَ الأمر طويلًا، عندئذٍ.»

ولكن سواءٌ كان الأمر سيَستغرق وقتًا طويلًا أو قصيرًا، فقد اكتظَّ مبنى بلدية هاي ماركت بالناس حتى أبوابِه، عندما وُضِع كوذرستون مجددًا في قفص الاتهام، بعد احتجازه الذي دام أسبوعًا. هذه المرة، وقف هناك بمُفرده، ونظر حوله بثِقة وارتسمت على وجهه أماراتٌ واضحة تنمُّ عن شعوره بانتصارٍ وشيك. استمع بابتسامةٍ هادئة بينما كان محامي الادعاء — الذي أُرسِل خصِّيصى من لندن لتولِّي القضية — يُناقش مع قُضاة التحقيق مسألةَ هروب مالاليو، وأبدى اهتمامًا أكبرَ عندما سمع بعض المعلومات من رجال الشرطة حول كيفية تنفيذ عملية الهروب، وإنه حتى ذلك الحين لم يكن يُعرَف أي شيء عن الهارب ولم يُعثَر له على أثر. وبعد ذلك، عندما انحنى محامي الادِّعاء لتبادُل حديثٍ هامس مع كاتب العدل، استدار كوذرستون عمدًا، باحثًا عن المكان الذي جلس فيه بينت وبريريتون معًا، وحبَاهما بنظرةٍ غريبة. كانت نظرةَ رجل يرغب في أن يقول «قلتُ لكما! والآن ستَرَيان أنني كنتُ على حق!»

همس بريريتون قائلًا: «سنَسمع شيئًا ... الآن!»

اعتدل محامي الادِّعاء في وقفته ونظر إلى قُضاة التحقيق. بدا عليه تردُّد لحظي؛ بينما ارتسمَت نظرةُ توقعٍ على وجوه الجالسين على منصة القضاء؛ وحلَّ صمتٌ تام في القاعة المزدحمة. كانت الكلمات القليلة التي خرجَت من فم محامي الادِّعاء حادةً وحاسمة.

قال: «لن يُستمَع إلى مزيدٍ من الشهادات بحق السجين الماثل الآن في قفص الاتِّهام، يا حضرات السادة القضاة. لقد قرَّر مُمثل الادِّعاء سحبَ الدعوى.»

وفي خضمِّ ضجيج الإثارة الذي أعقب ذلك، كاد صوت رئيس الجلسة المسنِّ ألَّا يكون مسموعًا وهو ينظر إلى كوذرستون.

قال باقتضاب: «أُخلي سبيلُك.»

استدار كوذرستون وغادر قفص الاتهام. وللمرة الثانية نظر إلى بينت وبريريتون نفس النظرة الفاحصة الغريبة. ثم، وسط صمت تام، غادر قاعة المحكمة.

الفصل السادس والعشرون

فضائل الشك

خلال ذلك الأسبوع، كان على مالاليو أن يتعلمَ من خلال التجرِبة المحزنة أن التحصُّل على معلوماتٍ غير مباشرة أمرٌ بالغ السوء. فها هو يقبع سجينًا خاضعًا لحراسةٍ مشددة — حتى وإن كان سجينًا مدلَّلًا بشدة — لا يقدر على أن يُطِلَّ ولو بطرَفِ رأسه خارج الكوخ، ويعتمد كُليًّا على كريس بِيت للحصول على أيِّ وجميع أخبار العالم القريبِ جدًّا منه، والذي كان في ذلك الوقت مثيرًا لشغَفه وشديدَ الأهمية له. كان الوقت يُمثل له عبئًا ثقيلًا. كانت يوجد الكثير من الكتب على رفوف غرفة استقبال محبَسه، ولكن ذوق كايتلي الراحلِ كان ذا طبيعةٍ مِهنية بحتة، وفي ذلك الوقت لم يكن مالاليو يُفضل القراءة عن قضايا القتل والمحاكمات الجنائية وتلك الأمور البشعة. كان يطلب الصحفَ باستمرار، وكان طلبه يُقابَل بمماطلةٍ بارعة؛ إذ لم يكن ضِمن مخطَّط كريستوفر أن يسمح لمالاليو بالحصول على أيِّ معلومات دقيقة عمَّا يحدث بالفعل. كانت الآنسة بِيت تقول إنها لم تَستلِم أيَّ صحيفة؛ ويتحجَّج كريستوفر دائمًا بأنه قد نسيَ إحضار صحيفة عندما ذهب إلى البلدة؛ ولكنه أحضر صحيفة «التايمز» لليوم السابق مرتين، بعد أن ألحَّ عليه مالاليو أن يتذكَّر، وبالطبع فشل مالاليو في العثور على أي خبر يخصُّه فيها. وكان كلُّ ما يُهمه أن يعرف أي خبر يخصُّه، وكيفية سير الأمور، وكيف يتحدَّث الناسُ عنه، وما قالته الشرطة، وما يحدث عمومًا، ولكن مصدر معلوماته الوحيد كان كريس.

أولى السيد بِيت عناية جيدة بتقديم كل شيء بطريقته الخاصة. كان حريصًا على أن يؤكد لمالاليو أنه يعمل لمصلحته بأقصى ما في وُسعه من عزم وهِمَّة؛ وحرَص على التعبير عن نيته هو وعمَّته تهريبه إلى نوركاستر. ولكنه أيضًا لم يَتوقف مطلقًا عن التركيز على مدى خطورة تلك المغامرة، ولم يملَّ أبدًا من الشكوى من جَسامة المخاطرة التي كان هو والآنسة بِيت يُعرِّضان نفسَيهما لها؛ ولم يكفَّ أبدًا عن إظهار مدى سوداوية الأوضاع

لمالاليو، وكم كانت ستُصبح أسوأَ بكثير لولا طيبةُ حارسَيه الحاليَّين. ولَمَّا عاد إلى الكوخ بعد التحقيق في قضية ستونر، كان وجهه متجهِّمًا للغاية وجادًّا على غير العادة وهو يستعدُّ لإبلاغ مالاليو بالأخبار.

قال همسًا عندما اختلى بمالاليو في الغرفة الصغيرة التي صار الأسير الآن يكرهها ويُبغضها بشدة: «الأوضاع تبدو سيئةً للغاية فيما يختصُّ بك، يا سيد مالاليو.» وتابع قائلًا: «تبدو سيئةً للغاية حقًّا، يا سيدي! لو أنكَ كنت بصحبة أيِّ أناس آخرين غيرنا يا سيد مالاليو، فلا أعلم ماذا كنت ستَفعل. نحن نُعرض نفسينا لمخاطرَ مُخيفة للغاية نيابةً عنك، حقًّا نفعل. إن الأوضاع ... تبعث على الكآبة!»

لم يكن طبعُ مالاليو جيدًا جدًّا مطلقًا، وازداد سوءًا بسبب حبسِه القسري، فصار سريعِ الانفعال.

ثار مُزمجرًا: «اللعنة! لماذا لا تتحدثُ بصراحة؟» وأضاف: «قل ماذا تعني بذلك وانتهِ من الأمر! ما هو الوضع الآن؟ لا أظن أن الأمور أسوأُ مما كانت.»

ببطءٍ خلع كريستوفر واحدًا من زوجَي القفازات الجلدية السوداء اللذَين يرتديهما، ونفَخ فيه قبل أن يضَعه على الطاولة.

قال مستنكرًا، وهو يَشرع بهدوء في خلع القفاز عن اليد الأخرى: «لا حاجة إلى الفظاظة، يا سيد مالاليو.» وتابع: «لا حاجة إلى ذلك على الإطلاق، يا سيدي؛ بصفتنا صديقَين وسيدين محترمَين، يا سيد مالاليو، دعني أخبرك أن الأمور أسوأُ بكثير. لقد أصدرَت هيئةُ محلَّفي محكمة تحقيق الوفيات حُكمًا بحقِّك بالقتل العمد!»

استحال وجه مالاليو الضخم إلى لونٍ رمادي غريب؛ فقد كان يمقت كلمة «القتل» مقتًا خاصًّا.

تمتم قائلًا: «بحقِّي! لماذا أنا على وجه الخصوص؟ لقد كان الاتهامُ موجهًا لشخصين. ماذا عن كوذرستون؟»

قال كريستوفر: «إنني أتحدَّث عن التحقيق.» وأردف: «إنهم لا يتَّهمون أي شخص في التحقيقات؛ إنهم فقط يُجْرون تحقيقًا عامًّا. الحكم بحقك أنت، وأنت وحدك. و... قد كانت شهادة كوذرستون هي التي أدَّت إلى ذلك!»

صاح مالاليو: «كوذرستون!» واستطرد: «شهد ضدي! إنه كاذبٌ إن كان ...»

قاطعَه كريس قائلًا: «سأُخبرك بكل شيء ... من البداية إلى النهاية.» وأضاف: «اهدأ، يا سيد مالاليو، واستمع ... وتعقَّل!»

ولكن على الرغم من هذا النصح، اشتاط مالاليو غضبًا وسخطًا، وعندما أخبره كريستوفر بكل شيء، بدا أن الأمر لا يتطلَّب سوى القليل من الإصرار من جانبه ليجبرَ نفسه على التصرف.

زمجرَ قائلًا: «إنني عازمٌ على مغادرة هذا المكان والتوجه مباشرة إلى الشرطة!» وتابع: «أجل! إنني عازمٌ على تسليم نفسي وإثبات كل شيء.»

قال كريستوفر بحماسة: «افعل ذلك!» واستطرَد: «أتمنى أن تفعل ذلك، يا سيدي. فهذا سيُوفر عليَّ أنا وعمتي المسكينة تكبُّدَ متاعبَ لا تُعد ولا تُحصى. ولكن ... من واجبي، بصفتي محاميًا معتمَدًا من المحكمة العليا، أن أُبلغك أن كل خطوة تخطوها خارج هذا الملاذ الآمن ستكون باتجاه ... حبل المشنقة!»

انكمشَ مالاليو في كرسيِّه وحدَّق في ملامح السيد بِيت الحادة. وشحب وجهه مجددًا. وسأله بصوتٍ أجش: «هل أنت متأكد من ذلك؟»

أجاب كريستوفر: «بل متيقِّن!» وأضاف: «لا شك في ذلك، يا سيدي. إنني أعرف!»

تساءل الأسير: «ما العمل إذن؟»

تقمَّص كريستوفر، بأفضلِ ما في وسعه، دور مقدِّم النصح والمشورة.

وقال أخيرًا: «أفضلُ تصرف في رأيي هو أن ننتظر ونرى ما سيحدثُ عندما يَمثُل كوذرستون أمام القضاء يوم الثلاثاء القادم. إنك في أمانٍ كافٍ حتى ذلك الوقت، ما دمتَ ستفعل ما نقوله لك. فمع أن الريف كله يخضع للمراقبة والتفتيش، لا يوجد أدنى تصورٍ لوجودِك في هاي ماركت. لذا أرِحْ بالك قدرَ المستطاع، يا سيد مالاليو، وبمجرَّد أن نعرف ما سيحدث يوم الثلاثاء المقبل، سننظر في خطتنا تلك.»

تذمَّر مالاليو قائلًا: «أخبِرني ما هي.»

قال كريستوفر، وهو ينهض ويأخذ القبعة الحريرية وزوجَي القفازات الجلدية السوداء: «إنها لم تكتمل بعدُ يا سيدي.» وأردف: «ولكن عندما تكتمل، ستقول ... إممم، ستقول إنها خطة ممتازة، وإنها الأفضل على الإطلاق!»

لذا كان على مالاليو أن ينتظر حتى يوم الثلاثاء القادم. انتظر بنفادِ صبر وقلق. أكَل وشرب ونام — نام كما لم ينَمْ قط في حياته — ولكنه كان يعلم أنه يفقدُ من وزنه جرَّاءَ التوتر. نظر بقلق حقيقي إلى كريستوفر عند عودته من الدعوى المؤجلة بعد ظُهر يوم الثلاثاء. ارتسمت خيبة الأمل على وجهه عندما رأى كريستوفر عابسًا أكثر من أي وقتٍ مضى.

همس كريستوفر بغموضٍ بعدما أغلق الباب: «ازدادت المسألة سوءًا يا سيد مالاليو!» وتابع قائلًا: «كل شيء ضدك، يا سيدي. كل الشهادات تتركَّز وتُثَبَّت عليك. ما الذي تظن أنه قد حدث؟ لقد أطلَقوا سراح كوذرستون!»

صاح مالاليو، وهو يثِبُ من مقعده: «ماذا؟!» وقال: «أُطلِق سراحُه! عجبًا، إذن، كانوا سيُطلقون سراحي!»

وضع كريستوفر إصبعه على جانب أنفه.

قال، بغمزةِ رجل عليمٍ ببواطن الأمور: «أكانوا سيفعلون ذلك؟» وأردف: «ما كانوا سيفعلون ذلك. لقد أطلقوا سراح كوذرستون، كي يشهدَ ضدك. عندما يقبضون عليك!»

بدأت عينا مالاليو الصغيرتان تجحظان، وظهر تورُّدٌ باهت على خدَّيه. بدا كما لو كان سينفجر بكلامٍ عجز عن قوله، فسارعَ كريستوفر بِيت إلى تحسين الوضع.

وقال: «من رأيي أن كلَّ هذا تلفيق!» وأضاف: «إنها مؤامرة، إن صحَّ التعبير، بين كوذرستون والسلطات. كوذرستون لديه أذكى محامٍ في نوركاستر والمحامي الأبرعُ في هذه الدائرة؛ إنك تعرفهما يا سيد مالاليو، إنهما ستيلبي وجرادستون، ويبدو لي أنها مؤامرة مدبَّرة. هل تدرك ما يفعلونه؟ أولًا: يُقدم كوذرستون شهادةً في ذلك التحقيق؛ وبعدها بناءً على شهادته يصدر حكمٌ بالقتل بحقِّك! والآن أطلق قضاة التحقيق سراح كوذرستون، ولن تُقدَّم أي شهادات أخرى بحقه. لماذا؟ حتى يتمكَّن من أن يشهدَ أمام قضاة التحقيق وأمام محكمة الجنايات ضدك ... أنت! أي عندما يُلقون القبض عليك.»

زمجر مالاليو: «عليهم أن يقبضوا عليَّ أولًا.» وتابع: «والآن، ماذا عن خُطتك هذه؟ لأنني لن أنتظرَ أكثر من ذلك. إما أن تُخبرني بما ستفعله من أجلي، أو سأخرج من هذا الباب بمجرد أن يحلَّ الظلام الليلةَ وأخاطر. هل تسمع ذلك؟»

نهض كريستوفر وفتح الباب، ونادى الآنسة بِيت بهدوء. أتت الآنسة بِيت وجلسَت، وعقدَت ذراعَيها النحيفتَين، ونظرَت باهتمامٍ إلى ابن أخيها الحذق.

تابع كريستوفر المحادَثة، قائلًا: «أجل يا سيدي، لقد سمعت ذلك، ونحن الآن جاهزون لشرح الخُطة ومناقشة الشروط. بالطبع ستُكافئنا يا سيد مالاليو، أليس كذلك؟»

أجاب مالاليو بسرعة: «لقد قلت طَوال الوقت إنكما لن تخسَرا معي أبدًا.» وتابع: «سأدفع أيَّ شيء في حدود المعقول. ولكن ... ماذا عن خُطتك هذه؟ قبل أن نتطرَّق إلى أي مسألة تتعلق بالمال، لا بد أن أعرفَها. لذا أفصح!»

أجاب كريستوفر: «حسنًا، إنها خُطة ممتازة.» وتابع: «تقول إنك ستكون في أمانٍ إن وصلتَ إلى منطقة معينة من نوركاستر، بالقرب من الميناء. سيتماشى هذا مع خُطتنا بالضبط. تعرف، بالطبع، يا سيد مالاليو أن عمَّتي على وشك نقل أثاثها وممتلكاتها، التي ورثتها عن السيد كايتلي الراحل، من هذا المنزل؟ حسنًا، ستَجري عملية النقل غدًا. لقد رتَّبت بالفعل مع السيد ستروسون، ناقل الأثاث، أن يُرسل شاحنتَين صباح الغد، مبكرًا جدًّا. سيوضع الأثاث في هاتين الشاحنتين، وستنقله الشاحنتان إلى نوركاستر حيث سيُنقَل بعد ذلك إلى لندن عن طريق البحر. ستُغادر من هنا، يا سيد مالاليو في إحدى هاتين الشاحنتَين!»

أنصتَ مالاليو، وفكَّر، وبدأ يرى الاحتمالات.

قال، بنظرةٍ ماكرة: «أجل!» وتابع: «أجل! ليسَت فكرةً سيئة. أستطيع أن أرى غايتي تتحقَّق بهذه الطريقة. ولكن، كيف سأركبُ شاحنةً من هنا، وأغادرها هناك، دون أن يعرف عمَّال الشاحنة؟»

أجاب كريستوفر: «لقد فكَّرتُ في كل شيء.» وأردف: «يجبُ أن تبقى مرتاحًا في هذه الغرفة حتى بعد الظهر. ستُغادر الشاحنة الأولى في الصباح، لنقل بحلول الظهيرة. سأتدبَّر أمر ألَّا تكون الشاحنة الثانية جاهزة للمُغادرة إلا بعد حلول الظلام. عندما تُصبِح جاهزة، سيذهب الرجال لإحضار خيولهم؛ سأُعطيهم بعض المال كي يحتسُوا شرابًا قبل أن يعودوا، وذلك سيُؤخِّرهم مدةً أطولَ قليلًا. وأثناء غيابهم، سنُهرِّبك خِلسةً إلى الشاحنة، وسأذهب مع تلك الشاحنة إلى نوركاستر. وعندما نَصل إلى الحظيرة في نوركاستر، حيث تُترَك الشاحنات، سيُغادر الرجلان مع خيولهما، وسأُخرِجك من الشاحنة. إنها خُطة جيدة، يا سيِّد مالاليو.»

وافق مالاليو، الذي شعر بارتياح شديد، قائلًا: «ستفي بالغرض، على أي حال.» وتابع قائلًا: «سنُجربها. ولكن لا بد أن تتوخى كلَّ عناية مُمكنة حتى أكون داخلَ الشاحنة ونُغادر. أي هفوة ولو صغيرة ...»

علَّق السيد بِيت بغِلظة قائلًا إنه إن حدثَت أي هفوات، فلن تكون من صنيعه، وبعد ذلك سعَل هو وعمَّته عدة مرات، ونظرا إلى ضيفهما الأسير بطريقةٍ بدا منها أنهما يدعُوانه إلى الكلام.

قال مالاليو: «حسنًا إذن.» وتابع يسأل: «تقول غدًا، أليس كذلك؟ حسنًا، حسنًا!»

سعلَت الآنسة بِيت مجددًا وبدأت تَصنع ثنَياتٍ في مِئزرها.

قالت، مُخاطبةً ابنَ أخيها كما لو لم يكن يوجد شخص آخر: «بالطبع يا كريستوفر، بالطبع لم يَذكر السيد مالاليو شروطه بعد.»

أجاب كريستوفر، بعد أن أفاقَ من الاستغراق في تفكير حالم: «أوه! أجل! صحيح!» واستطرد: «أجل، بالتأكيد. ما قولُك يا سيد مالاليو؟ كم ما أنت مُستعدٌّ أن تَدفعه، يا سيدي؟»

نقل مالاليو نظرَه بثباتٍ بين الآنسة بِيت وكريستوفر. ثم أصبح وجهُه قاسيًا وجامدًا.

وقال: «خمسون جنيهًا للفرد!» وأضاف: «هذا هو ما أنا مُستعدٌّ لدفعه. لن تحصلا على عرضٍ كهذا كلَّ يوم، أعرف ذلك. خمسون جنيهًا للفرد!»

أمالت الآنسة بِيت رأسها المعمَّمة باتجاه كتفها الأيمن وتنهَّدَت بشدة، بينما طوى السيد بِيت يدَيه ونظر إلى السقف وأطلق صفيرًا.

وغمغم قائلًا: «لا نَحصُل على عرضٍ كهذا كل يوم!» وتابع: «أجل! لا أظن أننا حصلنا على عرضٍ كهذا! خمسون جنيهًا للفرد! — أي مائة جنيه إجمالًا — لإنقاذ إنسانٍ من المشنَقة! أوه، بربك يا سيد مالاليو!»

زمجر مالاليو غاضبًا: «اللعنة! كم مِن المال تظنُّ أنه يُمكن أن أحملَ معي؟ أنا! في وضعي المؤسفِ هذا!» وأضاف: «أتظن ...»

أشارت الآنسة بِيت، وهي تَنهض وتتَّجه نحو الباب: «كريستوفر، أقترح أن نترك السيد مالاليو ليتدبَّر الأمور. لعله عندما يُفكر قليلًا ...»

خرجَت هي وابن أخيها، وتركا مالاليو غاضبًا ومُتذمرًا. وبمجرَّد دخولهما غرفة المعيشة، التفتَت إلى كريستوفر وهي تهزُّ رأسها.

وقالت: «ألم أقل لك؟» واستطردت: «إنه حقيرٌ بخيل! خُطتي أفضلُ بكثير. سنَفعلها بنفسينا، وبعد ذلك يمكننا أن نسحقَه. سأعطيه جرعة إضافية من الشراب المنوم الليلة، ثم ...»

ولكن قبل انقضاء تلك الأمسية، تغيَّرت أفكار مالاليو. قد أمضى وقتَ ما بعد الظهر في التفكير. كان يعلم أنه كان في قبضة شخصَين قد يسلخانه إن استطاعا. وكلما فكَّر أكثر، ازداد تشكُّكًا، وفجأةً تساءل عن سبب نومه العميق في الليل، وفجأةً أدرك السبب. كان مخدَّرًا! تلك الشيطانة العجوز كانت تضع مخدرًا في شرابه. كان هذا هو السبب، بالطبع، ولكن هذه كانت آخرَ مرة، ولن تفعلَها مرةً أخرى.

في تلك الليلة عندما أحضرَت الآنسة بِيت الشراب الكحولي الساخن الممزوج وفقًا لوصفة كايتلي الراحل، أخذه مالاليو منها عند باب غرفته، قائلًا إنه كان يستعدُّ للنوم، وإنه سيشربه وهو في السرير. وبعد ذلك سكبه بعنايةٍ في إناءٍ للزهور كان يُزين غرفته، وعندما خلد إلى فراشه كان مستيقظًا تمامًا ورقد يُراقب ويُنصِت لما حوله ومسدسُه جاهز في متناول يده اليمنى.

الفصل السابع والعشرون

السيد رايثويت سليل عائلة راي

لو كان عمدة هاي ماركت يعلم ما خَفيَ عنه، وهو يَرقد هناك مكتئبًا متشككًا، ما كان يجري بالقرب منه في تلك اللحظة ذاتِها، وما حدث في الجوار مباشرةً خلال وقتٍ ما بعد الظهيرة والمساء، لكان قد اتخذ بعض الإجراءات التي كان من شأنها منعُ ما كان سيَحدث قريبًا. ولكنه لم يكن يعلم أي شيء باستثناء أنه كان غاضبًا ومفعَمًا بالشكوك، ويَلعن كل شيء وكل شخص تسبَّب في هذا التحول الكارثي في أقداره، وكان مفعمًا بدرجة استثنائية برغبةٍ في الانتقام تجاه الرجل والمرأة بالغُرفة المجاورة، اللذَين، كما كان متأكدًا، كانا يُحاولان استغلال قلة حيلته الحاليَّة. وفي غضون ذلك، وعلى مسافة غير بعيدة، كانت الأحداث تتوالى، وقد استمرت طَوال ذلك اليوم منذ الظهر.

بعدما غادر بريريتون مبنى بلدية هاي ماركت بعد إطلاق سراح كوذرستون بطريقة درامية، بادر شابٌّ بادي الذكاء بالحديث معه فجأةً، ومن أول وهلة، أدرك بريريتون أن له علاقةً بالسلك القانوني بطريقةٍ ما.

سأل الغريب بريريتون قائلًا: «السيد جيفورد بريريتون؟» وأضاف: «لديَّ رسالةٌ لك يا سيدي.»

أخذ بريريتون الرسالة ووقف في زاوية هادئة؛ فتبعه الشابُّ ووقف بالقرب منه. وما أدهش بريريتون، أنه وجد أنه ينظر إلى رسالةٍ مكتوبة بخطٍّ يدِ محامٍ من لندن خَصَّه مرتين أو ثلاث مرات برسائلَ موجزة. ألقى نظرةً سريعة على محتويات الرسالة، التي كانت كالآتي:

«فندق دوكس هيد»
نوركاستر.
«عزيزي السيد بريريتون

لقد وصلتُ لتوِّي إلى هذا المكان في عملٍ يَرتبط ارتباطًا وثيقًا بما أنت بصدده. سأكون ممتنًّا جدًّا إن أتيت إليَّ على الفور، وأحضرتَ معك ابنة عميلك هاربورو؛ فمن المهمِّ أن تكون بصُحبتك. سيكون مع حامل الرسالة سيارةٌ مجهَّزة لك.

المخلص،
إتش سي كارفاكس.»

وضع بريريتون الرسالة في جيبه والتفت إلى المرسال.

وعلَّق قائلًا: «السيد كارفاكس يرغب في أن أعود معك إلى نوركاستر.» وأردف: «لقد ذكر وجود عربة.»

أجاب المرسال: «إنها هنا يا سيد بريريتون، عند الزاوية، إنها سيارةٌ جيدة، ستوصلنا إلى وجهتنا في غضون عِشرين دقيقة.»

قال بريريتون: «ثَمة زيارةٌ يجب إجراؤها أولًا.» ذهب نحو الزاوية مع مُرافقه وتعرف على السائق الذي كان ينتظر هناك؛ فقد كان قد أوصله مرةً أو اثنتَين من نوركاستر مؤخرًا. قال: «أوه! أظن أنك تعرف أين تعيش السيدة نورثروب في هذه البلدة ... بالقرب من سفح تلَّة شول، أليس كذلك؟ إنك تعرف المكان، صحيح؟ خُذنا إلى هناك إذن. هل أنت أحدُ موظَّفي السيد كارفاكس؟» هكذا سأل عندما ركب هو والمرسال السيارة. وتابع قائلًا: «هل أتيت معه من لندن؟»

أجاب المرسال قائلًا: «لا يا سيدي، أنا كاتبٌ في مكتب «ويلربي وهارجريفز» في نوركاستر.» وأضاف: ««كارفاكس وسبيلينجتون»، وُكلاؤنا في لندن. لقد أتى السيد كارفاكس وبعضُ السادة الآخرين من البلدة باكرًا هذا الصباح، وقد كلفَني السيد كارفاكس بإحضار هذه الرسالة إليك.»

سأله بريريتون، الذي كان بالفعل يشعر بفضولٍ يصل إلى حدِّ اللهفة: «ألا تعرف ما الذي يريد أن يراني بشأنه؟»

أجاب الموظف بابتسامة: «في الواقع، يا سيدي، لديَّ فكرة جيدة جدًّا عن الأمر، ولكني أظنُّ أن السيد كارفاكس سيُفضل أن يُخبرك بكل شيء بنفسه. عمَّا قريبٍ سنصل إلى هناك، يا سيد بريريتون، إن لم تؤخِّرنا السيدة الشابة.»

هُرِع بريريتون إلى منزل نورثروب وخرَج ومعه أفيس بعد القليل من الرسميات.

قال، وهو يقودها إلى السيارة: «هذا، بالطبع، له علاقةٌ بقضية والدِك.» وأردف قائلًا: «قد يكون كذلك، ولكن لن نستبقَ الأحداث! كل ما أنا متأكدٌ منه هو أن الأوضاع ستُصحح نفسها. والآن!» هكذا نادى على السائق وهما ينضمَّان إلى الموظف. وتابع: «خُذنا إلى نوركاستر بأسرعِ ما يمكنك.»

في غضون نصف الساعة توقفَت السيارة عند البوابة العتيقةِ الطراز لفندق «دوكس هيد» في سوق نوركاستر، وعلى الفور قاد الموظَّف مُرافقيه إلى داخل الفندق وصعدوا إلى غرفة جلوسٍ خاصة، طرَقَ بابها. سُمِعَ صوت يأمره بالدخول؛ ففتح الباب على مِصراعَيه وقدَّم الزائرَين.

قال: «الآنسة هاربورو والسيد بريريتون، وهذا هو السيد كارفاكس.»

نظر بريريتون بتفحُّص إلى الرجال الذين وقَفوا في الغرفة، وكان جَليًّا أنهم كانوا يتوقَّعون وصوله هو وأفيس. كان كارفاكس رجلًا قصيرًا في منتصَف العمر، ذا أسلوب نشط وصاخب، لقد كان يعرفه بالطبع: أما الآخَرون فكانوا غرباء. قرَّر بريريتون على الفور أن اثنَين منهم محقِّقان، فقد كانت كلُّ سِمات وعلامات المهنة واضحةً عليهما. وقفا عند إحدى النوافذ، يتَهامسان، ولم يُعِرهم بريريتون سوى نظرةٍ سريعة. ولكنه نظَر طويلًا ومليًّا إلى الرجل الرابع الذي وقف عند الموقد. وتحوَّلَت أفكاره على الفور إلى الليلة التي زار فيها هو وأفيس العجوزَ التي كانت تعيش في منزلٍ منعزل على الأرض السبخة وإلى ما قالته عن رجل طويل التقى بهاربورو في حضورها؛ رجل ملتحٍ طويل القامة. وذلك لأن الرجل الذي كان يقف أمامه، ناظرًا إلى أفيس بابتسامةٍ شَغوفةٍ وحزينة نوعًا ما، كان رجلًا مُلتحيًا طويلَ القامة، تجاوز مُنتصفَ العمر، وبدا كما لو أنه رأى الكثير من الأماكن البعيدة من العالم.

اندفع كارفاكس إلى الأمام، وصافح بريريتون، والتفت إلى أفيس بينما كان بريريتون يُجري تفحصه السريع للحضور.

قال، وهو يجذب كرسيًّا إلى الأمام: «ها أنت ذا يا بريريتون، وهذه السيدة الشابة هي الآنسة هاربورو، على ما أظن، أليس كذلك؟» وتابع: «سعيدٌ بقُدومكما، أظن أنكما

تتساءلان عن سبب إرسالي في طلبكما، أليس كذلك؟ حسنًا، ستعرفان كلَّ شيء في حينه، ولكن أولًا، أقدِّم لكما السيد جون رايثويت.»

اندفع الرجل الضخم إلى الأمام، وصافح بريريتون على عجل، والتفت إلى أفيس بروية.

وقال: «يا سيدتي الشابة العزيزة! أنا ... أنا، في الواقع، أنا صديقٌ قديم لوالدكِ، و... وفي القريب العاجل سيكون على ما يُرام ... وسيكون كلُّ شيء على ما يُرام فيما يخصُّ المسألة تلك! إنك لا تَعرفينني بالطبع.»

نظرَت أفيس إلى الرجل الضخم ذي اللحية ثم إلى بريريتون.

وقالت: «لا!» وأضافت: «ولكن ... أظن أنك مَن أرسل تلك الأموال إلى السيد بريريتون.»

صاح كارفاكس قائلًا: «آه! أنتِ تتوقَّعين، يا سيدتي الشابة!» وأردف: «أجل ... ثَمة الكثير مما ينبغي أن نتحدث بشأنه. ومن الأفضل أن نجلس جميعًا ونفعلَ هذا على راحتنا. لحظة واحدة»، هكذا تابع، وتحوَّل إلى الرجلين الواقفَين عند النافذة، اللذين غادَرا الغرفة بعدما تبادلا معه بضعَ كلمات. وأردف قائلًا، وهم يتَّخذون مقاعدهم حول طاولةٍ بالقرب من المدفأة: «والآن، لنبدأ إتمامَ أول جزءٍ من العمل، يا بريريتون!» وأضاف: «إنك، بالطبع، لا تعرف هذا السيد المحترم، أليس كذلك؟»

أجاب بريريتون: «لا أعرفه على الإطلاق.»

تابع كارفاكس، وهو يَفركُ يدَيه وكأنه يستمتع بهذا الوضع: «جيد جدًّا.» ثم أردف: «إذن تحتاج إلى سَماع بعض الحقائق الشيِّقة عنه. بادئ بَدْء، هذا هو الرجل الذي سيُثبت حُجة غياب موكلك، والد هذه السيدة الشابة، عندما يَمثُل أمام جلسة محكمة الجنايات القادمة. بعبارة أخرى، إنه الرجل الذي كان هاربورو بصُحبته أثناءَ المساء وجُلَّ الليلة التي قُتل فيها كايتلي.»

قال بريريتون: «هذا ما ظننتُه.» ونظر بتأملٍ إلى السيد رايثويت. ثم سأله: «ولكن لماذا لم تتقدَّم للشهادة على الفور؟»

صاح كارفاكس سريعًا: «إنها نصيحتي ... إنها نصيحتي!» واستطرد: «سأشرح الأسباب. لن تفهم يا سيد بريريتون، ولكن الآنسة هاربورو، على ما أظن، ستَعرف ما أعنيه، أو سيكون لديها فكرةٌ ما، عندما أقول إن هذا الرجل النبيل هو — وانتبِه جيدًا! — هو السيد رايثويت سليلُ عائلة راي.»

رفعَت أفيس ناظِرَيها سريعًا بفَهمٍ واضح، بينما أومأ المحامي برأسه.

تابع، ملتفتًا إلى بريريتون: «أترى ... إنها تعلم.» وقال: «على الأقل، ذلك يُنبئها بشيءٍ ما. ولكنه لا ينبئك بشيء. حسنًا يا سيدي العزيز، لو كنتَ من سكان هذه الأنحاء لفهمت. راي واحدةٌ من أقدم وأعرقِ الضَّيعات التاريخية الواقعة بين نوركاستر ونهر تويد؛ الجميع يعرف ضيعة راي. والجميع يعرف أيضًا أنه كان يوجد قدرٌ كبير من الشاعرية حول راي في بعض الأوقات ... منذ وفاة آخر فردٍ في عائلة رايثويت. كان معروفًا أن رايثويت هذا كان أعزبَ عجوزًا. عاش عمرًا مديدًا؛ عَمَّر أكثرَ من كلِّ إخوته وأخَواته، وقد كان لديه الكثيرُ منهم. ترك رهطًا من أبناء إخوته وبناتِهم، الذين كانوا يعيشون في أماكنَ متفرقة في جميع أنحاء العالم. وغنيٌّ عن القول، إنه كان يوجد الكثير من المتاعب والعناء. وأخيرًا، طالبَ أحدُ أبناء إخوته بحقِّه في الضيعة، باعتباره الوريثَ المعروف الأكبرَ سنًّا. وكان حتى وقتٍ قريب في وضعٍ جيد لإثبات مُطالبته، حتى ظهر موكلي في المشهد. وذلك لأنه القريبُ الأكبر، فهو الوريث الشرعي، وأنا ممتنٌّ لأن أقولَ إنه خلال هذا اليوم أو اليومين الأخيرَين فقط، اعتُرِف بمطالبته وتأكدَت أحقيتها، وكل ذلك دون اللجوء إلى التقاضي. كل شيء»، تابع كارفاكس وهو يفرك يدَيه مرة أخرى برضًا كبير: «كل شيء على ما يُرام الآن، والسيد رايثويت سليلُ عائلة راي سيأخذ مكانته المناسبة والشرعية وسط قومه.»

قال بريريتون وهو يبتسم للرجل الضخم، الذي استمرَّ في مراقبة أفيس كما لو كانت أفكارُه منصبَّةً عليها، وليس على القصة التي يسردها مُحاميه: «أنا سعيدٌ للغاية لسماع ذلك.» واستطرد: «ولكنك ستتفهَّم أنني أرغب في معرفة كيف يؤثر كلُّ هذا على موكلي؟»

قال السيد رايثويت سريعًا: «أجل!» وتابع: «أخبر السيد بريريتون، يا كارفاكس؛ دعك مني ومن شئوني؛ ادخل في مسألة هاربورو المسكين.»

ردَّ كارفاكس بلُطف: «مسألتك ومسألة هاربورو متداخلتان تداخلًا لا انفصامَ له، يا سيدي العزيز.» تابع مخاطبًا بريريتون مرةً أخرى: «أنا على وشك أن أتناول نقطةَ تَلاقيهما. حسنًا.» واستطرد: «هذا ما عليه الأمور، أو هكذا كانت. يجب أن أخبرك أن الأخ الأكبر لإسكوايَر ضيعة راي الراحل تزوج سرًّا من عمة جون هاربورو. لم يكن قد مرَّ على زاوجهما مدةٌ طويلة قبل هِجرة الزوج. سافر إلى أستراليا تاركًا زوجتَه حتى كَوَّن نفسه؛ فقد كانت توجد خلافات بينه وبين عائلته، وكان يُعاني من ضائقةٍ مالية. وفي غيابه، وُلِدَ صديقنا هذا، وفي الوقت نفسِه، للأسف الشديد، ماتت والدتُه. رَبَّت والدة هاربورو الطفل؛ فالسيد رايثويت وهاربورو أخَوان في الرضاعة. وظل الطفلُ في رعاية والدة هاربورو، التي حفظت سرَّ الزواج، حتى صار عمره سبع سنوات. ثم، عندما أتت الفرصة، أخذ إلى

والده إلى استراليا. جمع الأب، ماثيو رايثويت، ثروةً كبيرةً في أستراليا، من تربية الأغنام. لم يتزوَّج مرةً أخرى، وآلت الثروة، بالطبع، عند وفاته لابنه الوحيد، صديقنا السيد رايثويت. كان قد عَلِم بالزواج السري لوالده، ولكن نظرًا إلى امتلاكه هو نفسِه ثروةً كبيرة، لم يهتمَّ كثيرًا بشأن بقية أفراد العائلة القديمة. ومع ذلك، قبل عامٍ أو نحوِ ذلك، تصادَف أنه قرأ في الصحف عن وفاة الإسكواير العجوز، عمه، وعن صعوبة تحديد الوريث الحقيقي، فجاء إلى إنجلترا. ولكنه لم يكن لديه أوراقٌ تُثبت زواج والده، ولم يكن يعرف أين عُقِدَ الزواج. في ذلك الوقت، لم يكن قد استشارني بعد؛ وفي الواقع، لم يكن قد استشار أحدًا. لو أنه كان قد استشارني»، تابع كارفاكس بغمزةٍ ماكرة موجهة إلى بريريتون، «كنا سنَضعُه على المسار الصحيح في غضون ساعات قليلة. ولكنه تجنب المحامين، وسعى إلى البحث عن الشخص الوحيد الذي أمكنه أن يتذكَّره؛ شقيقه في الرضاعة، هاربورو. وبناءً على نصيحة هاربورو، التقَيا سرًّا. لم يكن هاربورو يعرف المكان الذي عُقِد فيه ذلك الزواج، فكان عليه الاستفسار في جميع أنحاء هذه المقاطعة، والبحث في السجلَّات. وبين الحين والآخر، كان موكلي — الذي لم يكن موكلي وقتها، بالطبع — يأتي لرؤية هاربورو؛ وعندما كان يفعل ذلك، كانا يلتقيان في أماكن منعزلة. وفي الليلة التي قُتِل فيها ذلك الرجل كايتلي»، اختتم المحامي: «كان هاربورو مع موكلي من الساعة التاسعة مساءً حتى الرابعة والنصف صباحًا، وافترقا بالقرب من محطة سكة حديد هكسنديل. السيد رايثويت سوف يُقسم على ذلك.»

عَلَّق بريريتون، وهو ينظر إلى أفيس قائلًا: «ولحسنِ الحظ، لدينا شهادةٌ أخرى مُدَعِّمة؛ لأنه سواءٌ أكان السيد رايثويت يعرف ذلك أم لا، فهنالك مَن رأى لقاءه مع هاربورو في الأراضي السَّبخة في تلك الليلة تحديدًا.»

صاح كارفاكس قائلًا: «عظيم! عظيم!» وسأله: «مِن شاهدٍ موثوق وحسَن السمعة؟»

أجاب بريريتون: «عجوز ذات شخصية غير عادية، عدا أنها تنخرطُ في القليل من الصيد الليلي الجائر بين الحين والآخر.»

قال كارفاكس: «آه، حسنًا، لا يَلزم أن نقولَ ذلك عندما تَمثُل على منصَّة الشهود.» وأضاف: «ولكن ذلك مقنعٌ للغاية. سيدتي الشابة!» أضاف، مُلتفتًا إلى أفيس: «سيُطلَق سراح والدكِ في ... في الساعة الواحدة! وبعد ذلك، أظن»، هكذا تابع بصخبٍ مُلتفتًا إلى إسكواير ضيعة راي الجديد، «ثم يا عزيزتي، أظن أن السيد رايثويت ...»

قاطعه السيد رايثويت وهو يُومئ لأفيس: «دَع ذلك لي يا كارفاكس.» وأردف: «سأخبر هذه الشابة كلَّ شيء عن ذلك بنفسي. الآن؛ في تلك الأثناء ...»

أجاب كارفاكس: «آه، بالضبط!» وتابع: «الآن؛ في تلك الأثناء، لا بدَّ أن نتطرَّق لمسألةٍ ليست مُشوقةً أو سارَّةً كثيرًا، ولكن من المهم للغاية أن نُخبر بها السيد بريريتون. بريريتون، كيف تَسير الأمور؟ هل يوجد أيُّ جديد فيما يخصُّ جريمة قتل كايتلي؟ تقول إنه لا يوجد حقًّا أي شيء مؤكَّد وقاطع؟ حسنًا يا سيدي العزيز، إذن اسمح لي أن أُطلِعك على ما هو جديدٌ بشأنها!»

بعدما قال هذا، نهض كارفاكس من كرسيِّه، وغادر الغرفة، ثم عاد في غضون دقيقةٍ وهو يُرافق المحقِّقين وقد علَت وجهَه أماراتُ الجدِّية.

الفصل الثامن والعشرون

صفحات من الماضي

قبل أن يتمكَّنَ المحامي ورفيقاه من الجلوس على الطاولة حيث كان الأخير قد قدَّم تفسيره الأوَّلي، نهض السيد رايثويت وأشار إلى أفيس أن تتبعَه.

وقال: «كارفاكس، لا حاجة بي إلى سماع إلى كلِّ ما عليك قولُه للسيد بريريتون؛ فأنا أعرفه بالفعل. ولا أظن أنه سيُثير اهتمام الآنسة هاربورو كثيرًا في الوقت الحاليِّ، فهي ستَسمع الكثيرَ عنه لاحقًا. سنَترُكُك أنا وهي لتُقدم تفسيراتك وترتيباتك للسيد بريريتون، وسننضمُّ إليكم لاحقًا.»

تقدَّم الطريق إلى الباب، وأشار إلى أفيس أن تُرافقه. ولكن أفيس توقفَت والتفتَت إلى بريريتون.

وقالت: «هل أنت متأكِّد من أن كل شيء على ما يُرام الآن فيما يتعلَّق بوالدي؟» واستطردت: «هل أنت متأكِّد؟ إذا كنت كذلك ...»

أجاب بريريتون، الذي عرَف ما يعنيه سؤالُها: «أجل، بالتأكيد.» وأردف: «وسنُعلِمه بذلك».

صاح كارفاكس: «إنه يعلم!» وأضاف: «إنه يعلم أن السيد رايثويت هنا، وأن كل شيء على ما يُرام. اذهبي يا عزيزتي وابتهجي، سيُخبركِ السيد رايثويت كلَّ ما تُريدين معرفته. والآن يا سيدي العزيز»، هكذا تابع، وهو يُغلق الباب خلف السيد رايثويت وأفيس، ويعود إلى الطاولة بسرعة، «ثمة أشياءُ يلزم أن تعرفها، وستعرفها ... مني ومن هذين السيدَين. أقدم لك السيد ستوب والسيد ليكين. كلاهما كان محقِّقًا سابقًا في سكوتلاند يارد، ويعملان الآن محققَين خاصَّيْن. إنهما ذكيَّان، وأنا أقول هذا أمامهما مباشرةً.»

قال بريريتون: «أفهم من ذلك أنكم كنتم تُجْرون بعض التحقيقات الخاصة؟ فيما يخصُّ أي مسألة؟»

أجاب كارفاكس، وهو يَجلس على رأس الطاولة ويضمُّ أصابعه معًا بطريقة القضاة: «دعونا نشرَع في الأمر بالترتيب.» وتابع: «سأفتتحُ القضية. عندما سمع رايثويت — وهو رجل مُحترم، وأقول لك فيما بيننا، إنه سيفعل أشياءَ عظيمةً لهاربورو وابنته — عندما سمع رايثويت، كما قلت، بما حدث هنا، كان بالطبع مُنزعجًا للغاية. كانت رِدَّة فِعله الأولى هي أن يُهرَع إلى هاي ماركت في الحال ويُفصح عن كل شيء. ومع ذلك، بدلًا من أن يفعل ذلك، أتاني، وهو تصرفٌ حكيم جدًّا. وبعدما سمعت كلَّ ما قاله، نصحته، بما أنه كان من المؤكَّد تمامًا أنه لا يمكن أن يُلحق أيَّ ضرر بهاربورو في نهاية المطاف، أن يترك الأمور تهدأ في الوقت الحالي، حتى نُتمم الإجراءات الأخيرة التي تخصُّ مسألة ميراثه. ومع ذلك، أصرَّ على إرسال هذه الأموال إليك، وقد فعل؛ فلم يكن أي شيء آخر ليُرضِيَه. ولكن الآن ظهر على السطح جانبٌ مثير للاهتمام للغاية في المسألة برُمَّتها، وهو ما ظلَّ حتى الآن سرًّا بيني وبين رايثويت والسيد ستوب والسيد ليكين. أدعوكم الآن إلى الانتباه لما سأقوله بشأنه.»

وهنا، أخرج السيد كارفاكس دفتر مذكرات من جيبه، وبعد أن وضع نظَّارته، ألقى نظرةً سريعة على صفحة أو اثنتَين فيه.

ثم تابع قائلًا: «لاهتمام رايثويت الشديد بقضية كايتلي؛ كان يشتري الصحف المحلية، صحف نوركاستر وهاي ماركت كما تعلمون، حتى يقرأ كلَّ شيء عن القضية. وقد نُشِرَ في تلك الصحف تقريرٌ كامل عن الإجراءات الأولى التي تمَّت أمام قُضاة التحقيق، وقد صُدم رايثويت كثيرًا من تحقيقك مع الآنسة بِيت. في الواقع، صُدم كثيرًا من أسئلتك وإجاباتها لدرجة أنه أحضر هذه الصحف إليَّ، وقرأناها معًا. وعلى الرغم من أننا كنا نعلم جيدًا أنه لا يَنبغي لنا في نهاية الأمر أن نُواجه أيَّ صعوبة تُذكَر في إثبات حُجة غياب هاربورو، قرَّرنا أننا، لمصلحته، سنُجري بعض التحقيقات المتَّسمة بالحذَر والدقيقة في الوقت نفسِه حول سوابق الآنسة بِيت.»

جفل بريريتون. الآنسة بِيت! آه! كانت لديه أفكارٌ تتعلَّق بالآنسة بِيت في بداية القضية، ولكنَّ أمورًا أخرى ظهرَت، وتحركت القضية وتطورَت بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنه كان تقريبًا قد نسيها.

تابع كارفاكس، مُبتسِمًا: «لقد دفعك ذلك إلى التفكير.» وأردف: «بالضبط! وما حدث في جلسة قُضاة التحقيق دفعَني أنا ورايثويت للتفكير. وكما قلت، فقد استعنَّا بستوب وليكين، وهما رجلان يتمتَّعان بخبرة كبيرة، من أجل ... فقط لمعرفة القليل عن الآنسة بِيت.

وبالطبع فقد أعطتنا الآنسة بِيت نفسُها خيطًا نتتبَّعه. لقد أخبرتك ببعض التفاصيل عن حياتها المهنية. فقد كانت مدبِّرة منزلٍ لدى الميجور ستيلمان في قندهار كوتيدج، ببلدة ووكينج. وكانت قد شغلت وظائفَ في فندقَين بلندن. لذا، ذهب ستوب إلى ووكينج، وكَرَّس ليكين جهدَه على الجزء الخاصِّ بلندن.»

اختتم المحامي حديثَه، ملتفِتًا إلى أحد المحققَين وقال: «وأظنُّ يا ستوب، أظن أنه من الأفضل أن تُخبر السيد بريريتون بما اكتشفتَه في ووكينج، وبعد ذلك يمكن أن يُخبرنا ليكين بما اكتشفه في أماكن أخرى.»

التفت ستوب، وهو رجلٌ ضخم ذو وجهٍ مبتهج، بدا كأنه موظفٌ حكومي محترم للغاية، إلى بريريتون بابتسامة.

وقال: «لقد كانت مُهمةً سهلة للغاية يا سيدي.» وتابع: «لقد اكتشفتُ كل شيء عن السيدة وعلاقتها ببلدة ووكينج في غضون ساعات قليلة جدًّا. يوجد الكثير من الناس في ووكينج الذين يتذكَّرُون الآنسة بِيت؛ لقد أعطتك بطريقة صحيحة جدًّا الحقائقَ المجرَّدة عن إقامتها هناك. ولكن، بطبيعة الحال، لم تُخبرك أكثرَ من هذه الحقائق المجرَّدة، القشور، إن جاز التعبير. وقد حصلتُ على كل المعلومات. كانت الآنسة بِيت مدبرةَ منزل في ووكينج لدى الميجور ستيلمان، وهو ضابطٌ متقاعِد من سلاح المشاة. طوال المدَّة التي قضَتها في خدمته، وقد كانت مدةً طويلة، كان مريضًا، وكان معروفًا أنه يُعاني معاناةً شديدة من نوع من أنواع الألم الحادِّ في الأعصاب. كان يَحصُل على أدوية للتخفيف من آلام هذا المرض من كل الصيادلة في المنطقة من وقتٍ لآخَر. وفي أحد الأيام، عُثِرَ على الميجور ستيلمان ميتًا في سريره، وبعض هذه الأدوية بجانب سريره. بالطبع أُجري تحقيقٌ، وبالطبع أيضًا، بناءً على أدلة الأطباء والصيادلة، تقرَّر أن موته كان وفاةً ناتجة عن حادث مؤسِف؛ جرعة زائدة من الأدوية. يبدو أنه لم يكن يوجد أيُّ اشتباه في الآنسة بِيت في ووكينج لم تكن مُشتبهًا فيها في ذلك الوقت؛ وفيما يتعلَّق بذلك»، هكذا اختتمَ السيد ستوب حديثه بفتور، «لا أعرف إن كان يوجد الآن.»

سأله بريريتون: «ألديك بعض الشكوك؟»

أجاب السيد ستوب، بغمزةٍ تكاد لا تُلْحَظ: «لقد تعمَّقت في البحث أكثر.» واستطرَد: «واكتشفتُ كيف كان الوضع عندما مات ستيلمان. لم يكن لديه شيءٌ سوى مَعاشه، ومبلغٍ يُقدَّر بنحو ألفَي جنيه. ترك ذلك المبلغ، وأثاث منزله، إلى الآنسة بِيت. وقد أُعِدَّت الوصية قبل نحو سنة من وفاة ستيلمان. أُثبتَ ذلك بأسرع ما يُمكن بعد وفاته، وبالطبع حصلَت الآنسة بِيت على إرثها. وباعت الأثاث ... وغادرت المنطقة.»

سأله بريريتون: «ما هي نظريتك؟»

أشار السيد ستوب برأسه عبر الطاولة إلى كارفاكس.

فأجاب: «ليس من شأني أن أقول ما هي نظرياتي يا سيد بريريتون.» وأردف: «كل ما كان يتعين عليَّ فعله أن أكتشف الحقائق وأبلغ بها السيد كارفاكس والسيد رايثويت.»

قال بريريتون بهدوء: «ومع ذلك، هل تعتقد أنه من الممكن جدًّا أن الآنسة بِيت — التي كانت تعلم أن ستيلمان يتناول هذه الجرعات القوية، ولديها دافع مادي — أعطته جرعةً أقوى؟ بربك، تكلم!»

ابتسم ستوب، ومَسَّد ذقنه ونظر إلى كارفاكس. وأشار كارفاكس إلى شريك ستوب، الذي كان رجلًا هادئًا للغاية وقويَّ الملاحظة، وكان يَستمع للحديث وعلى وجهه تعبير يشي بالدهاء.

قال كارفاكس: «دورك يا ليكين.» وتابع: «أخبِرنا بنتيجة تحرِّياتك.»

كان ليكين من أولئك الذين يَمتلكون صوتًا ناعمًا ويتحدَّثون ببُطء. وبعدما دُعِيَ للكلام، نظر إلى بريريتون كما لو كان يَعتذر نوعًا ما عن أي شيء سيقوله.

وقال: «حسنًا، بالطبع يا سيدي، ما أخبرتك به الآنسة بِيت عن الوظائف التي شغَلَتها في فندقَين بلندن كان صحيحًا تمامًا. لقد كانت أمينةَ مخزن في أحدهما، ورئيسةَ قسم المفروشات في الآخر، قبل أن تَنتقل إلى عملٍ لدى الميجور ستيلمان. لم يكن يوجد شيء بحقِّها في أيٍّ من تلك الأماكن. ولكنِّي بالتأكيد أردتُ أن أعرف أكثرَ من ذلك عنها. لقد قالت في إجابتها عن سؤالك إنها قبل أن تعمل في أول فندق كانت تعيش في البيت مع والدها، الذي كان مزارعًا في ساسكس. ولقد كانت بالفعل تعيش معه، ولكن قبل ذلك بوقت طويل. كانت قد أمضت عشر سنوات في الهند في المدَّة ما بين مغادرة منزل والدها والعملِ بفندق «رويال بيلفيدير». لقد سافرَت إلى الهند بصفتِها مُمرضةً في عائلة أحد الضباط. وأثناء وجودها في الهند، اتُّهِمَت بقتل خادمةٍ خنقًا، وهي فتاة أوراسية كانت قد أثارت غيرتها.»

عندئذٍ جفل بريريتون ثانيةً، وألقى نظرة حادةً على كارفاكس، الذي أشار برأسه مؤكدًا، ثم أشار إلى ليكين أن يُتابع حديثه.

تابع ليكين، بنعومةٍ وبطء أكثرَ من ذي قبل، قائلًا: «لديَّ تقريرٌ عن تلك القضية في جيبي.» وأضاف: «إنه يستحقُّ القراءة يا سيد بريريتون، ولعلَّك تتسلَّى بقراءته في وقتٍ ما. ولكن يُمكنني أن أقدِّم لك الخلاصة في كلماتٍ قليلة. من الواضح أن بِيت كانت تحبُّ

ممرِّضَ سيدِها. ولكنه لم يكن يحبُّها. فصارت تَغار بجنونٍ من هذه الفتاة الأوراسية، التي كانت ممرضةً تحت التمرين. عُثِرَ على الفتاة الأوراسية بالقرب من المنزل ذات ليلة، وحول رقبتها حبلٌ ملفوفٌ بإحكام، وقد كانت ميتةً بالطبع. لم تكن توجد أيُّ علامات أخرى على العنف، ولكن بعض الحليِّ الذهبية التي كانت الفتاة تَرتديها قد اختفَت. حُوكمت بيت، ولكن أُطلِق سراحها لأنها قدمَت حجة غياب، من نوعٍ ما كانت ستُقنعني أنا شخصيًّا»، هكذا علَّق ليكين بملحوظة جانبية. وتابع: «ولكن كان يوجد دليلٌ غريب قد تظنُّ أنه مفيد في الوقت الحالي. قال أحد الشهود إن بيت كانت مهتمَّةً كثيرًا بقراءة بعض الكتب عن الأساليب التي يتبعها أفرادُ طائفة «ثاجي» الهندية، وإنها كانت قد تحدثت في مساكن الخدم عن الكيفية التي يخنقون بها ضحاياهم باستخدام أوشحةٍ مصنوعة من أجودِ أنواع الحرير. لقد خُنِقَت هذه الفتاة الأوراسية بوشاح حريري؛ ولو كان من الممكن إثباتُ مِلكية بِيت لهذا الوشاح، لكان قد ثبَت عليها الجُرم. ولكن، كما قلت، حُكِمَ ببراءتها، وغادرَت على الفور، وعادت بالتأكيد إلى إنجلترا. ذلك كلُّ شيء يا سيدي.»

قال كارفاكس، وهو يُلقي نظرةً خاطفة على المحقق الآخر: «ستوب لديه مسألةٌ قد يرغب في ذكرها.»

قال ستوب: «حسنًا، إنها ليست ذاتَ أهمية كبيرة يا سيد بريريتون.» وتابع: «كلُّ ما في الأمر أننا تأكَّدْنا من أن كايتلي ترك كلَّ ما كان يملكه لهذه المرأة، وأن ...»

قاطعه بريريتون: «أعرف ذلك.» وأضاف: «إنها لم تُخفِ الأمر. أو بالأحرى، ابن أخيها، الذي كان ينوب عنها، لم يُخفِ الأمر.»

علَّق ستوب، بفتور: «صحيح.» وأردف: «ولكن هل تعلم أنَّ ابن أخيها قد أثبت الوصية بالفعل وباع المُمتلكات والعقارات؟ لا تعرف؟ ... حسنًا، لقد فعل! كما ترى، لم يُضِيِّع الكثير من الوقت بعد وفاة الرجل المسنِّ، يا سيدي. في الواقع، لقد أُنجِزَت المسألة بأسرعِ ما يمكن في حالاتٍ كهذه. وبالطبع ستكون الآنسة بِيت قد حصلت على إرثها، مما يعني أنها الآن ستكون قد حصلت على كلِّ ما تركه كايتلي.»

التفت بريريتون إلى المحامي، الذي حافظ، خلال سرد المحققَين للوقائع، على أسلوبه القضائي، كما لو كان جالسًا على منصَّة القضاء ويستمع إلى البيانات الافتتاحية للمحامين.

سأل بريريتون: «هل تلمحون جميعكم إلى أنكم تظنُّون أن الآنسة بِيت قتلَت كايتلي؟» واستطرد: «أودُّ الحصول على إجابةٍ مُباشرة عن هذا السؤال.»

صاح كارفاكس: «سيدي العزيز!» وأضاف: «كيف يبدو الأمر لك؟ لقد سمعت السجلَّ الإجرامي لهذه المرأة! الاحتمال المرجَّح أنها قتلَت تلك الفتاة الأوراسية، وأنها استغلَّت استخدام ستيلمان للعقاقير للقضاء عليه. لقد استفادت بالتأكيد من موت ستيلمان، وقد استفادَت بلا شكٍّ من موت كايتلي. أكرر، كيف يبدو الأمر لك؟»

سأله بريريتون: «ما الذي تقترح فعله؟»

تبادل المحققان نظراتٍ خاطفةً فيما بينهما ثم نظرا إلى كارفاكس. وخلع كارفاكس نظارته ببطءٍ وتَباهٍ، وبدا كما لو كان قاضيًا في قاعةِ محكمة أكثرَ من ذي قبل وهو يُجيب عن سؤال المحامي الشاب.

أجاب قائلًا: «سأخبرك بما أقترح فعله.» واستطرد: «أقترح أن تَصطحبَ هذين الرجلين إلى هاي ماركت هذا المساء، وأن تدَعَهما يُخبران شرطة هاي ماركت بكل ما أخبَروك به للتو!»

الفصل التاسع والعشرون

دون تفكير في العواقب

كان كل شيء هادئًا للغاية في المنزل حيث كان مالاليو يرقد مستيقظًا ومترقبًا. بدا له أنه لم يجد المنزل بمثلِ هذا الهدوء من قبل. لقد كان هادئًا في كل الأوقات، ليلًا وكذلك نهارًا؛ لأنه كان من عادة السيدة أن تتحرَّك بلا صوتٍ مثل القطة، وكان كريستوفر بلا شكٍّ ممن يمشون بخِفَّة، فدائمًا ما كان يتنقَّل من غرفة إلى أخرى كما لو كان يخاف من إيقاظ أحدٍ أو من أن تُلامس قدَماه الأرض. ولكن في هذه الليلة بالذات بدا الصمتُ غير عادي، وكان أشدَّ من أي وقت مضى لأنه لم يأتِ من الخارج أيُّ صوت، ولا حتى صوت هَبَّات الريح الخافتة وهي تعبث بأشجار التنوب والصنوبر، ليكسرَ هذا الصمت التام. صارت أعصاب مالاليو — التي ازدادت تدريجيًّا حدتُها وسهولة استثارتها بسبب مغامراته الأخيرة وحبسه المشدَّد — أسهل استثارة؛ لذا أجبر نفسه بصعوبة على أن يَستلقيَ دون حَراك ويُرهف سمعه. علاوةً على ذلك، كان يشعر بحاجةٍ ملحَّة إلى الشراب الذي كان يُهدئه حتى يغطَّ في نوم عميق كلَّ ليلة منذ أن أصبح تحت رحمة الآنسة بِيت، وكان يعرف تمام المعرفة أنه على الرغم من تخلُّصه منه، كان جسده كلُّه يصرخ من الافتقار إليه.

ما الذي كان هذان الشيطانان يسعَيان إليه؟ هكذا كان يتساءل وهو راقدٌ في الظُّلمة. شرٌّ بكل تأكيد. والآن بعدما فكَّر في الأمر، وجد أن سلوكهما خلال وقتٍ ما بعد الظهر والمساء لم يكن مُطمْئِنًا. فقد تجنَّبه كريستوفر تمامًا؛ إذ لم يرَه مالاليو على الإطلاق منذ المناقشة التي جرَت بعد الظهيرة، والتي أنهَتها الآنسة بِيت باقتضابٍ بالغ. لقد رأى الآنسة بِيت مرتين أو ثلاثَ مرات، وفي كل مرة كانت تتصرَّف ببراءة مَن جُرِح كبرياؤه. فأحضرَت له الشاي في صمت، وأحضرت له عَشاءه دون أن تنطق بأكثرَ من كلمة واحدة. كان عشاءً رائعًا، وقد وضعته أمامه وعلى وجهها تعبيرٌ بدا كأنه يقول إنها مهما تعرَّضَت لسوء

المعاملة، فستؤدي واجبها تجاهَ الآخرين. وعندما رأى مالاليو ذلك التعبير، لم يَستطع أن يمنعَ نفسه من قول إحدى ملاحظاته الساخرة.

صاح قائلًا وهو يضحك: «تظنِّين أنكِ تعرَّضتِ للظلم، يا آنسة!» وأضاف: «تظنين أنني رجل وضيع؟»

أجابت الآنسة بيت ببرودٍ وصبر: «لن أُبدِيَ أيَّ رأي، يا سيد مالاليو.» ثم تابعَت وهي تتجه نحو الباب: «أظن أنه من الأفضل للناس أن يُفكروا بأنفسهم. فالتفكير ليلًا، يجلب الحكمةَ في كثير من الأحيان، حتى لَمن لا يسعَون إليها عادةً.»

لم يكن لدى مالاليو أيُّ اعتراض على السعي وراء الحكمة، لمصلحته الخاصة، وكان يسعى جاهدًا للتوصل إلى شيءٍ ما من تفكيره بينما كان مستلقيًا في فراشه، ينتظر. ولكنه قال لنفسه إنه كان من السهل أن تكون حكيمًا بعد وقوع الواقعة؛ وفيما يخصُّه، فقد كانت الواقعة قد وقعَت بالفعل. كان في قبضة هذين الشخصين، اللذَين كان قد أدرك منذ مدة طويلة أنهما امرأةٌ عديمة الضمير ورجلٌ ماكر. لم يكونا يَملكان ما يفعلانه سوى تسليمِه إلى الشرطة إن رغبوا في ذلك؛ فعلى قدر معلوماته المحدودة، ربما يكون كريس بيت قد خدَعه بالفعل وأخبر الشرطةَ بما يجري في الكوخ. ولكن، وبعد تفكيرٍ أعمق، لم يظنَّ أن ذلك ممكن؛ لأنه كان من الواضح أن العمة وابنَ أخيها كانا في النهاية يسعَيان للحصول على كل ما يُمكنهما من مال، وإذا أبلغا عنه فلن يَحصلا على أيِّ شيء من الشرطة، في حين أنهما قد يحصلان على مبلغ جيدٍ منه. ولكن، ما الذي كانا يتوقَّعان أن يحصلا عليه منه؟ لقد تحيَّر قليلًا من مسلكهما عندما سألهما عما إن كانا يتوقَّعان أنه يحمل معه الكثير من المال، وهو شخص هاربٌ من العدالة. واتته الفكرةُ كالبرق في الظلام؛ هل كان مُحتملًا أنهما يعرفان، أو لديهما فكرةٌ ما، عما كان بالفعل معه؟ كان الآن متأكدًا تمامًا من أن الآنسة بِيت كانت تُخدره كلَّ ليلة؛ حسنًا، إذن، في تلك الحالة، كيف له أن يعرف أنها لم تدخل غرفته وتُفتش متعلقاتِه، وخاصةً صدريته الثمينة؟

كان مالاليو يضع تلك الصدرية في المكان نفسِه كل ليلة؛ على كرسيٍّ عند مقدمة سريره. كان قد وضعها مطويةً على الكرسي، ووضع ثيابه الأخرى في طبقاتٍ فوقها، ووضع شمعدانه وعلبةَ ثقاب فوق كل تلك الأشياء. وقد كان كل شيء موجودًا دائمًا، تمامًا كما وضعه، كل صباح عندما كان يفتح عينَيه. لكن بحلول هذا الوقت، صار يعرف قدرةَ الآنسة بِيت على التسلُّل خِلسةً، و...

مدَّ يده وتحسَّس بأصابعه كومةَ الملابس التي كانت موضوعة، مطويةً بعناية، على بُعد بِضع بوصاتٍ من رأسه. كان كل شيء على ما يُرام، عندئذٍ، بالطبع، وسحب يده ...

إلى المسدس، الذي لم يكن يفصله عن خدِّه سوى سُمْك الوسادة. ملمس ذلك المسدس جعله يبدأ في التفكير مجددًا. إن كانت الآنسة بِيت أو كريستوفر قد عبثا بصدريته، فربما عبثا أيضًا بالمسدس. فمنذ أن وطِئت قدَماه الكوخ، لم يفحص صدريته ولا مسدسه قط. بافتراض أن التهمَ قد سُحِبَت، وبافتراض أنه كان أعزلَ، إن تعرَّض لهجوم، فما العمل؟ بدأ يتصبَّب عرقًا؛ خوفًا من مجرد الفكرة، وبدأ يتحسَّس المسدس في الظلام محاولًا اكتشافَ ما إذا كان لا يزال ملقمًا. وحينئذٍ، سمع مالاليو صوتًا؛ وأصابته قُشَعريرةٌ من التوتر.

كان صوتًا خافتًا جدًّا، خافتًا لدرجة أنه لم يكن يتعدَّى صوت خربشة فأر صغير جدًّا في الخشب. ولكن في هذا الصمت الشديد كان من السهل سماعُه، وصاحَبَه وميضُ ضوء خافت. اتسعَت دائرة الضوء، وأتى صوتٌ آخر أعلى قليلًا، فأدرك مالاليو، وهو يسترقُ النظر إلى ما يحدث من بين رموشه، أن الباب كان مفتوحًا، وظهرت معالمُ جسدٍ طويل كان يقف حائلًا بين السرير والضوء الخارجي. وفي ذلك الضوء، خارج الباب، وخلف جسد الآنسة بِيت النحيل، رأى وجهَ كريستوفر بِيت حادَّ الملامح ولمعانَ عينَيه الصغيرتين.

كان مالاليو حادَّ الذهن، وعلى الرغم من ضخامته، فقد كان سريعَ الحركة. كان يعرف هدف الآنسة بِيت، وترَكها تتقدمُ متسللةً حتى منتصفِ المسافة عبر الغرفة في طريقها إلى الصدرية. ولكن بينما كانت تتقدمُ بصمت وبتلك الخطوات التي لا تُسْمَع كخطوات القطط، كان مالاليو قد سحب المسدس بصمت مماثل من تحت وسادته ووجَّه فوهتَه الصغيرة نحوها. كانت ماسورة ذلك المسدس مصقولةً للغاية، وفجأةً لاحظت الآنسة بِيت التماعةً صغيرةً من الضوء عليها، فصرخت. وعندما صرخت، أطلق مالاليو النار، فخفتَت الصرخةُ وتحولت إلى صوتِ اختناق غريب ... فأطلق النار مرةً أخرى ... وفي الموضع الذي كان يظهر فيه وجه كريستوفر بيت من ثانيةٍ واحدة لم يكن يوجد شيء، عدا صوت اختناقٍ آخَر وسقوط عند المدخل حيثما كان يقف كريستوفر مراقبًا.

أعقب ذلك صمتٌ عميق جدًّا لدرجة أن مالاليو شعر بأن طبلتَي أذنيه تُقاسيان بشدةٍ في محاولة التقاط أيِّ صوت، مهما كان خافتًا. لكنه لم يسمع أي شيء، ولا حتى تنهيدة. بدا كأن كلَّ الصمت المروِّع الذي كان سائدًا منذ الأزل في كهوف العالم قد تبلورَ في صمتٍ مروع واحد ووُضِع في تلك الغرفة.

مدَّ يده أخيرًا ووجد شمعته وأعوادَ ثقابه، وتحصَّل على المزيد من الضوء ومال إلى الأمام على السرير، ينظر.

تمتمَ قائلًا: «لا يمكن أن أكون قد أصبتُ كِليهما!» وأردف: «كليهما؟ ولكن ...»

رفع جسده ببطء وخرج من السرير، وارتدى بتعجُّلٍ بعضًا من الملابس الموضوعة مطويةً بعناية على الكرسي، ثم بعد أن ثبَّتَ الشمعة على الأرض، تقدم إلى حيث كانت المرأةُ راقدة. كانت قد سقطت بين نهاية السرير والجدار؛ كان كتفاها مُستندتَين إلى الجدار وفُكَّت العمامة البشعة وتدلَّت على إحدى كتفَيها. وأدرك مالاليو بتلك النظرة السريعة أنها لَقِيَت مصرعها، وتقدَّم ببطءٍ إلى الباب ونظر إلى الجسد الساكن الآخر، الراقد منبطحًا بالكيفية نفسِها في الممرِّ الذي كان يؤدي إلى غرفة المعيشة. أطال النظرَ إلى ذلك الجسد ... وفجأةً استدار ودخل غرفة نومه ومعيشته، وبحرصٍ تجنَّب المرأة الصريعة، وانتعل حذاءه ذا الرقبة وبدأ يرتدي ملابسَه بسرعة محمومة.

وأخذ مالاليو يُفكر بينما كان يرتدي ملابسه على عجَل. لم يكن متأكدًا من أنه كان يقصد أن يقتلَ هذين الاثنين. كان بالطبع سيُسَرُّ بأن يقتلهما؛ لبُغضه لهما، ولكن راودَتْه فكرةٌ مفادها أنه عندما أطلق عليهما النار كان يقصد فقط أن يُخيفهما. ولكن ذلك لم يَعُد مهمًّا الآن. كانا قد لقيا مصرعهما، أما هو فكان على قيد الحياة، ويجب أن يخرج من ذلك المكان، وعلى الفور. إلى الأراضي السَّبخة، إلى التلال، إلى أي مكان ...

فجأةً سمع مالاليو صوتَ طرق عنيف على الباب الذي في مؤخرة الكوخ، فارتعد خوفًا. اتَّجه نحو مقدمة الكوخ، فسمع طرقًا هناك، أيضًا. ثم سمع أصواتًا تطلب الدخول، وتصيح بصوتٍ مرتفع مناديةً باسم المرأة الميتة. إثر ذلك تسلَّل إلى النافذة الأمامية، وبحذر سحب جانبًا من الستارة ونظر إلى الخارج، ورأى رجالًا كثيرين في الحديقة. كان أحدهم يحمل فانوسًا، وعلى ضوئه الساطع نظر مالاليو فأبصرَ كوذرستون.

الفصل الثلاثون

كوذرستون

سار كوذرستون خارجًا من قفص الاتهام ومن قاعة المحكمة، ومن مبنى البلدية وسطَ صمتٍ رهيب، شعر به الجميعُ ولاحَظوه إلا هو. في تلك اللحظة كان نَشْوانَ وراضيًا عن نفسه للغاية، لدرجة أنه لم يكن يُمكن أن يُلاحظ أي شيء. رفع رأسه عاليًا جدًّا بينما كان يخرج مارًّا عبر المدخل المزدحم، ومن خلال الحشد الذي كان قد تجمَّع على السلالم؛ ربما شعر بأنه مثلُ قائد منتصر عائدٍ ليُحتفى به على الملأ عندما ظهر على الدرجات العريضة تحت الرِّواق المُعَمَّد لمبنى البلدية، ونظَر بانتصار إلى القوم الذين كانوا قد تجمَّعوا هناك ليسمَعوا آخر الأخبار. وهناك، في الهواء الطلق، ومع كل تلك العيون المحدقة فيه، انهمك دون وعي في تصرُّف نمطي. كان قد طلب أن تُرسَل إليه أبهى ملابسه في سجن نوركاستر الليلة السابقة، وكان قد ظهر مرتديًا إياها في قفص الاتهام. كان اللباس العُلوي معطفًا غاليَ الثمن، كانت اللمسة النهائية فيه هي ياقةً خفيضة من الفِراء؛ عندئذٍ، بينما كان واقفًا هناك على الدرج العلوي، مواجهًا الحشد، حلَّ أزرار المعطف، وأزاح تلابيبه جانبًا، والتقط نفَسًا طويلًا عميقًا، كما لو كان يستنشق هواءَ الحرية من جديد. كان يوجد شخص أو شخصان فطنان وقويًّا الملاحظة بين النَّظَّارة؛ بدا لهما أن هذا التصرف اللاإرادي عَبَّر عن أن كوذرستون شعر بأنه يتخلَّص من الأغلال التي كان مكبَّلًا بها، مَجازيًّا، طيلة الأيام الثمانية الأخيرة.

ولكن في كل ذلك الحشد، لم يقترب شخصٌ واحد من كوذرستون. كان موجودًا ضمن الحشد كثيرون من زملائه من أعضاء المجلس البلدي — نوَّاب منتخَبون ومعيَّنون — ولكن لم يقترب منه أحدٌ منهم أو حتى يومئ إليه برأسه؛ لم يفعلوا شيئًا سوى التحديق. كانت أخبارُ ما كان قد جرى في الماضي قد تسرَّبَت بسرعة: كان معروفًا قبل أن يخرج كوذرستون على مرأًى من الناس أنه قد أُطلِق سراحه؛ لم يؤدِّ خروجه بذلك المظهر

الجريء والواثق إلا إلى همساتٍ مُستترة ونظرات مختَلَسة. ولكن فجأة، من مكانٍ ما في الحشد، أطلق صوتٌ ساخر تهكمًا مزدريًا عبر الوجوه المحدقة.

«أحسنت، يا كوذرستون! أنقذتَ عنقك، على أي حال!»

سرَت موجةٌ من الضحك الساخر ردًّا على ذلك، وبينما كان كوذرستون يستدير بغضب في الاتجاه الذي أتى منه الصوت، ارتفع صوتٌ آخر، ساخر بالقدر نفسِه، من جانب آخر من الحشد.

«شاهد ملك! أجل! مَن الذي يمكن أن يصدق كوذرستون؟ كاذب!»

احمرَّ وجه كوذرستون غضبًا؛ واختفى احمرارُ الغضب سريعًا وحل محلَّه شحوبٌ شديد. وعندئذٍ أقبل عليه رجل، كان قد وقف بالقرب منه تحت الرواق المعمد، مراقبًا إياه بفضول، واقترب منه أكثر وهمَس له:

«اذهب إلى البيت، يا سيد كوذرستون! خذ بنصيحتي، وابتعد بهدوء، على الفور!»

رفض كوذرستون نصيحته الطيبة بفورة غضبٍ حادة.

زمجرَ قائلًا: «اذهب إلى الجحيم!» واستطرد: «مَن طلب منك أن تفتح فمَك؟ أتظن أنني خائفٌ من قطيعٍ كهؤلاء؟ أريد أن أعرف من ذا الذي سيتحرَّش بي؟ اذهب أنت إلى البيت!»

استدار صوب الباب الذي كان قد خرج منه للتو؛ استدار ليرى محاميَه ومستشارَه يخرجان معًا. وتلاشى غضبه المفاجئ، وهدأَت تعبيراتُ وجهه وظهرت عليه ابتسامةُ انتصار.

هتَف قائلًا: «حسنًا، اسمعا!» وتابع: «ألم أقل لكما ما سيحدث، منذ أسبوعٍ مضى! هيا نذهب إلى الحانة وسأدعوكما إلى زجاجةِ شراب — حسنًا، اثنين، ثلاثة، إن شئتما! — من أفضل الأنواع. تعالَيا، أنتما الاثنان.»

نظر المحامي حوله ورأى شيئًا في الوضع الراهن من حولهم، وبتعجُّلٍ استأذن منهما، وانسلَّ عائدًا إلى داخل مبنى البلدية من مدخل آخر. لكن المستشار — الذي على الرغم من أنه كان رجلًا ذا قدراتٍ قضائية عظيمة، كان واحدًا من أولئك الذين لا يخشَون على سمعتهم الخاصة، وكان معروفًا عنه أنه لا يستطيع أبدًا أن يصمد أمامَ إغراء زجاجة شمبانيا — فوافق على الفور، وبروحٍ مرحة رائعة. ونزل الدرَج متأبطًا ذراع كوذرستون وعبرا السوق، وخلفهما الحشدُ كان يسخر ويضحك، منغمسًا في إلقاء تعليقاتٍ مسموعة.

لم يُعِرْهم كوذرستون أيَّ اهتمام، أو تظاهرَ بذلك. قاد رفيقه إلى داخل الحانة، واتجه إلى الغرفة ذاتِ النافذة المقوسة التي كانت تُستخَدم كملتقًى صباحيٍّ لكل المنتمين

إلى الطبقة الراقية من المتسكعين وسكَّان الحضر في هاي ماركت. كانت الغرفة مليئةً بالفعل. كان الرجال قد أتوا من المحكمة، ومن الحشد بالخارج؛ تعالى صخبُ الحديث من كل جانب. ولكن عندما دخل كوذرستون والمستشار الشهير (كان مشهورًا جدًّا في ذلك المجال بدفاعه عن المجرمين حتى إنه حصل على لقب «صديق المجرمين»)، حلَّ صمتٌ تام، ونظر الرجال إلى هذا الثنائيِّ المثير للفضول، ثم بعضهم إلى بعض بنظرات ذات مغزًى.

في ذلك الصمت، أوقف كوذرستون نادلًا، وطلب بصوتٍ عالٍ شمبانيا وسيجارًا؛ حدَّق بتحدٍّ فيمن حوله وهو يختتمُ الطلبَ بأمر بإحضار أفضلِ صندوق سيجار في المكان، وأفضل شمبانيا في القبو. اخترقَت ضحكةٌ عالية الصمتَ آتيةً من أحد أركان الغرفة، وإذ كان النادل رجلًا لماحًا، رأى الحالة التي كانت عليها الأمور، ونظر إلى كوذرستون.

همس قائلًا: «تعالَ إلى الحجرة الخاصة الصغيرة، يا سيد كوذرستون.» واستطرَد: «لا أحد هناك؛ ستكونان أكثرَ راحةً، يا سيدي.»

أجاب كوذرستون: «لا بأس، إذن.» وحدَّق مرةً أخرى نحو المجموعة التي كانت حوله، وتفجَّر تحدِّيه فجأةً بطريقة أخرى. قال بطريقة مباشرة: «أي صديق لي يودُّ أن ينضمَّ إلينا مُرَحَّب به. من سيأتي؟»

عندئذٍ انطلق ضحكٌ أجشُّ مجددًا ردًّا على ذلك، وأدار معظم الرجال هناك ظهورهم لكوذرستون وبدَءوا يتحدثون بصوتٍ عالٍ. ولكنَّ واحدًا أو اثنين من الأقل اكتراثًا ومن نوعيةٍ أكثر وضاعة، ممن كان من المؤكد أن كوذرستون ما كان سيدعوهم أصدقاء قبل أسبوع، أشار أحدُهما إلى الآخَر واتجَها نحو الباب الذي أمسكه النادل بترحاب ليُبقيَه مفتوحًا؛ فلم يكن يحدث كلَّ يوم أن يُقَدم أفضل شمبانيا وأفضل سيجار دون مقابل، وإن أراد كوذرستون أن يُبعثر نقوده، فما المشكلة، ما داما سينتفعان من حماقته؟

قال كوذرستون، وهو يدفع المستشارَ أمامه: «أحسنتما!» وصاح في النادل: «أحضِرْ زجاجتين ... بل ثلاث زجاجات» وأضاف: «زجاجات كبيرة! وأفضل الأنواع.»

تقدَّم رجلٌ مسن، واحد من زملاء كوذرستون في عضوية المجلس البلدي، وأمسكه من ذراعه.

همس: «كوذرستون!» وتابع: «لا تكن أحمقَ! فكِّر فيما انتهى للتو. كن رجلًا صالحًا وعُد إلى البيت؛ عد بهدوء إلى البيت. ما تفعله لن يترك أثرًا طيبًا ... ستجعل كلَّ البلدة تتكلم!»

قال كوذرستون، مزمجرًا: «اللعنة على البلدة، وعليك أنت أيضًا!» وأضاف: «أنت واحدٌ من أولئك الذين صاحوا في وجهي أمامَ مبنى البلدية، اللعنة عليك! وسأجعلك أنت

وكلَّ هاي ماركت ترَون أهميتكم عندي. ما شأنك إن شربت كأسًا من النبيذ بهدوء مع أصدقائي؟»

ولكن لم يحدث شيءٌ من قبيل «شرب كأس من النبيذ بهدوء» في الغرفة الخاصة الصغيرة التي انعزل فيها كوذرستون وأصدقاؤه المقرَّبون. في كل مرة كان بابها يُفتَح كان يُسمَع صوت كوذرستون المتحمِّس في الغرفة الكبيرة، وبدأ الرجال الأكثر اتزانًا، ممن كانوا يستمعون يهزون رءوسهم استنكارًا.

تساءل أحدُهم: «ماذا دهاه؟» واستطرد: «لم يرَه أحدٌ هكذا من قبل! لماذا الهرج والمرج الذي يصنعه بتلك الطريقة؟»

قال آخر: «إنه متحمِّسٌ لأنه أفلت من العقاب.» وأردف: «وتلك الضجَّة الخفيفة بالخارج هناك جعلَته يخرج عن اتِّزانه. كان ينبغي أن يأخذه أحدُهم مباشرةً إلى البيت. أيضًا، يا لها من مجموعةٍ رائعة تلك التي اصطحبها معه! نحن جميعًا نعرف حقيقةَ ذلك المستشار؛ يقولون إنه يمكنه أن يشرب الشمبانيا مثل الماء، وأما عن الآخرين، فاستمعوا إلى ذلك، الآن!» أضاف هذا بينما انطلق وابلٌ من الحديث المتحمس عبر الباب المفتوح. أضاف: «إذا استمرَّ ذلك، فسيكون في حالة جيدة تُناسب الذَّهاب إلى البيت إلى ابنته تلك، أنا أعرف.»

قال آخر: «يجب ألا يستمرَّ هذا»، ونهض. وتابع: «سأذهب إلى مكتب بينت وأجعله يأتي ليأخذَ كوذرستون ويرحل به. بينت هو الرجل الوحيد الذي سيكون له أيُّ تأثير عليه.»

خرج وعبَر السوق إلى مكتب بينت. ولكن بينت لم يكن هناك. بِناءً على نصيحته كانت ليتي قد ذهبت لتُقيم مع صديقةٍ لها حتى تنتهيَ الوقائع الأخيرة بطريقةٍ أو بأخرى، أما بينت نفسُه، فبمجرد أن غادر كوذرستون قاعة المحكمة، حتى هُرِع مغادرًا ليلحقَ بقطار إلى البلدة التي كانت مقيمة فيها مؤقتًا؛ ليحملَ لها الخبر ويُحضرها إلى بيتها. لذا عاد فاعلُ الخير بخفَّي حُنين، وعندما وصل إلى الفندق، خرج منه كوذرستون والمستشار، وافترقا عند الباب بمودةٍ كبيرة واضحة، ومضى كلٌّ منهما في طريقه. وبينما كان كوذرستون يمرُّ بالرجل الذي كان قد ذهب إلى مكتب بينت، حدق فيه ثم أشاح بوجهه.

علَّق فاعل الخير، وهو يُعاود الدخول إلى الغرفة الكبيرة وينضمُّ إلى جماعته: «سيحدث صراعٌ مرير بين كوذرستون وبقية أهل البلدة.» وأضاف: «لقد مرَّ بي للتو متجاهلًا إياي

وكأنني واحدٌ من حجارة الرصف التي يمشي عليها! وهل رأيتم وجهَه وهو يُغادر؟ عجبًا، بدلًا من أن يبدوَ وكأنه أفرط في الشراب، بدا لي متزنًا للغاية بعكس ما توقعت. احذروا حدوث شيء؛ فذلك الرجل يائس!»

قال واحدٌ من المجموعة: «وما الذي يجعله يائسًا؟» واستطرد: «لقد أنقذَ عنقه!»

علَّق آخر بهدوء: «إن ذلك الصياح في وجهه عندما خرج هو السبب في ذلك.» وأضاف: «إنه رجلٌ من النوعية التي لا تبتئس من شيء كهذا. إن ظن كوذرستون أن الرأي العام ضده ... حسنًا، سنرى!»

عندما افترق عن المستشار، سار كوذرستون بخُطًى ثابتة مبتعدًا عبر السوق. مهما كان ما يمكن أن يكون الرجال في الغرفة الكبيرة قد ظنُّوه، لم يُطلِق كوذرستون العِنان لنفسه بحُريةٍ مفرطة في الغرفة الخاصة الصغيرة. كان قد مرَّر الشمبانيا على المجموعة التي كانت حوله، ولكن الكمية التي كان قد شربها هو نفسه لم تكن كبيرة وشدَّت من عزمه بدلًا من أن تُسكِره. وكان حماسُه قد خبا فجأةً، وتوقف عما كان يمكن أن يتطورَ إلى نوبةِ إفراط في الشرب بأن قال إنه يجب أن يذهب إلى البيت. وبمجرد أن خرج، توجَّه مباشرةً إلى منزله، وبينما كان يمضي لم ينظر يَمنةً ولا يَسْرة، وإذا التقى بصديقٍ أو بأحد معارفه كان وجهُه يُصبح جامدًا كحجر الصوَّان.

بالفعل كان كوذرستون يتأجَّج ويغلي غضبًا. كانت عبارات السخرية التي وُجِّهَت إليه وهو واقفٌ على درجات مبنى البلدية، والنظرات التي صُوِّبَت سِهامها إليه وهو يبتعد مع المستشار الميال للاحتفال، والتعبيرات على وجوه الرجال في الغرفة الكبيرة في حانة هاي ماركت آرمز، كل ذلك كان قد تسبَّب له في إيذاء نفسيٍّ بالغ. كان يعرف، أيًّا كان ما كان عليه في الماضي، أو ما كان عليه حينئذٍ، أنه قد أثبت أنه كان خادمًا مخلصًا للبلدة. لقد كان عضوًا بالغ الحماس في المجلس البلدي، وكان قد تولى الشئون المالية للبلدة عندما كانت في حالةٍ يُرثى لها وجعلها على أرضيةٍ صُلبة وآمنةٍ ومزدهرة؛ لقد عمل وفكَّر وخطَّط من أجل ما يعود بالنفع على المكان، وكانت هذه هي مكافأته! كان يعرف أن تلك العبارات الساخرة، وتلك النظرات، وتلك الوجوه التي كانت تنظر إليه شَزرًا حينًا وباحتقارٍ حينًا آخر كانت تقصد أمرًا واحدًا، وأمرًا واحدًا فقط؛ اعتقد رجال بلدة هاي ماركت أنه شريكٌ في الجُرم بالقدر نفسِه مع مالاليو، وكانوا قد وصَلوا إلى استنتاجٍ مفاده أنه لم يُطلَق سراحه إلا من أجل أن تُصبح تلك الشهادة المباشرة بحق مالاليو متاحةً عند الحاجة إليها. لعنَهم بشدةٍ ومرارة، وفي الوقت نفسِه ازدَراهم، إذ كان يعرف أنه حتى مع أنهم كانوا

متقلِّبين، يتحوَّلون إلى هذا الاتجاه وذاك عند أدنى تغيرٍ في اتجاه الرأي العام، كانوا أيضًا في غاية الحمق، وليس لديهم أدنى قدرةٍ على الاستشراف أو التوقع.

انحسر الانفعال، الذي كان قد تملَّك من كوذرستون في مواجهة أولئك العامة الذين كانوا يتهكَّمون عليه، في صمت منزله؛ وعندما عادت ليتي ومعها بينت إلى البيت عصرًا وجَداه هادئًا ومتزنًا على غير العادة. كان بينت قد أتى مفعَمًا بمشاعرَ مُضطربة ومخاوف؛ إذ كان قد تصادف وجود أحد الرجال الذين كانوا في حانة هاي ماركت آرمز في محطة القطار عندما وصَل مع ليتي، وانتحى به جانبًا وأخبره بما جرى، وبأنه كان من الواضح أن كوذرستون كان سيركَن إلى مُعاقرة الخمر. ولكن لم تكن توجد أي أمارة على أيِّ شيء غير عادي على وجه كوذرستون عندما لقيه بينت. لم يتكلَّم مع بينت أو ليتي إلا قليلًا عن أحداث الصباح؛ لم يَزِدْ عن أنه علَّق قائلًا إن الأمور انتهت بالضبط كما كان قد توقَّع وأنه لعلَّهم الآن يتمكَّنون من تسوية الأمور؛ احتسى معهما الشايَ، وظلَّ منشغلًا بكتبه وأوراقه في غرفته حتى وقت العشاء، ولم تظهر عليه أيُّ علامات على أي شيء غير عادي على العشاء، وعندما غادر المنزل بعد ساعة قائلًا إنه يجب أن يذهب إلى المكتب ويجلب المراسلات المتراكمة، كان سلوكه عاديًّا جدًّا حتى إن بينت لم يرَ سببًا يدفعه إلى أن يُرافقه.

إلا أن كوذرستون لم يكن ينوي الذَّهاب إلى مكتبه. غادر منزله وهو عازم على أمرٍ محدَّد. سيعرف على نحوٍ حاسم شعورَ أهل بلدة هاي ماركت نحوه وما يُكِنونه له. لم يكن رجلًا من أولئك الذين يحتملون العيش تحت ظلال الشك والنظرات المتحاشية، وإن كان سيُعامَل على أنه مشتبهٌ به ومنبوذ فليعرف على الفور.

في ذلك الوقت كان يوجد في هاي ماركت نادٍ صغير للصفوة، مقرُّه في السوق، ينتمي إليه كل الأشخاص البارزين من سكان البلدة. كان كلٌّ من مالاليو وكوذرستون عضوَين فيه منذ تأسيسه؛ وفي الواقع كان كوذرستون أمينَ صندوقه. كان يعرف أن الناديَ سيكون مزدحمًا في تلك الليلة؛ حسنًا جدًّا، سيذهب إلى هناك وسيُواجه بجُرأة الرأي العام. إن انتقده زملاؤه الأعضاءَ بعنف، أو عامَلوه بازدراء، أو تجاهَلوه ... حسنًا، سيعرف عندئذٍ ما يتعيَّن عليه فعله.

لكن كوذرستون لم يدلف إلى داخل النادي مطلقًا هذه المرة. فبينما كان يطأ بقدمه عتبتَه التقى بواحد من أقدم الأعضاء، كان عضوًا معينًا في المجلس البلدي، وكان كوذرستون يُكِنُّ له احترامًا شديدًا. أجفل هذا الرجلُ لمرآه، وتوقَّف، ووضع يده بودٍّ وبقوة في الوقت نفسِه على كتفه، وعَمِد إلى جعلِه يستدير.

قال بلطفٍ: «لا، يا صديقي!» وأردَف: «لا تدخل إلى هنا الليلةَ! إن كنتَ لا تعرف كيف تعتني بنفسك، فدَع صديقًا لك يعتني بك. تَحَلَّ ببعض المنطق، يا كوذرستون! أتريد أن تُعَرِّض نفسك مجددًا لما نالك خارجَ مبنى البلدية؟! لا ... لا! اذهب، يا صديقي، اذهب إلى البيت ... تعالَ معي إلى البيت، إن شئت، فأنت مرحَّب بك!»

كان من شأن العبارة الأخيرة أنْ جعَلَت كوذرستون يلين، وقَبِل أن يقوده الرجل في الشارع.

قال بطريقة جافَّة: «أنا ممتن لك.» وتابع: «إن نواياك طيِّبة. ولكن ... هل تعني أن تقول إن هؤلاء الرجال هناك — الرجال الذين يعرفونني — يُفكرون ... في ذلك؟!»

أجاب الشيخ: «إنه عالم قاسٍ وميال إلى الانتقاد، أعني ذلك المكان.» واستطرد: «اتركهم وشأنهم قليلًا؛ لا تُقحِم نفسك معهم. تعالَ ... تعالَ معي إلى البيت ودخِّن سيجارًا معي.»

قال كوذرستون: «أشكرك.» وأضاف: «ما كنت ستطلبُ مني أن أفعل ذلك لو كنتَ تُفكر مثلهم. أشكرك! ولكن لديَّ أمر يتعين عليَّ فعله، وسأذهب وأفعلُه على الفور.»

ضغط على ذراع رفيقه بودٍّ، واستدار مبتعدًا، وبينما كان الرجل الآخَر يُراقبه عن كثب، رآه يمشي مبتعدًا صوبَ مركز الشرطة، إلى الباب الخاصِّ برئيس الشرطة. رآه يدخل، وعندئذٍ هز رأسه ومضى مبتعدًا هو الآخَر، وهو يتساءلُ في نفسه عمَّا كان كوذرستون يُريده من الشرطة.

كان رئيس الشرطة متعبًا من عمل يومٍ طويل، جالسًا على راحته يُدخن غليونه ويُمسك بكأسه عندما ظهر كوذرستون في صالة استقباله. أجفل مذهولًا من مرأى زائرِه، أشار إليه كوذرستون ألَّا يقوم عن كرسيِّه.

قال كوذرستون: «لا تدَعْني أُقلِقْ راحتك.» وأردف: «أريد أن أتبادل معك حديثًا قصيرًا على انفراد؛ ذلك كلُّ ما في الأمر.»

كان رئيس الشرطة قد سمع بأمر الموقف الذي حدث على الملأ في الحانة، وكانت لديه مخاوفُ من توابعه. لكنه لمح إلى أن زائره لم يكن متزنًا فحَسْب، وإنما كان أيضًا هادئًا ومعتدلًا، وسارع بأنْ قدَّم له كأسًا من الويسكي.

أجاب كوذرستون، وهو يجلس: «أجل، شكرًا لك، سأشرب.» وأضاف: «سيكون هذا أولَ مشروب روحي أشربه منذ حبستَني، وأظن أنه لن يضيرني. والآن»، مضى في حديثه بينما اتخذ الاثنان جِلستَهما بجوار موقد المدفأة: «أريد أن أتحدث إليك حديثًا مباشرًا.

أنت تعرفني؛ لقد كنا أصدقاء. أريد منك أن تخبرني بصراحة ووضوح وصدق ... ما الذي يفكر فيه أهل هاي ماركت بشأني ويقولونه عني؟ أفصح!»

اكفهرَّ وجه رئيس الشرطة وهز رأسه بأسًى.

أجاب: «في الواقع، أنت تعرف حال أهل البلدة، يا سيد كوذرستون!» وتابع: «وتعرف مدى الاستعداد الكبير لدى سكان هاي ماركت هؤلاء لقول أشياءَ سيئة. أنا لستُ من أهل هاي ماركت، بقدرك، وكنتُ دومًا أعتبرهم قومًا سَليطي اللسانِ جدًّا؛ ولذلك ...»

قال كوذرستون: «هاتِ ما عندَك!» واستطرد: «دَعْنا نعرف الحقيقة؛ لا يُهِم من أي ألسنةٍ تصدر. ماذا يقولون؟»

أجاب رئيس الشرطة، على مضضٍ: «في الواقع، بالطبع يسنح لي أن أسمع كلَّ شيء. إن كان لا بد أن تعرف، التصور السائد أنك والسيد مالاليو لكما يدٌ في موت كايتلي. يظنون أن مقتله له صلةٌ وثيقة بكما، وأن ما جرى لستونر كان حادثًا عارضًا. وإن كنتَ تريد الحقيقة كاملة، فهم يظنون أن الفارقَ الوحيد بينك وبين مالاليو أنك كنت أبرعَ منه بأن أبرمتَ صفقة، وأنه من المحتمل أن يكون كايتلي قد لقي مصرعَه على يدَيك، بالتواطؤ مع شريكك. كما يوجد أولئك الذين يقولون إنه إن قُبِض على مالاليو — وهو ما سيحدث — فسوف يَفضح أمرك للشرطة. ذلك كل شيء، يا سيدي.»

سأله كوذرستون: «وما ظنك أنت؟»

تململَ رئيس الشرطة في مقعده باضطراب.

قال: «لم أستطع مطلقًا أن أحمِل نفسي على تصور أنك أنت أو مالاليو يمكن أن تقتلا رجلًا بدمٍ باردٍ، كما قُتِل كايتلي.» وأضاف: «فيما يتعلق بستونر، لديَّ اعتقاد جازم أن مالاليو ضربه في فورةِ انفعال. ولكن ... كنت أشعر دومًا أن أنت، أو مالاليو، أو كِلَيكما، تعرفان عن واقعة كايتلي أكثرَ مما قُلتما!»

مال كوذرستون إلى الأمام وربت على ذراع مضيفه.

قال بطريقة ذات مغزًى: «أنا أعرف!» واستطرد: «أنت محقٌّ في ذلك. فأنا ... أعرف!»

وضع رئيس الشرطة غليونه ونظر إلى ضيفه بجدِّية.

هتف قائلًا: «إذن بحق الرب، يا سيد كوذرستون، بحق الرب، أفصِح! لأنني متيقِّن، مثلما أنا متيقنٌ من أننا جالِسان هنا، أنه بالوضع الراهن للأمور، سيُشنَق مالاليو إن لم تفعل! إن لم يُشنَق من أجل ستونر، سيُشنَق من أجل كايتلي؛ لأنه إن أفلتَ من تهمة قتل ستونر سيُقبَض عليه مجددًا من أجل التهمة الأخرى.»

عَلَّق كوذرستون قائلًا: «قبل مُضي نصف الساعة، ما كنتُ سأكترث لو شُنِق مالاليو عشر مرات. في الانتقام لذَّةً، ولديَّ مبررٌ قوي لأن يُنتقَم لي من مالاليو. ولكن الآن ... أنا ميَّال إلى أن أقول الحقيقة. أتعرف لماذا؟ عجبًا ... لأبينَ لأهل هاي ماركت هؤلاء أنهم مخطئون!»

تنهَّد رئيس الشرطة. كان رجلًا بسيطًا واضحًا أمينًا، وبدا له أن السبب الذي ساقه كوذرستون كان غريبًا، بل خبيثًا. يا له من سببٍ تافه أن يقول المرء الحقيقة لمجرد النِّكاية في جاره، بينما توجد حياةٌ على المحك.

قال: «حسنًا، يا سيد كوذرستون، ولكن يتعيَّن عليك أن تقول الحقيقة على أيِّ حال!» وأضاف: «إن كنت تعرفها، أفصِحْ عنها وانتهِ من الأمر. لقد كابَدْنا ما يكفي من المتاعب بالفعل. إن كان بوسعك أن تُزيل الغموض عن الأمور ...»

قاطعه كوذرستون قائلًا: «اسمع!» واستطرد: «سأخبرك بكل ما أعرفه ... سرًّا فيما بيننا. إن ارتأيتَ أنه مفيد، يمكن وضعه في القالَب الصحيح. لا مانع عندي، إذن! أتتذكَّر ليلة مقتل كايتلي؟»

قال رئيس الشرطة: «أجل، أظن ذلك!» وأردف: «لديَّ سببٌ قوي لذلك!»

قال كوذرستون: «دع عقلك يرجعْ إليها، وإلى ما سمعتَه عنها من وقتها.» وتابع: «تعرف أنه عصرَ ذلك اليوم كان كايتلي قد هدَّدني أنا ومالاليو بفضحِ أمر مسألة ويلشستر. أراد أن يبتزَّنا. قلت لمالاليو، بالطبع — تعيَّن على كِلَينا أن نُفكر في الأمر حتى اليوم التالي. ولكني لم أفعل شيئًا سوى التفكير — إنني لا أريد فضيحةً من أجل ابنتي؛ كنتُ على استعداد لأن أقدم أي شيء لتجنُّب الفضيحة، بطبيعة الحال. كنت أستضيف بينت وصديقه ذاك، بريريتون، على العشاء في تلك الليلة؛ كان ذهني مفعَمًا بالأفكار حتى إنني خرجتُ وتركتهم ساعةً أو أكثر. الحقيقة أنني أردت أن أتكلم مع كايتلي. مضيت صاعدًا إلى الغابة بجانب منزلي متجهًا صوب كوخ كايتلي، وفجأةً وجدتُ رجلًا ممدَّدًا على الأرض ... كان هو! بالضبط حيث عثَرنا عليه بعد ذلك.»

سأله رئيس الشرطة: «ميتًا؟»

أجاب كوذرستون: «للتو.» وأضاف: «لكنه كان ميتًا، ورأيت ما تسبَّب في وفاته؛ لأنني أشعلتُ عود ثقاب لأنظر إليه. رأيت دفتر جيبه ذاك مُلقًى بجواره، ورأيت قصاصةً من صحيفة مطويَّة أيضًا، التقطتُها، ولاحقًا عندما قرأتُها وضعتُها في مكان أمين؛ لقد أخرجتُها من ذلك المكان الليلة لأول مرة، وها هي ... يمكنك أن تحتفظ بها. حسنًا ...

تابعتُ المضيَّ، حتى وصلتُ إلى الكوخ. كان الباب مفتوحًا، فنظرت في الداخل. كانت تلك المرأة، الآنسة بِيت، جالسةً إلى الطاولة بجوار المصباح، تُقَلِّب في بعض الأوراق، ورأيت خطَّ كايتلي على بعضٍ منها. دخلت بخفةٍ ونقرت بإصبعي على كتفها، فصرخت وجفلت مرتدَّةً إلى الوراء. نظرت إليها. قلت لها: «أتعرفين أن سيدكِ يرقد جثةً هامدةً، صريعًا، بالأسفل وسط تلك الأشجار؟» عندئذٍ تمالَكَت نفسها، وحالت إلى حدٍّ ما بيني وبين الباب. قالت: «لا، لا أعرف!» واستطردت: «ولكن إن كان كذلك، فلستُ مندهشة، لأنني حذرتُه مراتٍ كثيرةً من الخروج بعد حلول الظلام.» تمعَّنتُ النظر فيها. وقلت لها: «ما الذي تفعلينه بأوراقه التي هناك؟» قالت: «أوراق!» وتابعت: «إنها لا شيء سوى فواتيرَ قديمةٍ وأشياء أعطاها لي لأُرتِّبها.» قلت: «تلك كذبة!» واستطردتُ: «تلك ليست فواتيرَ وأعتقد أنكِ تعرفين شيئًا عن هذا الأمر، وسأذهب على الفور إلى الشرطة ... لأخبرها!» عندها دفَعَت الباب من ورائها وعقدَت ذِراعَيها ونظرت إليَّ. وقالت: «انطِق بكلمة، وسأتكلم وأكشف في سائر البلدة أنك أنت وشريكك سجينان سابقان! أعرف حكايتكما؛ لم يكن كايتلي يُخفي عني سرًّا. إن خطوتَ خطوة لتخبر أيَّ أحد، فأول ما سأفعله هو أنني سأتوجَّه مباشرةً إلى خطيب ابنتك بينت، ولن أتوقف عند ذلك الحد، فقط.» وهكذا تُدرك الموقف الذي كنت فيه؛ كنت في غاية الخوف من افتضاح تلك المسألة القديمة، وعرَفتُ عندئذٍ أن كايتلي كان كاذبًا وأنه حكى لتلك العجوز كلَّ شيء عنها، و... في الواقع، تردَّدت. ورأت أنها تمكنَت مني، وتابعت تقول: «أمسِكْ عليك لسانك، وسأُمسِك لساني!» وأضافت: «لن يتَّهمَني أحد، أنا أعرف ... ولكن إن نطقتَ بكلمة، سأشي بك! واحتمال أن تكون أنت وشريكك مَن قتلتُما كايتلي أرجحُ من احتمال أن أكونَ أنا الفاعلة!» حسنًا، ظللت واقفًا، مترددًا. أخيرًا سألتُها: «ماذا أفعل؟» قالت: «لا تفعل شيئًا.» وأردفَت: «كنْ رجلًا حكيمًا وعُد إلى البيت، وتظاهر بأنك لا تعرف شيئًا عن الأمر. دعهم يعثروا عليه، ولا تقل شيئًا. أما إن فعلتَ، فأنت تعرف ما ينتظرك.» قلتُ لها أخيرًا: «إذن، لن تنطقي بكلمةٍ عن مجيئي إلى هنا؟» قالت: «لن أفصح لأحد عن أي شيءٍ سوى ما أختار أن أُفصح عنه.» فقلت: «ستلتزمين الصمتَ بشأن المسألة الأخرى؟» قالت: «ما دمتَ ستلتزم الصمت.» وبذلك خرجتُ وانطلقتُ صوب البيت من طريق آخر. وفي اللحظة التي كنت فيها أغادر الغابة لأنعطف في الدرب الذي يقود إلى شارعنا سمعت رجلًا مقبلًا، فتواريت في بعض الشجيرات وراقبتُه حتى صار قريبًا مني. مرَّ بي وتابع المضيَّ نحو الكوخ، وعندئذٍ انسللتُ عائدًا وتلصصت من النافذة،

ورأيته هناك، وكان الاثنان يتهامسان وهما جالسان إلى الطاولة. و... وكان هذا الرجل هو ابنَ أخي المرأة؛ بِيت، المحامي.»

رفع رئيس الشرطة يديه في ذهول، وكانت قد بدت على وجهه تعبيراتٌ مختلفة أثناء سرده.

هتف قائلًا: «ولكن ... ولكننا كنا في داخل ذلك الكوخ وحوله معظمَ تلك الليلة ... بعد ذلك!» واستطرد: «لم نرَه على الإطلاق. أعرف أنه كان من المفترض أن يأتيَ من لندن الليلة «التالية»، ولكن ...»

قال كوذرستون، بإصرار: «أقول لك إنه كان هناك في «تلك» الليلة!» وأضاف: «أتظن أنني يمكن أن أُخطِئَه؟ حسنًا، عدتُ إلى البيت، وتعرف ما حدث بعد ذلك؛ تعرف ما قالته وكيف تصرَّفَت عندما صعدنا إلى هناك، وبالطبع لعبتُ دوري. ولكن ... تلك القصاصة من الصحيفة التي أعطيتُها لك. كان آخر ما فعلتُه في تلك الليلة أنني قرأتها بعناية. إنها عمودٌ مقتطَع من إحدى صحف بلدة ووكينج منذ عدة أعوام؛ إنه متعلِّق بتحقيقٍ كانت هذه المرأةُ ذاتَ صلة به؛ ويبدو أنه يوجد دليلٌ ما على أنها تخلَّصَت من الرجل الذي كانت تعمل عنده بالسُّم. وأتعرف ما الذي أظنه، الآن؟ أظن أن هذه القصاصة أُرسِلَت إلى كايتلي، وظلَّ يُناكدها بها، أو أخذ يُهددها بها و... ما الأمر؟»

كان رئيس الشرطة قد نهض وكان يلتقطُ معطفه من المشجب.

قال: «أتعرف أن هذه المرأة ستُغادر البلدة غدًا؟» وأردف: «وأن ابن أخيها موجودٌ معها هناك، الآن؛ كان موجودًا هنا طيلةَ أسبوع؟ بالطبع، أفهم السبب في أنك أخبرتني بكل هذا، يا سيد كوذرستون؛ الآن وقد صارت مسألتك القديمة في ويلشستر معروفةً للجميع، للقاصي والداني، لم تعُد تكترث، ولا ترى أيَّ سببٍ للمزيد من السرية، أليس كذلك؟»

أجاب كوذرستون، بابتسامة متجهِّمة: «سببي أن أبيِّن لأهل هاي ماركت أنهم ليسوا فطنين جدًّا كما يتصوَّرون. لأنه من المحتمَل أن يكون كايتلي قد قُتِل على يد تلك المرأة، أو ابن أخيها، أو كليهما.»

قال رئيس الشرطة: «على أي حال، سأصعد إلى هناك ومعي اثنان من أفضل رجالي.» وأضاف: «لا وقتَ لدينا لنُضيعه إن كانا سيرحلان غدًا.»

قال كوذرستون: «سآتي معك.» انتظر، وأخذ يحدق في النار حتى ذهب رئيس الشرطة إلى مركز الشرطة الملاصق وعاد ليقولَ إنه ورجُلَيه جاهزان. وسأله، بينما كان الأربعة ينطلقون: «ما الذي تنوي فعله؟» واستطرد: «أن تقبضَ عليهما؟»

أجاب رئيس الشرطة: «أن أستجوبهما أولًا.» وتابع: «لن أدَعَهما يغيبان عن ناظِرَيَّ، على أي حال، بعدَ ما قلتَه لي؛ لأنني أتوقع أن تكون مُصيبًا في استنتاجاتك. ما الأمر؟» هكذا تساءل، عندما ناداه أحد رَجُلَيه اللذين كانا خلفه يتبعانه.

أشار الرجل عبر السوق إلى أبواب مركز الشرطة.

قال: «سيارتان توقَّفتا للتو هناك، يا سيدي» وأضاف: «انعطفتا توًا آتيتَين من طريق نوركاستر.»

ألقى رئيس الشرطة نظرةً سريعةً خلفه، ورأى أضواءً أمامية لسيارتين متوقفتَين بالقرب من بابه.

قال: «آه، حسنًا، سميث موجودٌ هناك.» واستطرد: «وإن كان أيُّ أحد يريدني، يعرف إلى أين أنا ذاهب. هيا، لأننا لا نعرف؛ فربما يكون هذان الاثنان قد رحلا بالفعل.»

ولكن كان يوجد ضوء رفيع يخرج من شقوق درفتَي نافذة الكوخ المنعزل على تلَّة شول، وهمس رئيس الشرطة قائلًا إنه من المؤكد أن أحدًا كان هناك ولا يزال مستيقظًا. أوقف مُرافقَيه خارج بوابة الحديقة والتفتَ إلى كوذرستون.

قال: «لا أدري إن كان من المستحسَن أن تُشاهد معنا أم لا.» وأضاف: «أظن أن أفضل خُطة ستكون أن أطرقَ الباب الأمامي وأسأل عن المرأة. أنتما الاثنان التفَّا، دون صوت، إلى الباب الخلفي، وانتبها لئلا يخرجَ أحدٌ من ذلك الطريق إلى الأراضي السبخة في الخلف؛ إن حاولَ أحدٌ الهرب إلى تلك الأراضي السبخة فسنفقد أثره إلى الأبعَدِ في ليلةٍ مظلمة كهذه. التفا، وعندما تسمعاني أطرُقُ الباب الأمامي، اطرُقا الباب الخلفي.»

تسلل الرجلان مبتعدَين وانعطفا عند زاوية الحديقة، وعبر حزام الأشجار الملاصق لها، وبرفقٍ رفع رئيس الشرطة مزلاج بوابة الحديقة.

قال: «ابقَ في الخلف، يا سيد كوذرستون، عندما أمضي إلى الباب.» واستطرد: «لا يمكن أبدًا أن تعرف ... أهلًا، ما الأمر؟»

كان رجالٌ يصعدون عبر الغابة خلفهم، بهدوء، ولكن بسرعة. كان أحدهم، متقدمًا عن الباقين، يحمل مصباحَ عين ثور، وعلى ضوء المصباح المتأرجح تبيَّن أنه أحدُ الضباط التابعين لرئيس الشرطة. أبصر رئيسه وأقبل عليه.

قال: «السيد بريريتون هنا، يا سيدي، ومعه بعض السادة من نوركاستر.» وتابع: «يريدون رؤيتك على وجه الخصوص؛ أمر متعلق بهذا المكان؛ لذا أحضرتهم ...»

في تلك اللحظة جلجلَ صوتُ طلقتَي المسدس وسط الصمت آتيًا من سكون الكوخ. وعندئذٍ اندفع رئيس الشرطة إلى الأمام، وهو يَصيح في الآخَرين، وبدأ يقرع الباب الأمامي،

وبينما استجاب رجلاه بطَرْق مماثل على الباب الخلفي، نادى بأعلى صوته على الآنسة بِيت، مطالبًا إياها أن تفتح.

كان مالاليو هو من شَرَّع الباب أخيرًا وواجهَ الجمع المحتشد بالخارج. تراجع كلُّ الرجال الذين كانوا موجودين هناك للخلف في خوفٍ عندما رأَوا القنوط البادِيَ على وجه الرجل المحاصَر. لكن مالاليو لم يتراجَع، وكانت يدُه ثابتةً بغرابةٍ وهو يُصوب مسدسه على شريكه ويُطلق عليه النار ليُردِيَه صريعًا، وكان بالثبات نفسِه وهو يتراجعُ خطوةً إلى الوراء ويُدير المسدس ليُصوبه على نفسه ويُطلق الرصاص.

بعد لحظةٍ اختطف رئيس الشرطة مصباح عين الثور من الرجل التابع له، وتخطَّى جسد مالاليو المسجَّى صريعًا، ومضى إلى داخل الكوخ، وعاد فورًا وهو يرتعدُ من هول صدمة المنظر الذي أبصره.

الفصل الحادي والثلاثون

أتعاب المحاماة

بعد ستة أشهرٍ، في أمسية لطيفة أتت خاتمةً مناسبةً لعصر أحدِ أيام شهر مايو، نزل بريريتون من أحد قطارات لندن السريعة في نوركاستر واستقلَّ قطارًا صغيرًا مضى في طريقه عبر مسار فرعيٍّ إلى قلب التلال. لم يكن قد عاد مطلقًا إلى تلك الأقاليم الشمالية منذ الأحداث المأساوية التي كانت الظروفُ قد أجبرتْه أن يكون شاهدًا عليها، وعندما وصل القطارُ الصغير إلى مرحلةٍ من مساره المتعرِّج وسط تُخوم المرتفعات الداخلية والوديان التي كان يمكن منها رؤية هاي ماركت، وفوقها تلة شول المتوَّجة بالأشجار، أدار وجهه بحزمٍ ونظر في الاتجاه المعاكس. لم تكن لديه رغبةٌ في أن يرى البلدة ثانيةً؛ كان سيُسَرُّ لو اقتُطِع ذلك الفصل من كتاب ذكرياته. ومع ذلك، نظرًا إلى أنه كان قريبًا منها، لم يستطع أن يتجنَّب الذكريات التي أقبلَت متزاحمةً في ذهنه بسبب عِلمه بأن الأسطحَ المثلَّثة والأسقف الحمراء لمنازل هاي ماركت كانت هناك، على بُعد ميلٍ أو ميلَين، لو كان يرغب في أن يُلقيَ نظرةً نحوها على وميض الشمس الغاربة. لا، لن تطأَ قدمه مجددًا تلك البلدة طوعًا أبدًا! فلم يكن يوجد حينئذٍ أحد هناك لديه أيُّ رغبة في أن يراه. لقد باع بينت مشروعَه التِّجاري، عندما وَلَّت أصعب الأوقات، وكُتِبَت كلمة النهاية في الحكاية الغريبة والوضيعة، وفي هدوءٍ تزوَّج ليتي وأخذها بعيدًا ليُقيما مدةً طويلةً خارج البلاد، قبل أن يعودا ليستقرَّا في لندن. كان بريريتون قد التقى بهما ساعةً أو ساعتَين عندما مرَّا بلندن في طريقهما إلى باريس وإيطاليا، وأذهله أكثرَ من ذي قبل تقبُّلُ السيدة بينت المتفلسِفُ للحقائق. كانت وجهة نظر ليتي أن والدها كان دومًا رجلًا مظلومًا ومكلومًا بشدة، وكان قدَرُه أن يُعانيَ جرَّاء ارتباطه الذي دام طيلة حياته بذلك الرجل الأثيم الفاسد؛ مالاليو، وللأسف فقد لقي جزاءه في النهاية، ولم يكن يوجد ما يُقال حول ذلك أكثر من هذا. ربما كان من الجيد، هكذا فكَّر بريريتون في نفسه، أن زوجة بينت كانت بهذا القدر من الهدوء

واعتدال المِزاج؛ لأن بينت، لدى عودته إلى إنجلترا، عمد إلى دخول معترَك السياسة، ومن شأن ليتي بلا شكٍّ أن تكون زوجةً مُعِينة مثالية لرجل مشتغلٍ بالشأن العام. ستُواجه المواقف بهدوء أعصاب ورأي متزن؛ وهكذا، من تلك الناحية، كان كل شيء على ما يُرام. ومع ذلك، كان بريريتون يعتقد اعتقادًا راسخًا أنَّه لا السيد بينت ولا زوجته سيُعاودان زيارة هاي ماركت أبدًا.

أما هو، فمضت أفكاره متجاوزةً هاي ماركت، إلى ذلك المكان وسط التلال الذي لم يكن تكن عيناه قد وقعتا عليه من قبل. بعد براءة هاربورو المستحقة، كان بريريتون، بعدما أدى مهمَّته، قد عاد إلى لندن. ولكن منذ ذلك الحين حافظ على تواصُل منتظم مع أفيس عبر المراسلات، وعرَف كلَّ تفاصيل الحياة الجديدة التي كانت آفاقها قد فُتِحَت أمامها هي ووالدها بمجيء السيد رايثويت سليل آل راي. كانت رسائلها مفعَمةً بوصفٍ نابض بالحياة لضيعة راي ذاتها، ومنزل الوكيل الذي صار مقرَّ إقامتها هي ووالدها الذي عُيِّن وكيلًا وقائمًا بأعمال ضيعة أخيه في الرضاعة. كانت تتمتع بموهبة الوصف، وكان بريريتون قد كوَّن فكرةً جيدةً عن ضيعة راي من رسائلها؛ كانت مكانًا عتيقًا ورومانسيًّا، يقع وسط التلال البرية لإقليم «ذا بوردر»، منعزلًا بين الأراضي السبخة، ويتميَّز بإطلالة واسعةٍ على مشاهد النهر والبحر. كان من الجليِّ أنه مكانٌ من النوعية التي يمكن لعاشق للأماكن المفتوحة والخلاء أن يعيشَ فيها حياةً مثالية. لكن بريريتون كان قد سافر قادمًا من لندن في الجنوب بغرض أن يطلب منها أن تتركَ ذلك المكان.

كانت قد راودَته أخيرًا نزوةٌ مفاجئة، مجهولةٌ للجميع، ومِن ثَمَّ كانت غيرَ منتظَرة. بعدما ترك حقيبته في المحطة الصغيرة في الوادي الذي ترجَّل فيها من القطار في اللحظة نفسِها التي كانت فيها الشمس تحطُّ رحالها خلف التلال المحيطة، سار بسرعة صاعدًا طريقًا متعرجًا بين غابات التنوب والصنوبر نحو المنزل الرماديِّ الضخم الذي كان يعرف أنه لا بد أن يكون المكانَ الذي كان الرجلُ القادم من أستراليا قد أتى إليه مؤخرًا بداعٍ من ملابسات خياليَّة. على قمة تلة صغيرة تَوقفَ وأجال النظر فيما حوله، متبينًا المشاهد التي عرَفها من الوصف الذي كانت أفيس قد قدَّمَته له في رسائلها. هناك كانت ضيعة راي ذاتها؛ بُقعة كبيرة من العالم القديم، واقعة وسط الأشجار على قمة فسحة ممتدَّةٍ شبيهة بالحدائق من أرض منحدرة؛ تلال في الخلفية، والبحر يلوح في الأفق على مسافة بعيدة. كانت أنقاض برج قديم واقعةً بالقرب من المنزل؛ وعلى مسافةٍ أقربَ إلى بريريتون كان منزل أصغر يقف منتصبًا في حديقة زهور عتيقة الطِّراز، شُكِّلَت باقتطاع منطقة

منبسطة على سفح التل، عرَف — أيضًا من وصف سابق — أنه منزل الوكيل. أخذ يتطلَّع طويلًا إليه قبل أن يدنوَ منه، آمِلًا في أن تلتقطَ عيناه رفرفةَ عباءة وسط أشجار الورد المتألقة بورودٍ قد تفتَّحَت. وأخيرًا، مارًّا عبر أشجار الورد اتجه إلى المدخل المسقوف الحجري وطرَق الباب، خائفًا قليلًا من أن تكون أفيس هي مَن يفتح له الباب. ولكن أتت شابةٌ طويلة قوية البنية متوردة الخدين، عليها سِمات سكان شمال إنجلترا، أخذت تُحدق في المسافر الذي كان واضحًا بجلاءٍ أنه قادمٌ من مناطقَ بعيدة قبل أن تُحِيرَ نطقًا. قالت إن الآنسة أفيس لم تكن بالداخل، وإنها في الحديقة، في الطرف القصي.

أسرع بريريتون الخطى إلى الحديقة؛ وبينما كان ينعطف عند زاوية، التقيا على نحوٍ غير متوقَّع. وعلى نحو غير متوقع بالمثل، كانت طريقةُ لقائهما. وذلك لأن هذين الاثنين كانا متحابَّين منذ مرحلةٍ مبكرة من تعارفهما، وبدا أنه من الطبيعي أن تتلامس أيديهما، وأن تظل الأيدي متعانقة. وحينما تتعانق أيدي شاب وشابة، وخاصةً في أمسية ربيعية، وفي ظل أكثر الظروف والأطُر رومانسية، يكون تلاقي الشفاه أميلَ إلى التعبير أكثر مما يمكن للألسنةِ أن تقوله؛ وهو ما يعني أنه من دون المزيد من المقدمات عَبَّر هذان الاثنان عن كل ما كانا يُريدان قوله بقُبلتِهما الأولى.

ومع ذلك، تمكن بريريتون أخيرًا من أن يجد الكلمات. لأنه بعدما أخذ يتطلَّع إلى الفتاة بنظرة طويلة ومتفحِّصة ووجد في عينَيها ما كان يبحث عنه، استدار ونظر إلى الغابة والتل والبحر.

قال، وذراعاه تُطوِّقان خصرها: «كل هذا مثلما وصَفتِ، ومع ذلك أول شيء حقيقي يتعين عليَّ أن أقوله لكِ بعدما صرت هنا ... أن أطلب منكِ أن تُغادريه!»

ابتسمَت لقوله، ومجددًا وضعت يدها في يده.

قالت: «ولكن ... سنعود إليه من وقت لآخر ... معًا!»

هنـــداوي